آرتمیس

آرتميس

ولاء أحمد

تصميم الغلاف: محمد علي

رقم الإيداع: 2018/ 26868

I.S.B.N:978- 977-6640-40-5

الطبعة الأولى 2019م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر: د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E - mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

ولاء أحمد

آرتميس

رواية

إهداء

" إلى الذي روى تربتي بالكتب ..

فإن أينَعَت ..

فَلَهُ ..و منْهُ..

إلى أبي..أهدي أولى الثمار.."

مقدمة الكاتب

لا أدري هل وجب قول هذه الكلمات أم لا..لكني قررت قولها على أية حال.. كعادة الأيام حين تسوق إلينا ما لم يكن بالحسبان..جاءت هي..بكل تلك الخبايا..وبوعد لم أصادف مثله بحياتي..لم تكن علاقتنا مترابطة إلى الحد الذي يجعلها تعهد إلى قلبي بسرّها..

لكنها أتت..

كان يوماً عاصفاً..لا زلت أذكر تفاصيله جيداً..كنت وقتها بشقتي منفردة ..ظللت وقتاً طويلاً أغالب النوم بينما فكرة عصيّة تجذبني نحو الأرق..كنت بصدد كتابة رواية ما..تنازعني أحداثها..لكن الفكرة كانت عنيدة ..وما كاد النوم يلامس أجفاني حتى فوجئت بطرق على الباب..

***

حينها آمنت أننا قد نقترب -في لحظة ما- مما لم نقترب منه طوال سنوات مضت..وآمنت أيضاً أن هذه اللحظات لا تطول..وربما ليس لها أن تطول.. آمنت كذلك أن فكرة الرواية أضحت تحت يدي..لكنها غير مشابهة إطلاقاً للفكرة الأولى..وهي ليست طوع صياغتي..بل كتبها القدر قبل أن تخطها يداي... لكن تستمر تلك الفكرة في تشكيلي حيثما تريد..فتغير النهاية على حين غرة..لأجد نفسي أسطر ما لم يدر بخلدي يوماً..

الآن أعترف أنها لم تكن بالمهمة السهلة إطلاقاً..ولعلك _عزيزي القارئ_ ستدرك في نقطة ما..إذ أني أثق بوجود هذه النقطة مراراً_ أن العبء الملقى على كاهلي كان صعباً..

لطالما كنت ولعة بتخليد الحرف..والانسياق وراء خيالاته ..لكن خيالي كان خجولاً أمام سطوة الواقع..فأخلى له الطريق رغماً.. ليس لي أن أضع بصمتي بين طيات الأسطر.. ليس لي ذلك ... بل أن وجودي العابر وجب أن يكون خلف لثام من اسم مغاير للواقع.. فلم يعد في يدي غير تغيير الأسماء

وتمويه الصورة قليلاً..برغبة منها..ولم أجد نفسي إلا منساقة وراء تسليط الضوء على تفصيلة دقيقة ..دقيقة جداً..تبلغ من العِظم أنها احتفظت بدقتها ولم تكن صاخبة..رغم كل شيء..

كل ما أود قوله أني ضقت ذرعاً بحمل هذه الحقيقة الهائلة _وربما قد تلتمسون العذر لي يوماً_ فطرحتها بين يديكم علّ قلوبكم تجد لها مكاناً ..

الفصل الأول

أضحت الغرفة مقلوبة رأساً على عقب، الوسائد تتطاير بلا هدف.. انزلقت محتويات المكتبة أرضاً في محاولة بحث باءت بالفشل..حاولت وفاء مراراً تهدئة صديقتها ثم قالت..: إلهام ! ..هذا العبث لن يعيد لكِ لوحتك، إهدائي وسنجدها.

ارتمت إلهام على أقرب مقعد بجوارها وتمتمت في يأس: سنجدها.. نعم، لأنه لا خيار آخر..لكن أين؟ أخبريني أين وأنا سأهدأ فوراً.

أخذت وفاء تعيد تنسيق الغرفة وهي تقول: ليس للوحتك أجنحة على أية حال يا دكتورة.

لم ترد إلهام على سخرية صديقتها وشردت، فأدركت وفاء إلى أي مدى قد لامست أحرفها وتراً حساساً لدى الأخيرة، وفاء وحدها تدرك إلى أي مدى ترتبط إلهام بهذه اللوحة، أو لنقل أنها الشيء الوحيد الذي تمتلكه إلهام حقاً فيما يخصُّ والدها، كانت لوحة غريبة بعض الشيء، تصور بألوانها الزيتية امرأة مستلقية لا يكاد يتضح من ملامحها الجامدة حية هي أم ميتة! ترتفع يمناها عن الأرض قليلاً لتقترن بأصفاد حديدية إلى جسد هلامي مرتفع أشبه بما يصورونه بهيئة الروح؛ يمثل آلهة يونانية لا تتذكر وفاء اسمها على وجه الدقة.

أفاقت من شرودها على انطلاق إلهام صوب الباب، فاعترضت طريقها في استفسار صامت.

فقالت إلهام: إلى العيادة يا صديقتي؛ في الحقيقة أنا تذكرت للتو أني قد نسيت حقيبتي هناك، ولربما كانت اللوحة فيها، نعم، يجب أن أجدها الليلة.

انفجرت وفاء قائلة وقد نفذ صبرها: أمجنونة أنت؟ إنها الثانية عشرة، وفي هذا الظلام وحدك؟ ثم أتظنيني أتركك؟.

قالت إلهام بهدوء مصطنع: ستفعلين، ولن أحيد عن قراري..

كانت وفاء تدرك إلى أي مدى قد يذهب العناد بصديقتها فأردفت: سآتي معك.

التقطت إلهام مفاتيح السيارة من على الطاولة وفتحت الباب برفق وهي تقول: أحتاج أن أبقى منفردة للتفكير بما عرضتِه عليّ اليوم أتذكرين؟

***

تنهدت وفاء بعمق وراحت تفكر بأمر صديقتها؛ إنها الأقرب لقلبها منذ أن جمعهما القدر أثناء دراستهما للطب النفسي، جمعهما نفس المجال، ونفس السكن الذي اتخذتاه مؤقتاً تبعاً لظروف العمل، صارت أختاً لها، ربما أكثر ما يحفز التقارب بين شخصين هو: المرور بنفس الظروف المتشابهة، حين يجتمع نفس الألم، تتوحد القلوب، إن الإنسان قد يعتاد، لكنه كاذب إن ادعى النسيان..

إلهام كانت وحيدة رغم كلّ تلك الجموع الملتفة حولها، وحدها وفاء أدركت أن صديقتها وحيدة القلب مثلها، انفصل الأب والأم وبقيت وفاء مشتتة الروح بين أهل الوالدة، وانعزال الوالد، إلهام لم تكن ثرثارة مثل رفيقتها، لم تكن تقص آلامها لكلّ من عبر بجوار قلبها، كانت تبتسم..تبتسم وحسب.. من المضحك المبكي أن ينحصر مجال عملهما بالطب النفسي..أو ربما هو أساس قانون الواقع الساخر، فاقد الشيء باستطاعته أن يعطيه وعلى أكمل وجه..

وفاء كانت تعتصر ألماً حين تفكر بحالة صديقتها في الآونة الأخيرة، كانت إلهام قد بلغ بها الضجر ذروته، أدمنت السهر بجانب فنجانها ولوحة أبيها، تتأملها بعمق كأنها المرة الأولى التي تقع عيناها عليها، ربما صبرت كل تلك السنوات، فلم يتبق من صبرها شيء تحتفظ به للغد..

كان عليها أن تساعدها في الخروج من هذه القوقعة بطريقة ما، وكان الحل بنظر وفاء هي محاولتها الجمع بين إلهام وزميلهما سيف..سيف كان قد تقدم لخطبة إلهام مراراً وكانت هي بدورها ترفض بحجج تختلف عن

سابقتها، سيف كان زميل عمل..شخصية غير قيادية إلى حد ما..أو ربما طواعيته معهما جعلته يبدو بهذه الصورة..لكن؛ وفاء كانت قد عقدت العزم أن تكون هي الوسيط الحاسم هذه المرة..

***

تنهدت إلهام بارتياح وهي تضع لوحتها العزيزة بالمقعد الخلفي للسيارة..وما إن استقرت هي بمقعدها حتى أطلقت لخيالها العنان..

جيد أن وجدتها الليلة وإلا لباتت في حسرة حتى الصباح، نادراً ما يختصر المرء ذاته بشيء جامد، لكنها اختصرت ذاتها بلوحة؛ القيود حول المعصمين أشبه بتلك التي أحاطت بحياتها لتمنع الروح الانعتاق من سجن الجسد.

لوحة تجسد حياتها دون حرف واحد..وما الضير في ذلك، وقد خُلِقت اللغة لتخفي خلجاتنا..

اللغة مزيفة أما الصور فلا

يمكن للمرء أن ينمق كلماته كما يجب..لكن تفاصيل عينيه تفضح كل شيء..لا تدري لمَ بهذه اللحظة بالذات ودت لو تصل لصديقتها حالاً فتبثها ما يعتمل بنفسها.. "وفاء.. تلك الكائن الملائكي أو ملاكها الحارس" كما يقولون.. احتضنت وفاء ضعفها حين أظهرت هي للجميع وجهاً صلباً صدقوه..وفاء وحدها احتوت هشاشتها حين اعتقد بها العالم الصرامة والجد..وما أبعدها عن الصرامة والجد.

ربما الظروف المتشابهة وحدتهما، لكن لا..لا يمكن أن يوجد على وجه البسيطة من أحسّ بطعم المرارة التي تجرعتها عن آخرها. ثم يأتي متطفلون يستنكرون سوء حالتها النفسية! وإنما هو رذاذ تطاير من محيط لا حد له؛ محيط هادئ السطح وفي قلبه ألف اضطراب..فمن بإمكانه استيعاب هذا الضياع سواها؟ حتى وفاء نفسها قد ألحت في اليومين الماضيين تحاول إقناعها بأمر الزواج من سيف لعل ذلك يمنحها حياة جديدة..

لكن..هل ثقل الحمل الذي تعاهدنا أن نحمله سوياً حتى تضغط وفاء بكلّ طاقتها هكذا؟!

حدثت إلهام نفسها بذلك وقد ترقرق الدمع بعينيها، وشعرت بشجن يجتاح كيانه، شجن ربما لا يدري المرء كيف يصفه بأنّ له لذة ما، لذة لا يدركها إلا أولئك الحالمون وحدهم.. لذة مريرة تلامس أوتارنا حين نستعيد ذكرياتنا التي تؤلمن، أو تلك الحلوة منها التي لن نطالها قط..

آه يا أبي لو تدرك ما حلّ بابنتك بعدك، لو تدرك مدى تلاشيها وسط هذا العالم الرديء..

أما أنتِ يا أمي فسامحك الله..سامحك الله وحسب..

تذكرت طفولتها؛ قسوته..وطموحها..و..ذلك اليوم الذي لا تدري للآن هل يجب أن تصفه بالسعيد لأنها أدركت الحقيقة أم تصفه بأنه الأكثر تعاسة على الإطلاق..!

رباه..لماذا يجب أن تحمل الأرض معذبين كأمثالنا، لكن لا، هذا البؤس لا يجب أن يمتد ليطال مستقبلها، كانت تدرك في قرارة ذاتها أن من يجتث الجذور ليس عليه أن ينتظر الثمار، لكنها كانت تتشبث بأمل واهٍ.

هزت رأسها يمنة ويسرة عسى أن تجانبها الأفكار، لكن بلا جدوى..

" سيف"..ربما لا ذنب له ليرتبط بإنسانة تمتلأ بكل هذه الاضطرابات، لا ذنب له سوى أنه أحبها، لكن..كيف توافق على بناء أسرة إن كانت لا تملك أساساً لهذا البناء..كيف عساها تغامر لكي تجلب أبناء للدنيا هكذا بلا رويّة إن كانت تحبهم فلن تجليهم لهذا الجحيم مختارة..

انتبهت من أفكارها إثر سخونة الموتور المفاجئة..المؤشر يقترب من المئة، لم تعتد أن يسخن الموتور لهذا الحد..أوقفت السيارة بجانب الطريق.

لم يكن بالأمر السهل أن تتوقف تستمد مساعدة في هذه المنطقة الخالية، وبهذا الوقت خصوصاً..كان عليها ملء الراديياتير بالماء حتى تتفادى سخونة الموتور..ترجلت من السيارة في تذمر وهي تبحث بعينيها عن مخرج

من هذه الأزمة..فكرت الاستعاضة عن السيارة بالمشي ريثما تجد حلا ما..الطريق للمسكن بعيداً..أما وأن السماء تزدان بقمر تنافسه النجوم من حوله في مشهد خلاب فلا بأس إذاً من التسكع بعض الوقت دون أن تبتعد عن السيارة كثيراً إلى أن تجد حلا.

تأملت القمر في شرود كعادتها..ربما خيالها الجامح أتاح لها أن تعقد صداقات مع كل ما تقع عليه عيناها..أو لعلّه يذكرها بأسطورة آلهة القمر اليونانية تلك..اقتربت من السياج؛ إنعكاس ضوء القمر بدا كلجين منسكب اختلط بالماء، فتألق كألماس يمتص جماله أي شجن، أخرجت هاتفها تستطلع كم مضى من الوقت ففوجئت ببطاريته فارغة الشحن، وعلى ضوء القمر استطاعت بعد أن دققت النظر لساعة معصمها أن ترى مؤشر الساعة يقترب من الواحدة، جيد أنّه تبقى لديها يومان من اجازتها، حالتها النفسية الأخيرة دفعتها لراحة تفرغ فيها رأسها من مهام العمل، كانت تهوى السهر.. تهوى كل ما يرتبط بالليل تقريباً..لا تدري أي سر يشدها إليه.. ربما هدوءه النسبي.. ستائر الكون التي تخفي بشاعة الدنيا، دائماً ما يرتبط الليل بالعزلة..رغبتنا في أن ينام الكون ونبقى نراقبه عن بعد..من أقصى مجاهل الذات.

في لحظات صفاء مثل هذه..كان عليها أن تحتاط من مداهمة الماضي لها، ومن مناداته التي لا فكاك منها.

-آنستي.

رباه..ليس هو الماضي بالطبع الذي جاد بمناداته، التفتت للخلف..كانت تتوقع أن تجد مصدر الصوت واقفاً خلفها..لكنه كسر كل قواعد الخيال وإذ به جالس على صخرة مقابلة للسياج

لم يرفع بصره حتى..يرتدي معطفاً يكاد يلامس الأرض لفرط طوله..شيخ في الستين..هكذا بدا على تجاعيد يديه المتكئة على عصاه..أما وجهه فلا

يتضح من ملامحه سوى لحية طالت عن إهمال ووشاح يغطي رأسه وجزء من وجهه.

استبد بها الخوف للحظة، وعصفت برأسها أسئلة لا حصر لها من؟ ولماذا يناديها؟ وأخيرا كيف يجب أن تتصرف؟

خيل إليها أن لحظات صمتها قد امتدت لساعات قبل أن تسمع صوته مرة أخرى:

-كيف حالك ؟

لم يكن مجرد سؤال كانت نبرته موحية بألفة امتدت لسنوات..

-لكن من أنت؟

رفع عينيه وتأملها في هدوء..فتاة في منتصف العشرينيات..بعمر ابنته تقريباً..-هذا إن كان لديه ابنة..ترتدي فستاناً طويلاً من الدانتيل الأسود..وينساب شعرها بلا قيود ويمتد حتى خصرها..

قال وقد أرخى عينيه لأسفل:

أتدرين..لأول مرة أراكِ متحررة من ثياب العمل هكذا..وهذا جيد على أية حال..فقد أردتك اليوم إنسانة لا طبيبة..

اندهشت لنبرته الواثقة فسألته : وهل رأيتني من قبل؟!..أتعرفني ؟

أومأ بالإيجاب : نعم..

-إذاً..من تكون ؟

نقل عصاه إلى يسراه وأجاب: وهل نحتاج لصفة كي نتحدث إلى البشر..ألا يكفي أن نكون بشراً مثلهم..

قالت بعصبية تحاول أن تكبح جماحها:

-نعم نحتاج لصفة..لا يمكننا أن ننادي شخصاً ما بالطريق نتأمله من رأسه حتى أخمص قدميه ونسأله عن حاله دون أن يعلم هذا الشخص من

نكون، ثم نتوقع أن يتجاذب معنا أطراف الحديث..سيدي..لآخر مرة أسألك من تكون؟

-صحيح كل ما قلتِه..لكن لو تلاحظين..كنت أتحدث عن البشر..البشر أمثالك وحدهم من يستوعبون هذا الغريب برحابة صدر..أما سوى ذلك من الناس فلا شأن لي بهم..وربما أنا لا أعترف بكونهم بشراً.

أطرقت خجلاً فأكمل :

-ومع ذلك سأخبرك من أنا..وأنا إنما أتيت إلى هنا لأخبرك.

قالت باندهاش ملحوظ: هل تود إخباري أنك أتيت إلى هنا لأجلي..لكن..كيف عرفت أنني هنا.. والآن..أنا لا أفهم شيئاً.

-إن طال الوضع بهذه الأسئلة العصيبة لن تعلمي شيئاً..هلا هدأتي قليلا.

كانت إجابتها الصامتة إيذاناً له ببدء الحديث.

عدل من جلسته قليلاً وقال :

-اسمعي..إنني على وشك إخبارك بأمر هام..هل هكذا يجب أن تكون المقدمة..لكن لا..هذه اللحظة لا تتكرر كثيراً..يجب أن أحظى بتقديم أكثر وقعاً في النفس..

قالت بنفاذ صبر تواريه كلماتها:

بلا مقدمات سيدي..أنا أستمع.

-بلا مقدمات؟..لا يجوز يا آنستي..لكنى أعذرك على أية حال، فأنت لا تعلمين لذا ألتمس لكِ العذر..إن المقدمة تعني لي الكثير..بل لو كان باستطاعتي أن تنبت الأرض زهوراً ويكون لقاؤنا أشبه بعرس هندي لفعلت..أنتِ لا تعلمين، لا بأس، هذا أفضل، حتى العرس الهندي قد يبدو كئيباً حينها..إن لحظات الاعتراف هذه تحول المرء لفيلسوف أشبه

ب"نيتشه" الذي يصبغ كلّ ما تقع عليه عيناه بنظرة سوداوية أشبه بهذا الذي ترتدينه.

-سيدي..ألا ترى أن بالأمر هزل كبير..ثم ما هذا الذى أفعله أنا..مخطئة أنا حين انتظرت..كان يجب أن أرحل فوراً.

همت بالرحيل حين تناهت لمسمعها جملة جمدتها تماما

-لكن سيارتك معطلة..كيف سترحلين؟

تمتمت بصوت غير مسموع : وكيف علمت؟

-والآن..اجلسي واستمعي بهدوء..ثم لكِ مطلق الحرية..ما من شيء باعث على القلق..إنما أنا رجل تجاوز الخمسين..ثم أنا خائر القوى كما ترين استمد بعض قواي من عصا.

قالها واشاح بعصاه في الهواء..ثم أكمل:

-سأجلو حيرتك أولاً كما تحبين، إنما أنا استطلع أخبارك منذ مدة، مدى براعتك بمهنتك..لكن..كما قلت منذ قليل..إنما أردتك كإنسانة.. كان عليّ أن أختار أحداً..وأعتقد أني أحسنت الاختيار.. صدقيني إن قلت أني لا أستطيع أن أجيب إن سألتِني: لمَ أنتِ بالذات؟ وصدقيني أيضاً إن قلت أن السر ربما يكمن بعينيكِ..أو هو كذلك.."إلهام السويفي"..إلهام..كان هذا الاسم مدوياً في كلّ أركاني..ربما لسبب قد أطلعك عليه لاحقاً..اسم أثار في جسدي رعشة قوية، صورتك بجوار اللافتة التي تعلو مدخل عيادتك الخاصة، تلك الابتسامة التي تكشف عيناك عن زيفها..وقتها قررتُ أن تكوني أنت اختياري..أنت وحسب..

لكن ما بكِ قد عبست هكذا..هل قلت ما يزعجك حتى الآن ؟

-لا..لا..اكمل ما بدأت.

الحقيقة أن ما أزعجها حقاً هو ذكره لاسمها..وهي التي كلما مر بصرها باللافتة المذكورة بلغ بها الحزن مبلغه.

-الحقيقة يا آنستي، واسمحي لي أن..أن أحدثك هكذا بلا ألقاب..في نظري إنما الألقاب تصنع مسافات شاسعة بين الأشخاص، وأنا لا أريد مسافات قط..وأنا لا أريد ألقاباً..إنما أنا هنا كإنسان يخاطب إنسانة..لا كمريض يخاطب طبيبته.

أجفلت قائلة: أمريض أنت؟

كيف لم تستوعب هذا؟حديثه الغريب وهذا التوقيت الأكثر غرابة..إنها بورطة إذاً

قال وكأنما قد قرأ أفكارها: ربما لست مريضاً بالمعنى الذي يجول بذهنك..لم أتحدث لطبيب نفسي أبداً..فيما عدا الآن بالطبع..لكن ربما كنت مريضاً حقاً..من يدري؟..لا يوجد مريض نفسي يعلم بمرضه.

-سيدي، أرجوك..قل لي مباشرة دون هذا الحديث الطويل الذي لا أخرج منه بشيء ذي بال.. لماذا تود التحدث إليّ..؟..لماذا هنا؟..لماذا كنت تتابعني من الأساس؟ وكيف عرفت أن سيارتي قد تعطلت؟.. اجب عن هذه الأسئلة قبل أي شيء وإلا سأنصرف.

أجاب بنبرة مسرحية:

-لماذا أود التحدث إليك..لأنك أنتِ وحدك قد تفهمين ما سأقول، لماذا هنا.. ربما لأني أحب هذا المكان ولأنها مسافة كافية ليسخن الموتور الخاص بسيارتك.. لماذا أتابعك.. لكي أحظى بهذا اللقاء.. أما بخصوص سيارتك فسأصدقك القول أني أنا من أحدثت ثقبا بالراديياتير.

توالت أسئلتها وكأنما تفسيره كان يزيد الأمر غموضاً:

-أنت؟ لكن لماذا: ومتى..كيف ؟

ثم تعالى صوتها وهي تقول في عصبية: قل لي من أنت حالاً؟

أجاب بانفعال مفاجئ :

-أنا رجل ..مجرد رجل أراد بعضاً من وقتك..أراد فقط أن تصغي إليه..رجل تتبع أمرك طويلاً وسنحت له الفرصة أخيراً..ربما قمت بعمل لا أخلاقي ليسخن الموتور، وتتوقفين هنا، كان هذا محض صدفة حين شاهدت سيارتك أمام عيادتك الخاصة في وقت أعتدت فيه أن أكون بالخارج..تراني أجرمت؟

أنا فقط أردت من الكون أن يستمع لي شخص ما، يستمع لي فقط دون أن يعتصرني بأسئلته هكذا..ربما هو بالأمر العظيم أن يستمع لي أحدهم ..

فقط يجلس ويستمع دون أن يبذل أية طاقة..ثم هائنذا..يقع اختياري على إنسانة آمنت كثيراً بمصداقية اعتقادي في إنسانيتها..إنما أردت أن تصغي إلى حديثي فإن كان هذا أمر يرهقك فمن شأنك أن تذهبي يا ابنتي ولا لوم عليك.

كانت هذه الكلمات قد نالت من كيانها تماماً، وكان لوقع كلمة ابنتي صدى غريب في ذاتها

ردت بصوت خافت:

-اعتذر لك بحق كلّ ما هو غال عندك انس ما حدث مني منذ قليل..أنا أستمع إليك..استمع إليك بكل جارحة عندي..وماذا في ذلك؟ جميعنا مرضى نفسيين، صدقني كلماتك أيقظت في قلبي أشياء كثيرة..البوح، نعم، هذا هو السر..والآن يا سيدي تحدث..تحدث ولن أقاطعك إلا حين تسمح لي أنت بذلك.. أما وقتي فخذ منه ما شئت.. الوقت له قيمة عند من يتشبثون بالحياة..أما أنا ..فأنا أرخي قبضتي منها لتتسرب كما يحلو لها. الآن يا سيدي تحدث..ربما حاجتك للحديث لا تضارع حاجتي للإنصات داخل عملي أو خارجه مهنتي أن أنصت..لكن الإنصات سلب مني القدرة على البوح..ليس لي أن ألقي اللوم على أحدهم.. فالمشكلة بعجز لساني عن الحديث، لساني يا سيدي ليس له القدرة أن ينوء بحمل سنوات. هؤلاء الصامتون..لا تظن أن صمتهم هو ناجم عن فراغ الكلمات..أبداً يا سيدي..الصمت الحقيقي هو

صدى لطوفان من الكلمات..آوه لعلي ثرثرت بما يكفي..والآن ..أنا أنصت إليك.

أطرق طويلاً حتى خيل إليها أنه شبه نائم وأخيراً رفع رأسه وقال:

-الآن..أقولها بملء فمي أني أحسنت الاختيار..أولاً وقبل أي شيء أطلب منك أن تغفري ما فعلته بسيارتك أو أني سعيت للقائك بطريقة تبدو إجرامية بعض الشيء..لكن صدقيني كان هذا هو خياري الوحيد وفرصة لا تلوح كثيراً..فقط قولي أنك سامحتني وسأبدأ حديثي فوراً.

-سامحتك..خالصة من قلبي.

قالتها بابتسامة ودودة واتخذت من حائط السياج المنخفض مجلساً مقابلاً له.

تأملها من جديد..ملامحها مألوفة لديه..شيئاً ما يدب في جسده ليخبره بإيقان أن روح كليهما متقاربتان كثيراً..شرد وكأنما يستعرض الماضي سريعاً أمامه..

الفصل الثاني

From:Salmasalah111@gmail.com

To:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

Data:25November

Subject: السلام عليكم

وجدت نفسي هنا..بهذا الموقع أرغب باستشارة ما..لم أعتد ارتياد أمثال هذه المواقع..ربما وجدتها وسيلة للتنفيس عما بي..

الحق أنه ربما ارتيادي الوحيد لهذه الأماكن، كان هو التأمل لليافطات التي تشغل طريق النصر والأوتوستراد، مجرد تأمل وإعراض عن التقدم خطوة واحدة نحوها..

لست مريضة ..

فقط أنا ساخطة..أو ربما يعد السخط نوعاً من المرض..لا أدري..ربما لا تنتهين لرسالتي وسط بريدك المكتظ بأشباهها، ولن أعيد إرسالها إلى أي طبيب آخر..إذ لا حاجة بي لكم..أنتم مثلنا..هذا ما أحسبه..

والآن أحسبني أهذي..ما كلّ هذا الذي أخوض في قوله..

فقط أود استشارتك ..

هل يمكن للمرء أن يُبعث من جديد..خلال حياة واحدة ؟..ولا أقصد بعث الآخرة..إنما أقصد بعث الدنيا، هل بإمكاننا ترميم حطامنا؟

لكن أرجوكِ تجنبي هرطقات التنمية البشرية، تجنبي محاولة حقني بجرعات أمل أنا أدرك تفاصيل سردها جيداً..

أنا لست يائسة..لست مريضة..فقط أتساءل لو تمّ سحق حطام بشري.. هل تراه يعاود الحياة؟؟

وإنما أعني الحياة الطبيعية.

هل تراه يبصر الكون في صفاء بلا تشوهات ولا خدوش؟

ربما يوجد بدراستك ما يقاوم منطقي..

إجابتك ستحدد أشياء كثيرة..لكن أود لو أجدها إجابة منطقية تقنع عقلي..إياكِ ومحاولة لمس قلبي فإنها غير مجدية..غير ذات نفع على الإطلاق..

دعيني أوضح لك الأمر بعض الشيء..هذا إن كنتِ تمتلكين الوقت لقراءة كلّ هذا بتأني لا بتصفح سريع..هذا إن قرأته من الأساس..

دعيني أوضح لك الأمر..

لو أنكِ سائرة بطريق ما..لو أن ثمة سائر بطريق ما..وهو لا يرى في طريقه غير الازدهار..طريقه وردي فيه حلاوة البراءة الأولى..إذ أنّ كلّ ما يعبث بهذه الحلاوة لا يلبث أن يُنْسى عبثه.

وهو في غمره فرحته تلك..إذ بانفجار ضخم يملأ سماءه..وتتناثر الأشواك بطريقه فلا تترك موضع قدم إلا ونشبت به، أخبريني هل من الممكن أن يعاود زراعة زهوره؟..

ولنفترض قيامه بهذا..هل بإمكانه محو آثار الأشواك؟ هل بإمكانه أن يأمن العواصف؟

بل كيف له أن يخطو خطوة أخرى دونما قلق..

لقد غادرته البراءة الأولى وتحطم منظاره الوردي..صدقيني..حتى لو جملوا له ألف منظار آخر..فإن المدرك لا يعود لنظرته الأولى أبداً..

يا لي من غبية!..كيف أقتص منكِ كل هذا الوقت _هذا إن كنتِ ستقرأينه_..دونما التفات إلى دوراني في حلقة مفرغة..

أتراكِ تفهمين ما أرمي إليه؟..وربما أنا أيضاً لا أفهمه..أنا ساخطة على هذا الكون، وعلى كل من فيه، ما كان يجب أن أكون هنا، ما كان يجب أن أكون لطيفة يوماً، إنني _لو تعلمين_ نادمة أشد ما يكون الندم على أي لطف بادرت به..إذ أني كنت دوماً المبادِرة..نادمة على الابتسامة.

نادمة على أنني لا زلت أحمل قلباً يداهمه اللين رغماً..كم أود لو أمتلك القسوة دون أن يفلت زمامها من يدي..

ونادمة أيضاً..أنك لن تعلمي ما الذي يدور بقلبي..لعلك تظنين أني جامدة القلب..قاسية..

أتمنى..

لكن لا..لست كذلك.

ألا سحقاً لهذا كله..وسحقاً لي أيضاً.

معذرة على هذا كله..قد لا أزعجك مرة أخرى..كل ما أوده أن أعلم هل قرأتِ هذه الكلمات أم لا؟

لن أزعجك مرة أخرى، لكني بحاجة إلى الالتفات نحوي..حتى ولو كانت نظرة عابسة..حتى ولو كانت نظرة مليئة باللاشيء..

لا تهتمي لهذه الكلمات..اقرئي أو لا ..لا يهم..لا يهم حقاً..ما أحسبك قد تضيفين جديداً..وأعتذر عن قول هذا..لكن حقاً ما أحسبك قد تضيفين جديداً..أو لعلي أواسي نفسي مقدماً على عدم ردك..

لا تهتمي لكل هذا..وأجيبي فقط عن أسئلتي..

هل يمكن لصاحب الطريق الوردي أن يعاود الخطو..أم يتأقلم مع وخزات الأشواك دون أنّات؟

أم ...ترى يجب عليه أن يصنع من هذا الأشواك درعاً يحصنه من غدرات الزهور؟

أتمنى أن تفهمي شيئاً من موضوع الإنشاء هذا..وأتمنى حقاً _بصدق هذه المرة _ أن تقرائي كلماتي بجدية..

وأشكرك على الوقت الذي أتمنى ألا تندمي على ضياعه وسط هذه الأسطر.

***

الفصل الثالث

لا يتذكر المرء اليوم الأول لحياته تحديداً..لكنه يتذكر صوراً من طفولته تظل ملتصقة بذهنه لا تفارقه وكان هذا اليوم ملتصقاً بذهني حتى الآن..استيقظت باكراً رغم كوني بإجازة..كنت بالمرحلة الابتدائية في طور الدراسة وقتها..أتذكر ذلك جيداً، استيقظت فجأة..استيقظت فلم أجد ذراعين حولي كما عهدت أن أجدهما طوال سنواتي الماضية، ومن يومها فقدت الاحتواء..أعلنوا في ذلك اليوم أن والدتي لن تعود مجدداً..وأنها ذهبت للسماء، لطالما آمنت أن أمي ملاك..لكن فكرة أنها ذهبت للسماء ولن تعود تركت بقلبي غصة مزقته إرباً..كنت عاتباً عليها أشد العتاب.. عرفت الحزن من يومها..ولم يتركني حتى نما في أحشائي وأصبح يلازمني كظلي حتى استعذبته ثم اعتدت الأمر كما يقول كاتبنا الروسي: "إن الإنسان يعتاد كل شيء"..نعم..نحن نعتاد، لكن هيهات أن ننسى..منذ ذلك اليوم تغير مسار حياتي تماماً، لم أحظ بقبلة صباحية، لم يعد بمقدوري أن أتظاهر بالإعياء لأحصل على جرعة مضاعفة من الحنان، لم أنم ملء أجفاني وأنا على يقين أن هناك من سيوقظني في موعدي دون تأخير..منذ ذلك اليوم شعرت بالبرودة تسري بجسدي ولم تفارقه حتى اليوم..حتى أني في أشد الأيام قيظاً كنت أسير وسط زملائي ويداي في جيوب سروالي..المقاعد كانت باردة..الجدران كذلك..أو ربما البرودة الحقيقية كان مكمنها أوصالي..

وكما يقولون: أن المصائب لا تأتي فرادى..فبينما كنت أسهر الليالي لا يرقأ لي جفن، أحتضن صورة أمي بصمت مهيب..احتضنها علّني أستمد منها بعض الدفء كي أحيا..لكن لا..حتماً لم أكن أريد الحياة..

وفي غمرة حزني هذا..فجأة هكذا وبلا مقدمات أراد أبي أن يتخذ زوجاً جديدة له..صعقتني الفكرة، أن أرى امرأة تحل محل أمي..عارضت أبي طويلاً، لكني كنت في نظره طفلاً لا يقيم لصراخه وزناً..كنت أشرد بالساعات أفكر في ملاكي الراحلة..كيف تحملت هي من أبي الكثير والكثير..كانت تبثني شكواها بهمس بينما تظنني نائماً، كانت شكواها تتغلغل داخلي وتستقر في

ذاتي في سبات مؤقت..قسوة أبي دمرتها نفسياً..كان أبي في نظري هو قاتل أمي الفعلي..لكنه..لكنه أبي على أية حال..أما الآن..فهو بكلّ برود أعصاب يريد أن يتخذ لأمي بديلاً..معارضتي له صنعت مني عدواً وخصماً له..

ربما لأني كنت أذكره بأمي خصوصاً وقد حملت ملامحها، كنت وحيداً، وحيداً تمام الوحدة..ليس لأحد أن يدرك معنى الوحدة التي أعنيه؛ الوحدة التي يفتقد فيها المرء شيئاً يراه أمامه صباح مساء..افتقدت أمي بالطبع؛ افتقدتها كما افتقدت روحي..لكن افتقادي لأبي كان أشد وطئاً..ربما لأني أدري أن غياب أمي كان فوق قدرتها..أما أبي فهو الحاضر الغائب..امتلأ قلبه بقسوة لم أشهد مثلها..كان يعنفني لأتفه الأشياء وأحياناً بلا سبب..ويمارس معي العنف بكل ألوانه..أذكر مرة أني تأخرت في تلبية ندائه فصفعني بعصبية..كانت ضربته قوية فقدت الوعي على إثرها..كأنما كان وجودي يثير فيه غضباً لا متناهي..أو ربما كنت شيئاً يذكره بأمي..شيئاً يوقظ ضميره الذي لا يريده إلا غارقاً في سبات أبدي..

رغم ذلك لم يكن يلتفت لحاجتي إليه، إن الله قد ابتلاني بآفة خلقية تمنعني من السير بشكل سليم، ألا لعنة الله على الاحتياج، وإن احتياجي كان معنوياً، لو كانت أمي وقتها لهان الأمر..فقد كانت تغطيني عن قسوة العالم بدثار من حنان فلما انقشع التهمتني الأشواك بلا تؤدة..صرت كأنما أواجه الحرب أعزلاً..نعم كانت حربا، حرب ضارية لا تكل ولا تهدأ ، كانت السهام تمتد نصالها لأعماق قلبي، كل البشر بدا لهم أنياب وقتها..أنياب أراها وحدي تمتد لتنهش من إحساسي بالأمان فلا تتركه إلا عظاما نخرة.

ربما يذهب الأمر بالبعض أنني أبالغ بعض الشيء..وأن حدثاً كهذا-أعني افتقاد الأم- يحدث مرات لا حصر لها.

لكن..افتقاد أمي كان أمراً لا يتكرر بحذافيره..أنا لم أفتقدها وحسب..إنما أنا افتقدت ذاتي كلياً..صرت أرى في نظرات أبي شيئاً يدفعني للهرب..كنت أهرب من قبل إلى حضن أمي ..فلمن أهرب اليوم؟

معلمي كان يخبرنا دوماً: أنّ الساكنين بالحياة الأخرى على اتصال دائم بنا..وأنهم يشعرون بنا تماماً كما كان الأمر بالدنيا..

تضرج وجهي فرحاً وقتها..ومن يومها رحت أناجي أمي كلّ مساء، انتظر أن ينام الجميع ثم أبدأ في طقوسي المسائية..أحضر صورتها، وأحتضنها ثم أبدأ ثرثرتي وشكواي..وأصف لها كم من الاشتياق عليّ أن أكابد..ثم أحضر أقلاماً، وأرسم لها أي شيء يصف حكايانا هذه..

كنت أنتظر اليوم الذي يسمح الله لي فيه بالانتقال لجوارها بشوق لا حد له ..أذكر أني كنت أسير بالشوارع بخطواتي البطيئة أستعطف أمي بحديثي الصامت..أستعطفها أن تأتي وتأخذني إليها..لَكم ناشدتها وقتها، لَكم كنت أحسد المارة، أتفرس في وجوههم وأتمتم: جميعهم لا يكسو الحزن ملامحهم..من المؤكد أن لديهم والدة..أو ربما هكذا يخيل للمرء حين يكون حزيناً..لا يدري وقتها لماذا يضج العالم حوله بفرح يستخف بحزنه الهائل هذا..كان الكون يتدثر حولي بقسوة لا حد لها..كنت أتساءل بسذاجة: لماذا قد يضن الكون بجرعة حنان؟ أليس من الممكن أن يقف أحدهم دقيقة واحدة ليحتضنني، ويكمل مسيره بعدها..هه..كم كنت ساذجاً، لكن، يا إلهي..كيف سيبدو مظهري وقتها..أحسب أني سأخضل بعبرات لا يوقف سيلها شيء..لا، لا..لا أريد حناناً من أحد..ثم أن الكون بأسره لا يضارع عندي نظرة حانية من ملاكي الراحلة..

هكذا انقلبت طفولتي من نعيم مترف إلى جحيم قاس..تدهور أدائي الدراسي كثيراً..وصرت أعود للمنزل بتثاقل..أتأنى كثيراً في خطواتي..كنت أرى المنزل جحيماً لا يطاق..أبي وزوجه الجديدة..نعم، أبي قد تزوج، وفجأة صار حانياً مع العروس الجديدة ..كنت أتساءل فيما بيني وبين ذاتي..هل يمكن أن تجتمع القسوة والحنان بنفس ذات القلب؟ وانتهي إلى أن النفس البشرية تحمل الضدين معاً..أما ما الذي يحرك أياً منهما فلست أدري؟

كنت أقارن نظرة أبي لي بنظراته إليها..معي كان قاسياً كالجليد.. تبث نظراته لي سياطاً من العذاب تئن روحي على إثرها.

حتى أنه لم يكن ودوداً هكذا مع أمي..كان دائم الخلاف معها لأتفه الأسباب..قتلها بجفائه.

كنت أقضي يومي منزوياً بأقصى ركن بغرفتي..أضم ساقاي إلى جسدي وأدفن رأسي بين يديّ.. كان هذا التقوقع هو صدى لرغبة بالفرار، ولو قد سألتني الفرار إلى أين؟ سألوذ بالصمت حتماً..إذ لا جواب يسعفني وقتها..أريد الهروب وحسب..لكني لا أريده هروباً خارجياً..بل هروباً إلى ذاتي..شعور برغبة بالتلاشي..ربما حنان أمي المضاعف قد خلق لي حيزاً أشبه بتلك الأسطورة: التي تحكي عن رجل قضى عمره بغرفته يأبى أن يغادرها، لأنه اقتنع إقتناعاً راسخاً أن هذه الغرفة هي بيضة تكوينه الدافئة، والتي سيمرض حتى الموت لو غامر بمغادرتها قبل أوان اكتماله..وأما عن اكتماله فهو دائم التأجيل..

كنت أهرب من سطوة الأفكار بالفن أحياناً..وربما جعلت مني العزلة قارئاً من طراز جيد..كنت أحفظ مسرحيات شكسبير عن ظهر قلب، ارتبطت وجدانياً ب "أوديب" رأيت أن ثمة قاسماً مشتركاً بيننا..ربما هو الفقدان للذات الحقيقية..إلا أني رغم هذا الولع بالأدب لم أفكر يوماً أن أدون يومياتي مثلاً كما يفعل البائسون خصوصاً، كنت حالِمًا من الدرجة الأولى..ما إن يحل الظلام حتى انتقل من فراشي إلى عالم الأحلام، كنت أرى أمي هناك، كانت ترتدي الأبيض كما يصورون ذلك في الروايات، وكنا نجلس سوياً لوقت طويل..لكن المؤسف أنها لم تكن تنطق ببنت شفة، بينما أحيانًا أخرى كنت أرى نفسي في فضاء شاسع مليء بأزهار الياسمين كنت أجمع بعضها لأشكل منها عقداً فريداً أحتفظ به لأزين به جبين أمي فقد وعدتني بلقاء آخر..

- أتبكين؟ ..آسف لذلك..لكني استرسلت..يا لغبائي..كيف لم أفطن إلى أن قلباً رقيقاً مثل قلبك هو الذي يستمع إلى حكايتي البائسة؟..

- لا..لتكمل، إنما هي عبرات خرجت عن سيطرتي..أما أنا فمتماسكة كما ترى..لا عليك..أنا أستمع.

- لكني أكون قاسياً هكذا، لطالما حاربت طوال حياتي كيلا أكون قاسياً..والآن أرى نفسي أبشع مما تتخيلين..أن أؤلم قلب إنسانة فقط لرغبتي في أن تستمع لحديثي الساذج.

قالت وقد جففت دمعها بأناملها:

- سيدي..أرجوك..ليس بحديث ساذج على الإطلاق..إنما أنا أشعر بكلّ حرف منه، كأنما يستقر بأعماق روحي..صدقاً لقد عاصرت كل ما تقصه عليّ فلا تتوقف أرجوك..ثم إنّ هناك ما لم تخبرني به بعد.. هناك فضول يكاد يفتك بي، وأنا التي لم تعهد نفسها فضولية قط.. .سيدي..إن كنت تنشد راحة قلبي حقاً فلتكمل..بل إني أتعلم منك الآن كيف للمرء أن يصيغ حياته في كلمات..إذ أني..لا أستطيع..

- صغيرتي..لا تحسبي أن هذا البوح يأتي عبثاً بطريقة مفاجئة..! يطلق المرء قيد لسانه فيسترسل..لا، أبداً..ليس هكذا على الإطلاق.

نظر إليها في هدوء وأردف قائلاً: البوح إنذار خطير لو تعلمين.

كانت نبرته تتجه صوب قلبها لا أذنيها وتستقر هناك في مجاهل الأعماق؛ التي لا يصل إليها إلا الصدق..والصدق وحده..

قال وهو يداعب مقبض عصاه الأسود: أعلم أنكِ ما زلت تتساءلين حول رغبتي في أن أقص عليك كل هذا..ربما لن تصدقيني لو قلت لك لا أدري لمَ أنت بالذات.."لا أدري" ستكون إجابتي لو كان السؤال لقوانين العقل وأسبابه.. أما إن خضع سؤالك لقوانين القلب وحده..فالقلب وحده قد ساقني إليكِ، وأحسب أن إنسانة مثلك ستقتنع بجوابي هذا..ما رأيك ؟

أزاحت خصلات شعرها للخلف برفق وكأنما تمنح نفسها بذلك فرصة استحضار إجابة مناسبة.

- رأيي مزدوج كشأن الحالمين أيضاً..العقل قد يقرر أن أرفض منطقك هذا..أن أبتعد وأشيع كل هذا الذي يحدث الآن بسخرية لاذعة..أما القلب فيجبرني على البقاء..يجبرني أن يتسع الصدر لكلّ طارق.

تذكرت فجأة سيف وعرضه الأخير فأردفت: ليس دائماً..ربما..

مرت دقائق صمت بطيئة قبل أن يقول:

- إلهام..يا له من اسم جميل..أتعلمين أن لهذا الاسم رنة لها صداها بقلبي..ربما لو جاد القدر لكان لي ابنة في مثل عمرك تقريباً..صحيح كم عمرك؟

- غدا سأتمّ عامي الثامن والعشرين.

- غداً ؟ من حسن الطالع إذاً أن أكون أول من يتمنى لك عيد ميلاد سعيد.

- أليس لك أبناء؟

باغته سؤالها فأطلق ضحكة مريرة وهو يقول: لا..ليس لي أي شيء..ثم أني أنهك إلى بغضي الشديد للأسئلة التي لم أتطرق أنا إليها..ستنصتي لما أخبرك به فقط..لنتعاهد على ذلك؟

أجابت باستسلام أثار دهشتها هي بالذات: كما تحب.

للحظة نسيت كل قواعد مهنتها..نسيت كيف تدير الحوار لتستقي هي من الأشخاص ما تود الوصول إليه..للحظة تنصلت من كلّ هذا عن رغبة منها..شعرت بنشوة إذ هي قد تمكنت أن تشعر بإنسانيتها بعيداً عن وطأة العمل..الآن هي تستمع كما يستمع الطفل إلى حكاية لذيذة لا يؤرقه غرضها ولا مآلها..

- أتحبين مهنتك؟

أجابت في تردد: نعم..وربما لا..أقصد قليلاً..الحقيقة أنها حلمي منذ الطفولة.

استعادت رباطة جأشها ثم أردفت:

- ليس لنا أن نترك كل ما لا نحبه ..إنها الحياة ..يجب أن نعتاد كما قلت..ثم إني لا أبغضها على أية حال..كانت حلماً..لكنى لم أكن أعني بتبعاتها بعد.

- هل ترهقكِ مشاكل الآخرين إذاً؟

- ليس بالضبط..أتدري؟..ربما أغبطهم جميعاً..وأتمنى أحياناً لو نتبادل الأدوار..أتمدد على كرسي مريح وقد أخليت مسئوليتي منهم جميعاً، وأبدأ جولتي في إفراغ مكنون صدري..ليتني أستطيع.

- لكن..ما المانع بهذا؟

- المانع ليس لأني لا أجد من أبوح له..إذاً لهان الأمر..لكني لا أجد الكلمات.

نظرت تستطلع وقع كلماتها فلم تفهم من ملامحه الغائرة ما يفيدها فأكملت: الكلمات لا تسعفني دوماً..ربما لأني أعتقد أن الشعور فوق الكلمات، وأن ثمانية وعشرين حرفاً ليس بوسعهم احتواء عمر كامل..لكني أعترف أن الخلل بي..أعترف ولا أنكر..لكني أحاول ولا زلت، دعك مني الآن وأتمم ما بدأت.

أنهت جملتها ونظرت لساعة معصمها واستطاعت أن تشاهد على ضوء القمر عقارب الساعة تشير إلى أنها قد أمضت ساعة كاملة مع هذا الغريب، فسألها في قلق: ماذا؟ هل سترحلين!

هالها قلقه فابتسمت في عطف: لن أبارح مكاني حتى تصرفني أنت.

خطرت ببالها وفاء..ربما هي قلقة الآن..وبرغم هذا..لا يجب أن تتركه، ومضت برأسها فكرة أسعفتها: أيمكنني استخدام هاتفك؟

بادر بنظرة مستفسرة فأوضحت: لي صديقة ربما بلغ بها القلق مبلغه..و بطارية هاتفي فارغة..مجرد رسالة من هاتفك تطمئنها..فقط سأخبرها أنني بخير.

صمت قليلاً ثم أخرج من جيب معطفه هاتفاً وناولها إياه .

كتبت بسرعة: "وفاء..أنا بخير..فقط قد أتأخر قليلاً" ثم ذيلت الرسالة باسمها وأرسلتها لرقم هاتف صديقتها الذي أسعفتها ذاكرتها به.

- نعم ..هكذا.

ومن ثم أغلقت الهاتف بلا تردد وهي تقول: سأغلقه أفضل إذا سمحت!

أومأ بالإيجاب غير مكترث.. فقالت:

لكنني أشعر بالعطش بعض الشيء..أتعرف مكاناً قريباً يمكنني الاستعانة به ؟

لم يلبث أن مد لها ذراعه بزجاجة من المياه وقال بابتسامة ذات مغزى: معي المزيد للكِ وللراديا تير.

ابتسمت فابتسم مجدداً..وقبضت قلبها غصة إثر ابتسامته..هذه الابتسامة العطوفة منه ألقت بسهم أصاب فؤادها بلا حائل..لن تنسى..لن تنسى أبداً.

اقتربت منه برفق..تناولت الزجاجة وتجرعت بضعة رشفات ثم قالت: ما رأيك أن نكمل حديثنا سيراً على الطوار؟

صمت طويلاً فأعادت اقتراحها: فقط لا أحب الجلوس طويلاً..هذا إن كنت لا تمانع طبعاً؟

أجاب دون أن يرفع عينيه إليها: أما أنا فأحب الجلوس أو بمعنى آخر اعتدت..لكن لأجلك ..لا بأس.

نهض متوكئ على عصاه العتيقة ..لاحظت أنه يعرج عرجاً خفيفاً لكن ملحوظاً..فتذكرت حديثه عن آفة صغره... بدا معطفه أقصر مما كانت تعتقد..لا يزال وشاحه مكانه فوق رأسه ويمتد حتى أسفل كتفيه..سارت إلى جانبه وقد باغتتها الغصة ذاتها..

كانت ليلة دافئة من ليالي "كانون الأول /ديسمبر" اكتمل فيها القمر..تكاثُف السحاب كان ينذر بيوم ممطر.

- ما بك تراقبينه بكل هذا الاهتمام؟

توقفت إثر سؤاله وأجابت دون انتباه كامل :

- من ؟

- القمر.

- آه..نعم..إنه صديقي منذ الصغر، صدقني لم تزدد الأمور سوءاً إلا حين أدركت أنه لا يسير معي حقاً.

ابتسم قائلاً: أنتِ كما تخيلتك تماماً، حسبي أن أعلم أنه صديقك حتى أيقن أنك تستحقين أن تحملي عني ذاكرتي.

- أحمل ذاكرتك ؟ وماذا عنك ؟

- أنا قد حملتها بما يكفي، يود المرء أحيانا أن يرضي غرور ذاته في تخليد ذكراه.

- لكن..كيف ستحسبها قد خلدت فعلاً؟ أعني..بأية طريقة ؟

-ربما ليس خلوداً بالمعنى الكامل..لكنها نسخة مضاعفة إن صح التعبير.

- والآن ..أتكمل لي نسختك قبل أن يسرقنا الوقت.

- نعم ..نعم..لكن أخبريني أولاً..رأيتك أجفلتِ حين شاهدتي طريقة سيري.

اعتلاها الخجل فتضرج وجهها بالحمرة وقالت بخفوت :

- أنا ؟ أبداً..لم يحدث.

تجاهل كلماتها وقال:

-وحدك قررت أن أبدو أمامك كما أنا، أبدو بكلّ ضعفي وهشاشتي.. وجُلّ طلبي منك أن تقبلي هذا الظهور الفاضح برحابة صدر..

ما حلّ بساقي كان نتاجاً للظروف التي أخبرتك عنها منذ قليل.. غفوت يوماً والدموع تغطي وجهي، واستيقظت إثر ألم بساقي..ألم لا يطاق..لسنوات استمر العلاج دون جدوى، أتدرين؟ حالتي هذه أشعلت قسوة والدي أكثر على غرار المتوقع..مرضي أيقظ فيه رغبة بألا أوجد.

- لكن..أيمكن أن يكون الأب بهذه القسوة ؟

- ليست كل الآباء كوالدك بالطبع.

وقعت جملته على روحها كسوط لا يرحم..يا الله كم هو مؤلم أن تخفي جرحك حين ينزف بغزارة!

- لا زلتي صغيرة..لم تصلي للحكمة الكاملة بعد.

يا له من سخط رهيب تملكها وكابدت حتى تتخطاه.

- وهل تراك وصلت أنت للحكمة الكاملة؟

- لا يا صغيرتي..ليس لبشر أن يصل..لكننا نسير على أية حال، أتدرين؟ لقد كدت أن أؤمن أن الإنسان إنما خلق ليحارب..ويحارب في طريق الموت كنهاية حتمية ساخرة من تشبثه بالميدان، قد تعجبين إذ أتطرق لذكر الموت دونما مناسبة، لكنه الحقيقة المؤكدة الوحيدة في غدنا، أرى أن الملل بدأ يتسرب إلى ملامحك..هذا ما كنت أخشاه..إني لأؤثر الصمت على أن أكون حِمْلاً.

- سيدي..أنا لم أملّ بل أنا على استعداد لسماع كل حرف تتفوه به..لكن وددت لو تقص حكايتك بلا تفرعات..أستمحيك عذراً..فالوقت يمضي وأظن أنني لن أقضي يوماً وليلة هنا.

كان في لهجتها من الجد ما جعله يتحدث بلا مقدمات أخرى:

- حسناً، سأتحدث بإيجاز رغم أن هذا ليس عدلاً..لقد كابدت طويلاً حتى أصل إلى شخص أسلمه مكنون صدري..ورغم ذلك سأذعن لرغبتك..أنا أتبعك منذ أسبوعين تقريباً..كنت قد قررت أمراً ما..وقبل هذا الأمر يجب أن أترك كل ما علق بذهني لشخص ما..ووقع الاختيار عليك كما أسلفت الذكر، وشاءت الصدفة أن يعاونني القدر في أن ألقاك هنا..ربما قمت بعمل صبياني بعض الشيء..

في سنواتي الأخيرة كنت مشتتاً..ضائعاً..ضائعاً ووحيداً تماماً..لا أسرة لي ولا أصدقاء... تنقلت بين مهن بسيطة تكفل لي قوت يومي، وتناسب حالتي..مرت السنوات إلى أن لاح لي أمل بسيط في أن أرسم لنفسي حلماً ما..وأن أستعيض بما تبقى من ذاتي عن كل ذلك الماضي اللعين..كان حلماً..وأضحيت بين يوم وليلة أسيراً لذلك الحلم.

أصدقك القول إن قلت: أني سخرت له نفسي تسخيراً تاماً..لم أكن وحدي وقتها..كان لي صديق وحيد مثلي..لكنه لم يكن يدري عن ماهية حياتي أي شيء..

كان معي دوماً وفي ظهري يشدد من أزري..وكالعادة. ..من نتركهم خلف ظهورنا يتمكنون من طعننا بجدارة..

ما أبشع ذلك..تخيلي لو كنت قد بحت له كما بحت لك الآن..ما يكون شعوري وقتها وقد خانني بعد أن كشفت نفسي أمامه عاري الماضي تماماً.

- لكن عذراً يا سيدي..أنا لا أكاد أفهم كيف خانك؟ وأي حلم هذا الذي أزمعت أن تسير بدربه بعد كل هذه السنوات؟.

- أعلم أني أدور بالكلمات في فلك بلا حدود..ربما هذه هي عادة الصامتين ..يدورون حول النقطة من تلقاء نفسها إلى مدارهم المزعوم..لكنه على أية حال هو حلم، لا أريد ذكره لأنه لم يكتمل، لكن أعدك ستدركين كل شيء بوقته، أعدك بذلك وستعديني أنت أيضاً بلقاء آخر.

الفصل الرابع

From:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

To:Salmasalah111@gmail.com

Data:29November

Subject:عليكم السلام

عزيزتي سلمى،

أعتذر منكِ أولاً على تأخر الرد..لكن للتو قد فتحت بريدي ..أود لو تتقبلي اعتذاري قبل أي شيء.

قرأت كلماتك بتأني..لي سؤال بدائي..مَنْ منّا ليس مريضاً _ولو بعض الشيء_..؟

لست بصدد تشخيص طبي..ولا هذا هو إقرار مني بوضعك في خانة المرضى..لا هذا ولا ذاك..إنما أردت توضيح نقطة صغيرة..وهي أن المرض ليس شيئاً يُسْتتر منه..

أتعلمين..كثيراً ما آمنت أن موقف المريض أكثر تقبلاً في النفس من موقف الطبيب..إننا كما وصفتِ تماماً..مثلكم..فللكِ أن تتخيلي أن تكوني_ فوق هذا كله_..فوق كوننا مثلكم بنفس الألم البشري ..أننا يجب أن نتجرد من إنسانيتنا بشكل من الأشكال.. وننظر للأمر من زاوية محايدة ..زاوية علمية قليلاً..

لا تخافي..لن أتفوه بهرطقات التنمية البشرية _على حد تعبيرك..ولن أسدي لكِ شيئاً من أمل إلا عن اقتناع عقلي تام من الطرفين _أعني أنا وأنت _

تحدثتِ عن أمر المنظار الوردي..وعن تناثر الأشواك، ولربما تظنين أنك وحدك من خطوت بهذا الطريق..لعلك لا تعلمين مدى تقارب الخطوات..أو لعل الأفضل ألا أسترسل في مخاطبة القلب..

تحدثتِ أخيراً عن إمكانية البعث..ولكي أخاطب عقلك..سأمنحك إجابة من بين سطورك أنتِ..

لماذا _في رأيك_ تتوجهين للسؤال عن إمكانية البعث..عن إمكانية غرس الزهور مجدداً؟

الإجابة واضحة وجلية رغم نبرة الأسى بين أحرفك..إلا أن سؤالك هو الشعلة التي لم ولن تنطفئ بداخلك..

سؤالك هو الدليل القاطع على بحثك عن مخرج..على أنه ثمة إرادة ما..ومتى ما وجدت الإرادة وجدت إمكانية التنفيذ..تراني خاطبت عقلك الآن؟، وما العقل إلا جزء من القلب..ثمة أشياء فوق الشعور..تلك التي تلامس الأنا العليا..أنا لن أمنحك جرعات أمل..وحدك ستفعلين..

لكن إن كنتِ قد طلبتِ مخاطبة العقل..فإني أكرر طلبك الآن.. أريدك أن تخاطبي عقلي كما خاطبت عقلك..اقنعيني بما تؤمنين بوجوده.. اقنعيني بعدم إمكانيه تهذيب البستان من جديد..

تحدثي كما تريدين..لن أراكِ جامدة القلب..ولن أراكِ قاسية..

..إن كنتِ قريبة من المعادي فأنا أتواجد بأول ثلاثة أيام من الأسبوع بالمشفى العام بالمعادي قصر المعادي « 4 شارع حسين صدقي كورنيش المعادي وباقي الأيام أتواجد بالعيادة الخاصة فسأكون سعيدة بزيارتك _لو أحببتِ_ وسنتحدث كأصدقاء فقط..«11طريق النصر، تقاطع الأوتوستراد مع يوسف عباس..مدينة نصر»..

هذا هو عنوان العيادة، وفيما عدا هذا راسليني كما تحبين..

خالص تحياتي

إلهام

الفصل الخامس

- أما كفاك تأنيبا بعد!

قالتها إلهام لتنهي نقاشاً حاداً استمر لساعات، زفرت وفاء بعصبية وقالت:

- لولا أن عيد ميلادك بقى له ساعات فقط، ولا يجب أن أفسد متعة الاحتفال..لولا هذا فقط لم أكن أعفيك من تأنيب لسنوات وليس لساعات..تتصرفين هذه الأيام كطفلة تتسكع ليلا وتنصت للغرباء بسذاجة.

قابلت إلهام هذا الحديث بصمت فقد تعبت من محاولتها لإيضاح الأمر..سرحت بخيالها في لقاء الليلة الماضية..كانت قد وعدته بلقاء آخر حين فارقته، نظرته الأخيرة لها كان فيها من الرجاء والتشبث ببصيص أمل يجعلها تميل أن تفي بوعدها، لكن الليلة حفل عيد ميلادها..ووفاء !.. لا..لا يمكنها الذهاب بالطبع.

ربما ما فعلته بالأمس كان حقاً مجرد سذاجة طفولية تعرفها في نفسها..عندما تتعرض لمثل هذه المواقف التي تناشد إنسانيتها تضرب بكل عقلانيتها عرض الحائط.

ولكنه شيء مثير للاندهاش حقاً..رجل يقوم بكلّ هذا كي يتتبعها ويتحدث إليها..إن الجميع لا يسلمون من نزعة الغرور ولو بنسبة ضئيلة.. الغرور الذي يلامسنا حين يختارنا أحدهم من وسط الكثيرين.. كانت هي اختياره لمضاعفة ذاكرته على حد تعبيره..لا يهمها إن بدا هذا جنوناً أم لا ..ثم ماذا في ذلك ؟ ..إنها تؤمن أن الجميع بهم بعض من نزوات العقل..البشر دائماً ما ينحرفون عن الصراط ولو قليلاً.

انتبهت من أفكارها على صوت وفاء تنهرها بلطف:

- فيمَ الشرود الآن ؟ أم تراك قد أغرمت بذلك المجنون.

أجابت إلهام ضاحكة :

- ربما..من يدري !

تحولت نبرة وفاء إلى الجد وهي تقول :

- إلهام..ثمة أمر يجب أن نتحدث به..أمر لا يجب أن نؤجله مجددًا.

بدا على إلهام أنها فهمت ما ترمي إليه صديقتها، فأدارت ظهرها لها متجهه إلى النافذة وهي تقول :

- ظننتك تعلمين رأيي جيداً..!

سارت وفاء بضع خطوات وألقت بيدها على كتف صديقتها في مودة بدت على ملامحها :

- أعلم ذلك جيدًا يا صديقتي العزيزة... لكن أعلم أيضاً مقدار الخطأ الذي تجرين نفسك إليه جراً..ما به سيف ؟ .. شاب ناجح وجاد..وأظن أن له مستقبلاً مشرقاً..وفوق كل هذا هو متمسك بك.

استدارت إلهام لتواجه صديقتها وهي تقول :

- قلت لك مسبقاً لا شأن لرفضي بشخصية سيف أو غيره..افهمي..أنا لا أصلح لبناء أسرة ..هذا كل ما في الأمر..لا أملك أن أقدم حباً خالصاً..ليس له ولا لأطفالي _مستقبلاً_ حتى..ثمة شيء ناقص بي..هذا الفراغ الداخلي لا يصلح لبناء ذات فما بالك بأسرة ؟ الزواج ليس مجرد طريق نسلكه لأنه علينا أن نسلكه..أو لأن القطار أوشك أن ينطلق ويفوتنا..عن نفسي ..أفضّل البقاء على محطة الانتظار أبد الدهر خير لي من أن أستقل وجهة لا أصلح لها.

رمقتها وفاء بنفاذ صبر وقالت :

- ولمَ قد لا تصلحين؟

خطت إلهام نحو المقعد وارتمت مغطية وجهها بين كفيها، جلست وفاء إلى جوارها قائلة :

- تعلمين كم أحبك..وكم يعز عليّ أن أتفوه بما يمس قلبك بسوء..أما الآن يا عزيزتي، أما وقد وجب ألا أصمت كي أنهك إلى الطريق الذي يجب أن تبدئي خطواتك به فلا بد أن أقول: الجميع يا صديقتي لا تخلو حياتهم من العقبات، لكن علينا أن نتخطاها، لا أن نقف عاجزين نضخمها بخيالنا، وإن أردتِ مثالاً ما فلن يدركنا العوز، وأنا بجوارك، طفولتي لم تكن مستقرة إطلاقاً وهائنذا لا يفصلني عن زواجي بعد خطبة دامت أكثر من عام إلا أن اطمئن إلى مستقبلك.

رفعت إلهام رأسها وواجهت صديقتها بعينيها المخضلة بالدموع :

- إن كان ما يزعجك هو تأجيل زواجك فبإمكانك ألا تعيري مستقبلي اهتماماً.

زمت وفاء شفتيها وقد أدركت أن صديقتها أساءت فهمها :

- تعلمين أنني لا أعني ما ترمين إليه، فقط أنا أرشدك لما تغفلين عنه، لا يمكن للمرء أن يبقى أسير الماضي بالطبع..مشاكل عائلية! وماذا في ذلك ؟ أحسب أن نصف سكان العالم أو أكثر يعانون من مشاكل من هذا النوع..لكن ماذا تراهم يفعلون؟ إنهم ينطلقون في طريقهم لأنهم يدركون جيداً أن جلوسهم لندب الحظ لا يفيد كثيرًا.

- وفاء!

قاطعتها إلهام بعصبية، صمتت قليلاً ثم أردفت:

- أنا لا أجلس لأندب حظي كما تزعمين، أنا أسير بطريق حلمي الخاص كما رسمته..مهنتي وحياتي الشخصية لا يمسهما سوء الماضي كثيراً، أما بالنسبة للزواج..فربما وقته لم يحن بعد..وأحسبك سترددين أني قاربت على منتصف العمر.. فليكن..والآن، أظن أن علينا أن نتم ما نعده للمساء..أما أنا فسأذهب لأبتاع ما تبقى من مستلزمات.

أتبعت إلهام حديثها بابتسامة مصطنعة كنهاية للنقاش فنهضت وفاء على مضض..

***

لم يكن مقصدها لشراء متطلبات الحفل بعيدا..ازدادت السحب كثافة وبدت الطرق شبه خالية..

عبرت إلهام الطريق ببطء..لا تدري لماذا شعرت أن كل مارٍ لا يحدق إلا إليها..تشعر أن تلك النظرات تخترقها وتقرأ مكنون عقلها الباطن، تشعر أن الجميع يقرؤونها بوضوح..تراهم يعرفون سرّها؟ لا تهرب من هذا الشعور إلا حين تتحول بإنظارها إلى الأرض..

فاجأتها يده الصغيرة تشد ثوبها..طفل بعمر الورد، للحظة اختفت ابتسامته وتضرج خداه بحمرة الحياء..أدركت هي التباس الأمر عليه..في غمرة اندماجه بالهرولة وراء بالونه الهارب..سبقته أمه بخطوات واختلط عليه الأمر فشد ثوبها هي ظنًا منه أنها أمه..

نسمات الطفولة أيقظت فيها روحاً حلوة..للحظة شعرت بأنها خفيفة جداً..لم تشعر بنفسها وهي تلحق بالبالون وتحضره له.

تبادلت البسمات مع أمه التي راقبت الأمر بوجه طلق..

وقف الصغير بين الاثنتين ..نظر لأمه كأنما يستأذنها أن يستعيد بالونه..فأومأت له بابتسامة.

اقترب من إلهام ببطء..خطف بالونه وجرى بضع خطوات ناحية أمه ثم التفت وعاد من جديد..انحنت هي بدورها وجثت على ركبتيها..طوق رقبتها بذراعيه الصغيرتين وطبع قبلة على خدها ثم جرى عائداً

وقفت إلهام تراقبهما حتى اختفيا عن أنظارها..الأمر لم يكن عادياً قط..حتماً قبلة الصغير بها سر ما..سر أعاد الحياة إلى قلبها _ولو للحظات_ سر يستحق أن ينحني الكون كله إجلالا له..بإمكانها أن تحب.. أليس هذا رائعاً..

منحها هذا الشعور نشوة غريبة، سارت دون هدف واضح..أو لنقل أنها سارت بخيالها ولم تأبه لساقيها.

لطالما اعتقدت أنها لا تصلح كأم..لكن لقبلة الصغير رأي آخر..ظلت منتشية لبعض الوقت، لكن ما لبثت أن شعرت أن ما حدث كان حلماً عابراً..أفاقت منه على وطأة الأفكار المعتادة؛ أمر سيف قد حيرها تماماً..هل ستظلمه معها إن وافقت؟ أم ستظلم نفسها إن هي رفضت هذه المرة؟ والتي تظن أنها محاولته الأخيرة..كاذب من يدعي أن الحب لا شأن لأمور الكرامة معه..لكن حقاً من هي لتحكم في أمور الحب وهي التي ما خبرته يوماً. نشأت على اعتقاد خاطئ تخفّى في ثوب الحقيقة..لكن الطبيعة لا تكذب..شعورها نحو ذاك المتسلط لم يكن شعور ابنة نحو أبيها.

الجميع يقولون: أن الابنة _على وجه الخصوص_ تتعلق بوالدها تعلقاً جارفاً..لكن هي لم تشعر للحظة أنه يحبها حتى حين كان يدنيها منه ليداعب خصلات شعرها برفق، كانت تدرك في قرارة نفسها أنه إنما يبتغي بذلك رضا والدتها... أما حين كان ينفرد بها فلا يتوقف وقتها عن إصدار الأوامر القاسية المرهقة..

كان سيل الأفكار جارفاً لا يوقفه شيء سوى وصولها إلى مقصدها، ولا تدري كيف حدث هذا رغم شرودها؟.

الفصل السادس

رن الهاتف طويلاً قبل أن يتناهى لمسمع وفاء صوت خطيبها من الطرف الآخر مُرحِبًا :

- أهلاً وفاء، هل أنت بخير ؟

-أنا بخير، ماذا عنك ؟

- أحسبني بخير إن كنت أنت كذلك.

صمتت وفاء عدة ثوان قبل أن تقول :

- أعلم أني تأخرت بإخبارك ، لكن الليلة نحتفل بعيد ميلاد إلهام، يجب أن تكون موجوداً بعد ساعة على الأقل لتصحبنا إلى مكان الحفل .

أتاها صوته عبر الهاتف يقول مازحاً في نبرة تحمل بعض التذمر:

- حفل صديقتك !..لمَ لم تخبريني من الأمس.. على أية حال لا بأس..إذ لا مفر من الحضور وإلا ستمزقينني إرباً.

اتبع جملته بضحكة شاركته وفاء إياها ثم قال :

- أما اقتنعت بذاك الأمر بعد؟

كانت وفاء تعلم أن حسام بدأ يستاء في الآونة الأخيرة من تأجيل زفافهما حتى ارتباط صديقتها.

صمتت وفاء قليلاً قبل أن ترد قائلة:

- ربما علينا أن نتحدث بهذا الأمر عندما تعود.

- حسناً..لن أتأخر إذاً.

أنهت وفاء اتصالها واستطلعت الوقت..عليهم أن يغادروا في غضون نصف الساعة.

انطلقت تحث إلهام على الانتهاء من تبديل ثيابها..

- أوه..يا للروعة..فتاة الحفل بالطبع.

كانت إلهام ترتدي ثوباً ورديا جعلها أشبه بأميرة من أميرات ديزني الجميلات..لكنها لم تسرف في التزين كعادتها فاتسم جمالها بالهدوء الذي يناسب شخصيتها.

ابتسمت إلهام قائلة:

-صديقتنا سارة هاتفتني منذ دقيقتين. قالت: إنها بالأسفل تنتظرنا..اذهبي إليها حتى لا نتركها وحيدة وسآتي خلفك.

- لماذا لا نهبط معا يا عزيزتي؟

تلعثمت إلهام وهي تقول:

- ربما علىّ أن أتحقق من زينتي قليلاً..لن أتأخر.

ابتسمت وفاء وتركت صديقتها وهي تصيح مازحة :

- لو تأخرت سنذهب دونك.

وقفت إلهام أمام المرآة تتأمل وجهها..أترى ورثت عنه ملامحه؟ أهكذا كانت تبدو عيناه؟

ربما كان سيهاتفها اليوم..

بالطبع هم لا يتذكرونها مثله _لو كان هنا _

رفعت اللوحة المرتكزة على الطاولة وضمتها إلى صدرها ..

أرتميس(*) ..هكذا نقشت تلك الحروف بخفوت غير ملفت على طرف اللوحة ..هل يغدو ارتباط الجسد بالروح قيدًا؟..ولماذا أرتميس تحديدًا؟ كانت الروح تمتد نحو الانعتاق حاملة قوسًا هلالي الشكل لكن بلا سهام..بينما طغت إمارات الجمود على الجسد.

*آلهة يونانية ترمز للصيد وسميت بآلهة القمر واشتهرت بالعفة والطهر وكره الخطيئة.

فيمَ كان يفكر؟

ترقرق الدمع بعينيها.

لا، لا..يجب أن تكون أفكارها إيجابية اليوم..ربما لأجل هؤلاء الأصدقاء..لا يجب أن تفسد فرحة وفاء حتى..وسارة كذلك..خطر ببالها يوم التقت سارة بالجامعة..لم تتوطد علاقتها مثلها مع وفاء..لكن حبل الود لا زال موصولاً..

أخرجها من بوتقة الأفكار صوت رنة هاتفها، وإذ بإسم وفاء يظهر على الشاشة منذراً بوعيد موشك فانطلقت تتفاداه.

هبطت إلهام الدرج وقد تناهى لمسمعها صوت "الحاج إسماعيل" الغاضب قادمًا من صوب باب مؤجرة المسكن أو "مدام سناء " كما يدعونها وهو يقول بصوت أجش :

_ ليكن.. لكنها الأخيرة لو تعلمين.

هبطت باقي الأدراج في لامبالاة..كان الحاج إسماعيل من مالكي العقارات..لكنها لم تكن تدرك على وجه التحديد ما الذي يعنيه بقوله..لكنها اعتادت، أو اعتاد جميع المؤجرين _ وإن كان عددهم لا يتجاوز الستة تقريبًا _على شجارات الحاج إسماعيل مع مدام سناء لسبب أو لآخر..

في هذا المكان المتواضع الذي تثق تمام الثقة أن قاصده هو أحد اثنين لا ثالث لهما؛ إما عابر مؤقت لا يأبه لمساوئه _ المؤقتة بدورها_ أو إنسان تملّكه بعض العوز. أفاقت من أفكارها وقد وجهت بصرها صوب "عم سعيد" الذي يقطن بنفس المكان وهو يهرول وراءها مناديًا..لكنه ربما أدرك من هيئة ملابسها أن الوقت غير مناسب للحديث فقال في امتعاض:

_ معذرة يا دكتورة.. ظننت لديكِ بعض الوقت !

أجابت إلهام في صرامة غير معهودة :

_الحقيقة أنّه كما ترى ليس لدي بعض الوقت.

مرر يده على لحيته الكثيفة وهو يتراجع للخلف ببطء :

_كما تحبين..إن لم يكن الآن ففيما بعد..المهم أن تتذكري جيدًا ما طلبته منكِ .

قالها وصعد الدرج تاركًا إياها في موجة من الحنق بددها ارتفاع صوت الهاتف مرة أخرى بحقيبتها.

***

تناوب الجميع على المغادرة بعد إطفاء الشموع، ولم يتبق سوى حسام وسيف بالإضافة لوفاء وإلهام بالطبع.

كانت إلهام ترمق وفاء طوال الوقت بنظرات متوعدة..إذ كانت تدرك تمام الإدراك أن وفاء وحدها وراء حضور سيف.

استأذن حسام لينفرد بوفاء بضع دقائق قبل أن يغادر، وبقيت إلهام تواجه سيف بمقعدها دون أن تنبس بحرف فبادر هو بقوله :

- من حسن الحظ أن الطقس معتدل الليلة.

رمقته إلهام دونما إجابة فازداد ارتباكه وحدث نفسه قائلاً: - هل قلت ما يسوء، ربما هذه لا يجب أن تكون جملة استهلالية..هل بدوت أحمقاً بعض الشيء..؟

خرج من أفكاره على صوتها :

- ورغم ذلك وددت لو تمطر.

سرح بأفكاره مجدداً ..ترى ماذا عليه أن يقول..لم يعهد نفسه بهذا الارتباك ..لكن يجب عليه أن يدرك كل حرف يخرج منه فربما هي فرصته الأخيرة هذه المرة.

- أتحبين المطر؟

أجابته بظل ابتسامة شاحبة :

- لماذا أود لو تمطر إذا كنت لا أحب المطر.

رأى أن يخرج من إحراجه بدعابة فقال :

- ربما تشعرين بالحر مثلاً، أو تودين إفساد الحفل.

لم تجد هي ما ترد به على مزحته السمجة فبقيت تراقب وفاء وحسام ، فنظر إلى موضع نظرها قائلاً :

- أحسبهما يتشاجران وبمحاولة لعدم جذب الأنظار..إن فترات الخطبة حين تطول تجلب المساوئ..هكذا يقولون، ما رأيك أنت؟

رفعت إلهام كتفيها لأعلى لإبداء الإجابة فاستمر في مناورته :

- ومع ذلك..لا أستمع لكلّ هؤلاء المحبطين..بإمكان المرء أن يصنع زواجاً ناجحاً لو أراد.

أجابت إلهام ببطء:

- نعم..فقط لو أراد، لكن الإرادة ليست مجرد كلمة.

- ما هي إذاً ؟

شعرت أنه يهدف لإثارة نقاش ما فقالت تنهي ما بدأت :

- لكلّ شخص وجهة نظره الخاصة على أية حال.

اتخذت وفاء مقعداً بجوار صديقتها وقد بدا على ملامحها أنها أنهت نقاشاً حاداً للتو.. صمتت دقيقة ثم قالت :

- حسام لديه أمور ما عليه إنهاؤها الليلة. شعر سيف أن عليه أن يغادر فبادر بالوقوف.

هتفت به وفاء: سيف!..انتظر..ما قلت هذا لتذهب..الطقس رائع هنا لا بأس من قضاء بعض الوقت معاً، جلس سيف وكأنما كان ينتظر أمراً من وفاء بذلك بينما لاذت إلهام بالصمت قبل أن يقول :

_ما آخر أخبار حسام بشأن قضية "ناجي الشيمي"؟

فأجابت وفاء بانفعال وكأنما كانت تنتظر السؤال :

_قلت له كثيرًا ألا يورط نفسه بهذه القضية اللعينة..ثم أنا شخصيًا لا أثق في براءة المدعو ناجي هذا.

قال سيف يهدئ من انفعالها:

_ لا عليكِ ..ربما حسام أدرى بعمله ولعله يمتلك الأدلة حقا..

قاطعته إلهام قائلة :

_ لماذا كان الحكم غيابياً إذًا .. إن لم يكن المتهم مذنب حقاً بصفقات المخدرات وشبكاته الخاصة..لماذا يؤثر الهرب؟

كانت وفاء تلاحظ موقف إلهام الأخير من حسام بسبب هذه القضيةالحالة ولعل هذا سبب حنقها عليه هي الأخرى'

أكملت إلهام في شرود :

_ ومع ذلك ..قد يهرب الأبرياء ..لا أدرى لماذا

عدل سيف من جلسته وهو يحاول تغيير الموضوع بعد ملاحظته لتوتر نظرات وفاء :

_ الحقيقة ستظهر على أية حال.. ولعل حسام لن يدخر جهدًا في ترك القضية لو ثبت له _ في نفسه حتى'_ إدانة المتهم .. لا اظنه سيستمر بالترافع لصالح مجرم..

- وأظن أيضا أن لدينا عودة إلى العمل صباحا.

قالتها إلهام ببرود أعصاب ونظرة في الهواء غير مفهومة التعابير

فما كان من وفاء إلا أن رمت صديقتها بنظرة نارية ثم تصنعت الابتسام موجهة حديثها لسيف :

- ما رأيك بالحفل الليلة، الطقس رائع أليس كذلك ؟

ثبت سيف نظراته على إلهام وهى يقول متجاهلا لامبالاتها :

- نسيت أن أقدم لكِ هديتي..أود لو تقبلينها.

مد يده إلى جيب سترته وأخرج علبة صغيرة بحجم قبضة اليد، بسطها إليها مكرراً :

- أود لو تقبلينها.

وقفت إلهام ببطء، همت أن تمد يدها ثم ترددت..شعرت أن ثمة فخاً يجذبها لموافقة صامتة..صدق حدسها حين قام بفتح العلبة وقرّبها نحوها أكثر..كانت تحتوى خاتماً لازورديًّا أنيقا، دارت الدنيا حولها، شعرت أن الجميع يدفعون بها إلى هوة سحيقة، جميعهم يدفعونها بأيدي ناعمة..

نظرت إليه نظرة حاسمة :

- لا

لم يدر ما يقول، تفصد جبينه عرقاً رغم البرودة، ونظر إلى وفاء التي أشاحت بوجهها إلى الأرض.

"لا" هذه خرجت ليس اعتراضاً على هدية ما، كانت اعتراضاً على كل ما حولها، شعرت بلذة غريبة في رفضها، بإمكانها أن تقول لا ، ولم يخضع قلبها لسلطان الرضوخ المزين.

أعاد العلبة إلى جيب سترته وتركهم في صمت..كانت خطواته غير متزنة وسرعان ما تناهى إلى سمعهما صوت عجلات السيارة الخاصة به.

***

التفتت إلهام ناحية مخدع صديقتها المقابل لها ..صوت تنفسها المنتظم يؤكد أنها نائمة، تسللت إلهام من الفراش بهدوء، وقفت لحظة تتأمل صديقتها، لم تتبادلا أطراف الحديث منذ عودتهما من الحفل، لم يخفَ

عليها غضب صديقتها من تصرفها الأخير تجاه سيف، لكنها حمدت الله أنها لم تثر أي نقاش، منذ أن استقبلتهما "نجاة" خادمة مدام سناء أو معينتها _إن صح التعبير_ تلك الفتاة غريبة الأطوار، راحت وقتها تتنقل ببصرها بين الاثنتين في ارتباك ثم انصرفت صامتة..خطر لإلهام أن سعيد هو وراء هذا الارتباك.. لابد أنه ..

هرعت إلى خزانة ملابسها على أطراف أقدامها..وعلى ضوء الهاتف أخرجت من بينها رزمة من الملفات في حركة سريعة..تنفست الصعداء، هذا المكان يبدو في نظرها غير آمن لكنه أفضل من العيادة بحيث تظل تلك الملفات تحت نظرها أغلب الوقت.

لا تدري سبب حرصه على طلبه اللعين..؟!

أعادت الملفات لمكانها..وتحسست يدها شيء ما..شدته إليها وتقدمت ناحية الشرفة

كان الهواء منعشاً والظلام يلف الكون؛ اللّهم إلا من بعض نجيمات صغيرة وقمر منتقص..

رفعت اللوحة لتواجه عينيها، كان أبوها فناناً..نعم، هو هكذا بالطبع..ما من يد عادية بإمكانها رسم مثل هذه اللوحة النابضة بكلّ هذه الحياة.

ربما لم يمنحها الواقع تعريفاً كاملاً عنه، وبخلت أمها بكل حرف يخصه..لكن خيالها جاد بوصفه فألبسه حلة من البهاء الروحي..كم تحبه!..

هبطت دمعتان.

أما حين يجافيها الخيال ويدفعها بعنف إلى أرض الواقع؛ فكانت تبصر نفسها في أرض خواء ، وصحراء جرداء، وماض ليس به مدد لأي حياة..

عصف بذاكرتها ذلك اليوم من جديد..يوم أن اقتنعت والدتها بنضجها لتخبرها في هدوء قاتل بالأمر الذي أفقدها جزءاً كبيراً من ذاتها..ولا زالت تبحث عنه ..

أفاقت من شرودها على صوت الهاتف، تلمست طريقها للداخل، لاحظت أن الهاتف بجوار صديقتها النائمة مضاء أيضًا..تناولت الهاتف الخاص بها وقد ظهر على شاشته اسم حسام

-في هذه الساعة؟ قالتها إلهام وهى مترددة بين إيقاظ صديقتها المرهقة إثر سهرها الليلة وبين تجاهل لن يريحها، هتفت باسم وفاء عدة مرات فلم تحرك الأخيرة ساكناً..

ترددت للحظة يسيرة ثم أجابت على الاتصال:

- آسفة حسام.. لكن وفاء نائمة فأحببت أن أطمئنك كي..ماذا؟ ..متى حدث هذا ؟ نعم، نعم، أين أنتما بالتحديد..سنحضر حالاً..

أغلقت الهاتف وقد شعرت بكلّ جزء من جسدها ينتفض بعنف..

أفاقت وفاء إثر ارتفاع صوت صديقتها ونظرت إليها في ذهول :

- ما بك ؟..من تحدثين في هذه الساعة ؟

نظرت إلهام نحو صديقتها وقالت بصوت جال الأسى بكل تهدجاته:

- سيف تعرض لحادث.

الفصل السابع

From:SalmaSalah111@gmail.com

To:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

Data:30November

Subject:شكرًا لإهتمامك

قبل أي شيء أنا أتقبل اعتذارك بالطبع..يكفي اهتمامك بالرد على رسالتي، بل أتمنى لو تسامحيني على بعض العبارات التي اندفعت بها..

أعلم جيدًا أن الجميع قد يكونون مرضى _نسبيًا_ ولا أستتر من هذا أبدًا..ولا أخشى هذا على أية حال.

بالنسبة للطريق الذي ذكرتِه..نعم قد خطوت به وحدي..ولن أصدق أبدًا أن هناك خطوات متقاربة_ ولو بعض الشيء_

حدثتني عن سبب سؤالي، وأن الشعلة المقدسة _على حد تعبيرك_ هي وراء هذا التساؤل..لا أدري حقًا..ربما تكونين على صواب..ربما..

لكن أليس هذا أكثر إرهاقًا للنفس؟! لطالما أردد أن الاستسلام التام لليأس هو أكثر راحة من التشبث بأملٍ واهٍ..من لم يعد يمتلك شيئًا ليخسره..يصبح قوياً.

طلبتِ أيضًا أن أقنعك بعدم إمكانية تهذيب البستان من جديد..مع أني كنت قد سبقتك بطلب إثبات العكس

على كل حال سأقول ما عندي..

ربما نستطيع تهذيب البستان من جديد، لكن المشكلة ليست به..يمكن تهذيبه نعم، لكن لا يمكن تهذيب كسورنا نحن، لأنها غير مرئية..لا يسهل إصلاحها ولا تشذيب خدوشها.

ثمة ما ضاع في أعماقنا..شيء يضيع ولا نستعيده _مهما أوهمنا أنفسنا بغير هذا_

صدقيني..مهما امتلكتِ من فنون العلاج..لن تستوعبي مرارة التجربة.

الحديث عن الشجاعة سهل خارج أرض المعركة.

الآن لا أخشى أن أبدو قاسية _على العكس_ أود إخبارك أن هدفي صار هو البعد والقسوة ذاتها..

تحضرني أحيانًا رغبة بالإفضاء، لكن لا فائدة..

هل يمكنني التخلص من شيء حالماً أفضيت به ؟!!

أعتذر عن الحضور إلى المشفى العام أو العيادة الخاصة بالكاد أستطيع البوح هنا،

وبالمناسبة أنا لا أُدعى سلمى..

تحياتي

***

الفصل الثامن

سمح الطبيب أن يبقى بالغرفة شخص واحد فقط..نظرت إليه؛ كان وجهه شاحباً، توارى نصفه خلف جهاز التنفس الاصطناعي، هالها ما بها أكثر من قلقها عما به، لمَ تشعر باضطراب كهذا مرت الأحداث سريعة أمام ذاكرتها، اتصال حسام، وصولها هي ووفاء..وكان حسام قد علم بالحادث حين هاتفه شرطي المرور الذي يعرف علاقته بسيف.

كانت ساعات اليوم بطيئة جداً ..أو هكذا تمر الأوقات العصيبة ..

تأملت ساعة هاتفها أكثر من خمس ساعات فقط منذ مهاتفة حسام لها، لكنها مرت كخمس سنوات ثقيلة.

أخفت دمعتها كأنما تتهرب مما بها، تجاهد ليبدو الأمر عادياً، كانت تشعر في قرارة نفسها بالذنب، الحادث كان أثناء قيادته للسيارة..ليس الأمر مجرد صدفة..شعرت بغصة..لو حدث له مكروه فهي السبب ولا أحد سواها.. حركت رأسها كأنما تنفض عنها تلك الأفكار، لماذا اعتادت أن تقسو عليه؟ كانت المرة الأولى التي توجه فيها لنفسها هذا السؤال..تجنبت أسلوب المصارحة الذاتي في الفترة الأخيرة، لكن أي شعور هذا الذي ينتابها الآن؟ هل خفق قلبها أخيراً..لا..انطلقت " لا" منها بصوت مسموع..كشأن رفضنا لما نخاف أن نؤمن به.

بررت موقفها في نفسها : - وماذا في ذلك ؟..مجرد اضطراب، خوف أو شفقة قد يتملكانني لو كان أي أحد غيره بنفس مكانه..ربما زاد من شعوري؛ هذا خوفي من أن أكون سبباً ما..

رفعت رأسها قليلاً بكبرياء وكأنما تترفع عما راودها قبل قليل..كانت عيناها تجذبانها نحوه، جسده الخائر يثير عطفها..ما أقسى هذا الصراع! بإمكانها أن تهب قلبها لجوف السعير خيراً من أن..

أفاقت على صوت الممرضة تستحثها على الخروج..تبعتها في صمت، كان حسام يتحدث بالهاتف وهو يقطع الممر جيئة وذهابًا، و ما إن تلاقت عيناها بعينيّ وفاء حتى أطرقت في صمت..

جلستا متجاورتين ثم بادرت وفاء بقولها :

- قال الطبيب أن حالته ليست بالسيئة..كدمات سطحية وكسر بسيط بالساعد، غيابه عن الوعي مسألة وقت.

لم تنطق إلهام بشيء..كانت الأفكار تعصف بها وإحساس بالذنب يعتصر كيانها..

- إلهام ..لماذا صامتة ؟

- لا لشيء.

لا تدري كيف اجتثت الأحرف لتنطق بإجابة، كانت آلاف الأفكار تجتاحها في آن واحد..شعرت للحظة أنها وحيدة جداً، لا يفهمها أحد..هؤلاء جميعاً كانوا بمنأى عنها..جميعهم لن يفهموا ما بها..ترى هل يخضع قلبها؟..

لم يدرك أحد معاناتها الداخلية أبدًا..ولا صراعها الأبدي..يرون الأمور عادية وسطحية تضخمها هي بمخيلتها..وما فطنوا على ماذا قد تغذت تلك المخيلة.

- إلهام أبك شيء؟

نظرت ناحية صديقتها..آه لو تعلمين كم أحتاج لو تضمينني الآن..

- لا ..ليس بي شيء.

ولا تصدقيني يا صديقتي ..بي ألف شيء..ولكن ..هي الأمور عندما تتفاقم لا نملك ما نقول ..أترى لو قلت..هل سيتغير شيء..؟

-ربما تشعرين بالذنب ؟..صحيح ؟..أنا أعرف ما يجول بخاطرك.

وقعت جملتها على مسمع إلهام كإعصار..ثمة شخص آخر يعتقد في مسئوليتها عما حدث.

أكملت وفاء في هدوء..

- حالته ليست خطرة..لكن أظن أن عليك أن تقدمي له اعتذارا من نوع خاص عندما يعود إلى رشده.

لم تشعر إلهام بنفسها وهي تهب عن مقعدها فجأة، وتتجاهل نظرات صديقتها المستفسرة..تتجاهل كذلك نداءاتها، كانت لا تشعر بنفسها تحديدًا..

وتمضي.. تمضي ولا تدري تحديدًا أي وجهة ستقصدها قدماها.

***

كانت ساخطة لأقصى حد وهي تفرغ محتويات حقيبتها أرضًا في عصبية .. ثم تعود للخزانة في نفاذ صبر تعبث بمحتوياتها في غير طائل، كانت تعلم أن وفاء ربما تأتي خلفها ..

يبلغ بها الحنق مبلغه حين تستمع لصوت طرقات سريعة على الباب..تترك الأشياء كما هي حين يتناهى لمسمعها صوت "أمينة " ..تلك الشابة الثلاثينية التي تقطن بنفس المسكن مع والدتها العجوز ؛ والتي جمعتها الجلسات النفسية بإلهام كثيرًا

تفتح إلهام الباب في حركة عصبية فتبادرها أمينة بقولها :

_ معذرة لإزعاجك يا دكتورة لكن أحتاج من وقتك دقائق ..

لم تملك إلهام إلا أن هزت رأسها بإيماءة إيجاب وهي التي لا تملك الوقت فعلاً

فاطلقت أمينة لسانها بلا توقف :

_ الحقيقة يا دكتورة أني كنت أود الاحتفاظ بالتسجيلات.. ليس عدم ثقة _ حاشا لله _

تبعت جملتها بإطاحة من يدها في الهواء تؤمّن بها على نفي انعدام تلك الثقة ثم تابعت:

_ لكن يا دكتورة والحق أخبرك أنا ..

ترددت قليلا قبل أن تكمل جملتها في شيء من الحياء المتكلف الذي لا يتفق وهمجية نطقها للكلمات :

_ قررت أن أقبل خطبة "محمود"

ابتسمت إلهام تلقائياً فقد كانت _ هي وأغلب الساكنين_ تلاحظ أو تتنبأ بما سيجمع أمينة مع ذلك الشاب الذي يصغر شريكته _ إن صح التعبير_ بأعوام..وكان قد التحق بالعمل لدى الحاج اسماعيل.

أفاقت الهام من شرودها على صوت أمينه وهي تقول :

_ أعلم مدى مساعدتك لي يا دكتورة لأصير إلى هذه الحال..حتى أن والدتي لا تكف عن الدعاء لكِ في الساعات القليلة التي تعود لوعيها بها .. وأرجو أن تتمي هذه المساعدة بأن تعطيني كل ما يتعلق بذلك الأمر..لعلك تفهمين ما أرمي إليه.. أنا أود أن أبدأ حياة جديدة.

مرت لحظات صمت قبل أن تقول إلهام :

_ لكن هذه أمور عمل..وخصوصيات مهنة..ثم أنك تعلمين جيداً أنها لن تخرج من بين يدي.

ارتبكت وهي تكمل جملتها قائلة:

_ صدقيني لا أملك الوقت الآن .. هل لنا أن نتحدث لاحقاً.

رمقتها أمينة بنظرة يائسة ثم استأذنت منصرفة.

كانت وفاء تقود السيارة بسرعة نحو مسكنها..تركت حسام بالمشفى بعد أن اطمأنت على حالة سيف كي تلحق بصديقتها..شعرت أنها قد قست عليها أكثر مما يجب..

لكنها ودت لو تثير شفقتها حتى ناحية سيف، ودت لو تلامس عاطفتها وتنبهها لقسوتها، لم تقصد أبداً أن تغضبها..وإن نسيت فلا تنسى تلك النظرة التي رمقتها بها إلهام قبل رحيلها..ليتها كانت نظرة غاضبة إذاً لهان الأمر..لكنها كانت نظرة عاتبة يملؤها الحزن، نظرة تفهمها وفاء من صديقتها جيداً .

نظرة تحمل كلمة "لماذا" بين طياتها بكل ما فيها من أسى صامت..

ترجلت وفاء من السيارة ..ما إن وصلت باب المسكن حتى صعدت السلالم في سرعة كادت تجعلها تصطدم بالسيدة التي بادرتها :

- خير ! ..ما بك ؟

نظرت فإذ هي أمام "مدام سناء" وكان الإرهاق بادياً على وجهها

- ليس بي شيء .

أجابت وفاء وهي تحاول إنهاء الحديث قبل أن يبدأ، فليس ثمة متسع من الوقت لديها.

- لكن..لدي شيء لك!

أجابت وفاء بنفاذ صبر بدا واضحاً في نبرتها :

- سيدتي..أستمحيك عذرا أن نؤجل أي حديث..أتسمحين لي بالعبور ؟

تنحت السيدة عن طريق وفاء وهي تقول في غير اكتراث :

- الأمر لا يخصني، هذه الورقة فقط سأسلمها لك، ولي أن أتركك كما تشائين.

التقطت وفاء الورقة في لهفة وصعدت السلالم في خطوات قليلة، وصلت باب المسكن خاصتها وفطنت إلى أنها قد نسيت مفاتيحها بالسيارة ..طرقت مراراً على الباب ولم يستجب أحد..

وقبل أن تهبط بادرتها أمينة وهي تستند إلى الحائط المقابل للدرج :

_ دكتورة وفاء !

نظرت الأخيرة نحوها فأكملت :

_ قد عادت دكتورة إلهام منذ قليل ..

قالت وفاء في لهفة :

_ هل رأيتها ؟ ومتى غادرت ؟.. لكن سيارتها بالخارج !!

_ الحقيقة هي كانت منفعلة بعض الشيء كأن حدثاً ما قد وقع.. لكن لا أعرف إلى أين ذهبت، كانت في عجلة من أمرها.

تأملتها وفاء ولم تنطق بإجابة، لشد ما تود تغيير هذا المسكن الغريب رغم إصرار حسام على اختياره إياه ..ولا تعرف لمَ فكرت بهذا تحديداً..

جاءها صوت الهاتف مظهرا على الشاشة اسم حسام فهبطت الدرج لتجيب على اتصاله دون أن تلتفت لأمينة التي تملكها الامتعاض فانصرفت بدورها..

_ وأين ذهبت؟

بدا صوت حسام غاضباً بعد أن شرحت له وفاء ما حدث .

_لعلها ذهبت للعيادة يا حسام..ليس ثمّة مكان آخر.

_ إذاً عودي إلى هنا..وهي ستعرف كيف تعود .

_ لن يحدث..أنا أغضبتها ومسئولة عن هذا.

_ افعلي ما يحلو لكِ.

أغلق الهاتف في عصبية..وكادت وفاء تطلق العنان لدموعها لفرط الانفعال، تصرفاته في الفترة الأخيرة غير مفهومة وبلا معنى..لا تفهم سر غضبه من كل ما يخص صديقتها..حتى يوم ميلادها رحل غاضباً بعد حديث ساخط..

كانت الساعة بالهاتف تشير إلى العاشرة تقريباً..

هبطت للأسفل وهي تفض الورقة في ضيق..لم يكن بها سوى بضعة كلمات تشير إلى عنوان ما..فقط

ماذا؟ هل تركت إلهام هذا المكان ؟ فتكت بها الأسئلة ..طرقت باب الغرفة التي تحتلها المؤجرة وما إن فتحت لها "نجاة" الباب حتى بادرتها قائلة :

_ هل مدام سناء بالداخل ؟

أبقت الفتاة على وقفتها أمام الباب وقالت في لهجة جافة :

هي نائمة الآن.

تجاهلت وفاء طريقة الأخيرة وراحت تسأل :

- هل كنتِ هنا حين أعطتها إلهام هذا العنوان ؟ هل قالت لها شيئاً قبل رحيلها ؟ ألم تقل إلى أين هي ذاهبة ؟

- دكتورة إلهام ! ..ظننتها خرجت معك .

- نعم ..لكنها عادت قبلي، ألم تعطك هذه؟

قالت هذا وأشارت إلى الورقة التي لا زالت بيدها.

- لا بل هي من سيدة انتظرت هنا لساعات قبل أن تفقد الأمل برجوعكما ، وتركت عنوانها وأوصت مدام سناء أن تحتفظ بهذه الورقة للدكتورة أو لإحدى صديقاتها.

- سيدة ؟ ألم تقل من هي؟

-لا لم تقل شيئاً سوى أنها تريد دكتورة إلهام ، وأنها عانت الأمَرين حتى تصل إلى عنوان مسكنها هنا.

- لكن إلهام ؟ ..ماذا عنها ؟..ألم تأت إلى هنا ؟

- وكيف تراني أعرف؟ السيدة غادرت منذ أكثر من نصف الساعة، ربما عادت دكتورة إلهام في الوقت ما بين مغادرة السيدة ورجوعك أنت، ومع ذلك..لمَ لم تهاتفيها ؟

- فعلت منذ أن كنت بالخارج لكن هاتفها مغلق.

- غريب هذا الأمر، لكن ربما ذهبت لمكان ما وستعود، ثم لا يجدر بك أن تكملي حديثك واقفة ..كيف سهوت عن هذا..؟

شعرت وفاء أنها تنهي الحديث بلباقة فقالت :

- أشكرك..لا داعي لهذا فسأنصرف الآن، على أية حال أعتذر لو كنت قد أزعجتك بهذا الأمر ، ليس هناك شيء يستدعي القلق.

أنهت وفاء حديثها وودعت الخادمة الصغيرة ثم انطلقت صوب سيارتها والأفكار تذهب بها كل مذهب.

الفصل التاسع

كان الماء يرتفع ويهبط في سيمفونية طبيعية، لكن الأشياء لا تبدو بصورتها الأولى دوماً..يظل الجزء الذي نبحث عنه يمحو من المشهد جماله السابق..

أزاحت شعرها للخلف في توتر..

وراحت تضغط على كفيها تدلكهما بعصبية..

آه لو أنه هنا ..

كيف تراها تستدل إلى وجوده الآن..

أو لماذا هو تحديداً ؟

لكنها تحتاجه وحسب..

كانت رسائلها الأخيرة _ مهما بدت بليغة _ غير معبرة إطلاقا.

هل تراها تفهمها؟

لا تظن ذلك ..

ضغطت على كفيها مرة أخرى

سارت بغير هدى..

وبدأ الصداع يعاودها من جديد..

استسلمت لقدماها..

لتنساق بها دون مقاومة..

***

From:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

To:Salmasalah111@gmail.com

Data:2 December

Subject:عليكم السلام

عزيزتي

لا عليكِ..لم تندفعي بشيء...لكن يبدو أن كلا منّا يعتقد _ بشكل أو بآخر_ أن طريقه فريد من نوعه..

ربما نكتشف في النهاية أننا متشابهو الخطوات..أو ما بعد النهاية بقليل..

الأمل موجود، وأكبر دليل على وجوده هو مرورنا بمحطات اليأس ..إذ أن الشيء يثبته نقيضه..

صدقيني لو قلت أني أتوجه بهذه الكلمات لنفسي أولاً..لا بأس من العثرات..فالخدوش والجراح وحدها تمنحنا ما لم يمتلكه أولئك الذين ترفهم الحياة طويلاً..هناك شيء في نفوس المتعبين يمنح أرواحهم نوراً ملائكياً..ربما كان الشقاء هو ضريبة هذا النور..أوَليس خيراً من رفاهية الظلام ؟!

تعب الطريق هو ما يجعلنا نميز مواطن الراحة فيه، لم يهنأ _مؤقتاً_ سوى الماكثون بالقاع، أما الطامحون للقمم فكان لزامًا عليهم إدراك صعوبة التسلق عكس الجاذبية التي تركن إليها جميع الأنماط المتشابهة بالأسفل..

تراني قد حلقت بكلماتي بعيداً ؟! ..

البستان الذي كان بإمكاننا تهذيبه يوحي إلينا بإمكانية تهذيب أنفسنا.. إصلاح ما هو "غير مرئي" يكون بعلاج غير مرئي أيضاً..بالإيحاء، بالإيمان الداخلي أن كل ما نفقده ..بإمكاننا وحدنا _ ووحدنا فقط _ استعادته..

هه لست خارج أرض المعركة ..صدقاً لست خارجها..

لكن_ على حد تعبيرك _ قد يبدو الإفضاء صعباً بعض الشيء..

ربما لا نتخلص من الأشياء فعليًا عن طريق البوح بها..لكنها تجعلنا نواجه أنفسنا..

الإفضاء نعمة لمن يمتلكون القدرة عليها..فإن امتلكتِها فقومي باستغلال هذه الملكة على أكمل ما يكون..

لا شيء ستجنيه من القسوة إلا أذاكِ أنتِ..

إياكِ أن تستسلمي لنبرة الأسى إياكِ أن تحولك الحياة كما حولت من قبلك الكثيرين.. انتصارك هو أن تحاربي لتظلي بنفس بياض القلب..

لن أطلب منك البوح تفصيلياً..إلا حين ترغبين..

ولا بأس..يمكنك الاستمرار بمراسلتي هنا..

خالص تحياتي

إلهام

***

لا تعرف إلهام لماذا غزاها الأسى فجأة..شعرت أنها كانت تخاطب نفسها، وكأن بداخلها شخصان يشدانها لطرفيّ نقيض..

هل حقا كانت تمتلك نبرة الأمل التي تتحدث بها، هل حقا لا زال هناك إمكانية تهذيب؟!

أم أنها -فقط- تؤدي واجبها المهني.. ؟!

ربما سبب هذه الغصة هو إدراكها التام أنها ليست خارج أرض المعركة، ليست خارجها أبداً..وأنه إن كان على أحد أن يعتقد بفرادة طريقه..فيجب أن يكون هذا الأحد هي..هي وحسب..

أو لعل الإفضاء لا يجدي..لعلنا لا نتخلص من الشيء حالماً أفضينا به _على حد تعبيرها _ ، أو لعلنا يجب أن نجد من نستنسخ ذاكرتنا عنده يوماً _ على حد تعبيره _

هزت رأسها كأنما تنفض عن رأسها تلك الأفكار..تأملت الرسالة قليلاً ثم ضغطت "إرسال" .

الفصل العاشر

كانت قطرات المطر تنزلق على وجهها الذي تحجبه بيديها تارة و بطرف ياقة المعطف تارة أخرى..

احتضنت حقيبتها وسارت بخطوات وئيدة تتأمل الشوارع التي أخلاها المارة إثر انهمار المطر، قصدت مقعداً شاغراً أسفل بناية شكلت واقياً من المطر أعلاه ، أسلمت جسدها للمقعد وقد بلغ منها الإرهاق مبلغه..كانت جائعة..تذكرت للتو أنها لم تأكل شيء منذ الصباح... تأملت المارة في صمت..أهي بخير الآن ؟..هل هذا هو مخرجها كما ظنت ؟..أن تسير هكذا بلا هدى..! ..لا، هي انطلقت دونما ظنون..انطلقت تهرب من شيء لا تدري كنهه، فقط تدري أنه شيء ضخم يطاردها أينما حلت، هروبها لا يعني سوى رغبة بالانسلاخ من الذات..رغبة بألا يعرف أحدهم هويتها ولا يدري من هي..لا يهمه ماضيها ولا حاضرها..رغبة بأن يرمقها العالم بنظرة لامبالية..وألا يعرف سرها سواها... أليس هذا خيراً من غربتها بين من عرفوها..أو ..من اعتقدوا أنهم عرفوها.

ربما بدت أفكارها صبيانية نوعاً ما ، لكنها كانت تتجاهل عامدة كل ما يضحضح فكرتها أو يعارضها.

-ربما وفاء قلقة الآن .همس بتلك الجملة صدى ضميرها فأخرسته فوراً..لا يحق له التفوه بحرف الآن ..ولا لاحقاً حتى..يكفيها ما عانت، وإن كانت تدرك في قرارة نفسها - رغم هذا كله - أنها تجهل معنى الخلاص..ربما هو مجرد كلمة نعطي مدلولها لما فرضناه في مخيلتنا..

شدت السماء عنان جموحها فبدا المطر ضئيلاً، وقفت وسارت بجانب الطوار..كانت تشعر بشيء ما يعصف بذاكرتها عصفاً ضبابياً فلا تتحقق منه..شيء يناديها لكن بصوت واهن لا يصل لذاكرتها بوضوح..

كان الظلام حالكا اللّهُمّ إلا من بعض الأضواء المنبعثة من أعمدة الإنارة على جانبي الطريق، لم تكن تعرف كيف ستقضي ليلتها وأين؟، عصف بها

الجوع أكثر من ذي قبل، واشتد البرد فاحتضنت ذاتها وشعرت بالدموع تبلل خديها..لا، تدري لمَ تبكِ الآن بالذات ؟ ربما لم تستطع أن تصمد أكثر..أو ربما بسبب ذلك الشعور الغريب الذي يثيره فينا البرد والجوع في ليلة عاصفة بالخارج.

ذكرها هذا الحال بماضيها، لا تذكر أن ثمة ليلة عاصفة واحدة قد مرت دون أن تجتر دموعها..وكأنما كانت تشارك السماء نحيبها..وتقول لها بلغة الدموع الصامتة: أنها أيضاً تحتاج..لكن تحتاج ماذا ؟ لا تعرف تحديداً..ربما الدفء، أو ربما تحتاج يداً تمسح تلك الدموع..لا، هي لا تحتاج لأحد..

نطقت بجملتها الأخيرة بصوت مسموع وكأنما كانت تقاوم فكرة الاحتياج تلك..

بإمكانها أن تصبح وحيدة..إن كان هذا خياراً حقاً، لا فرضاً وجدت نفسها أمامه، ثم لأجل من يحق لها أن تضع اعتباراً في غيابها؟..وفاء!.. شعرت في الآونة الأخيرة أن حب وفاء لها تكسوه الشفقة..ويا له من شعور، شعرت أنها ثقيلة الوطء على قلب صديقتها وحاجزاً أمام مستقبلها فرحلت..رحلت كما ترحل دوماً..نعم، اعتادت الرحيل عن كل شيء..لم تعرف يوماً معنى الاستقرار..وكيف عساها تعرفه؟..

بطفولتها اعتادت الانكماش على ذاتها..أوليس ذلك رحيلاً ؟..رحلت إلى ذاتها من كل تلك القسوة التي تجذرت في العالم من حولها..قسوة رجل ظلت لسنوات تناديه " أبي".

وقسوة أم سلبتها ذاتها..منذ متى وهي تطمح بالاستقرار؟ ..الاستقرار ليس لأمثالها، إنه لهؤلاء الذين تفتحت أعينهم على ابتسامة أم وحضن أب، على شمس دافئة تغمرهم فتتضرج وجوههم بحمرة قانية، وترسم على شفاههم بسمة لا تطالها يد القدر، أما أمثالها فدرب الدموع على خدهم يلامس أي ابتسامة حاولت أن تُولد فيؤدها.. وخفقة قلوبهم فتذبل..ثم يكبرون مع أنهم ما اعتادوا أن يروا أنفسهم صغاراً..يكبرون وفي كيانهم شرخ عميق

يوارونه بثياب متأنقة وعطر فاخر ولافتات تحمل أسماء فرضها القدر عليهم..وهم في هذا كله يرمقهم مَن حولهم بنظرات الحسد أحياناً.. مع أنهم لو أتيح لهم أن يتركوا كل ما ألوا إليه مقابل لحظة دفء واحدة فلن يترددوا أبداً..بل سيفعلون ذلك منشرحي الصدر، إن ما يرعبهم دوماً هو البرد..رغم أنهم اعتادوه إلا أنه ما زال يثير دموعهم بلا هدنة.

كانت واهنة كأشد ما يكون لدرجة أنها لم تشعر إلا وجسدها يهبط على الأرض، خارت قواها فجأة بالكاد التقطت حقيبتها وجسدها ينتفض، فتحتها بصعوبة..أخرجت اللوحة وضمتها إليها تتقي الارتجاف الذي أصاب أوصالها فجمدها..أخفتها أسفل معطفها كيلا يفسدها المطر..

كانت تشعر أن الجزء الصحيح الباقي من روحها يكمن خلف هذا الإطار الخشبي، وكأنما تستمد منها قوة تعينها على أن تنهض من جديد كانت تشعر بانعدام طاقتها، ورغم ذلك تحاملت على نفسها وتقدمت بخطوات متعثرة، فكرت أن تلتمس مساعدة من عابر ما لكن بدت فكرة سخيفة إذ أن الشوارع كانت قد خلت تقريباً إضافة إلى أن الوحل الذي كان قد لطخ ثيابها، والوهن البادي على ملامحها سيمحو أي وقار تشرح به ما تنشده من مساعدة.. أما مشاعر الشفقة فما أغناها عنها.. ثم..أي مساعدة تلك التي تنشدها؟

سرعان ما خطرت لها فكرة أخرى كانت بمثابة بصيص من الآمل منح لها بعض القوى

كانت تعلم أن سارة صديقتها تقطن بإحدى الشقق السكنية في بناية لا تبعد كثيراً..كان عليها أن تسير مسافة شارعين ثم تنحرف يميناً..

لم تكن المسافة بعيدة لكن طاقتها كانت مستنزفة ومع ذلك سارت تستند قدر استطاعتها لكل ما يجاورها.

عانت كثيراً حتى عبرت الشارع الرئيس..ومن ثم لمحت على ضوء عمود الإنارة شبح رجل يعبر الطريق..لا تعلم أي قوة حلت بقلبها فازدادت

خفقاته..ولا أي حياة نبضت بجسدها فتحركت في سرعة وخفة والتمست بجانب الطريق ركناً يخفيها عن الأنظار..

مر الرجل حتى اختفى تدريجياً عن أنظارها فتنفست الصعداء..ثم أكملت مسيرتها في دهشة أصابتها هي نفسها..

ممَ خافت تحديداً؟ أوَهل يكون الخوف مصدر قوة كتلك التي اجتاحتها منذ قليل؟ ألا فنعم..إن كل القوة التي حازتها بدرب حياتها لم يكن مصدرها إلا الخوف..الخوف من كل ما يقبع وراء ستار من الأمس، ومن الغد أيضاً..

نما في أعماقها خوفها من الكبار، والآن لازالت تلك الطفلة فيها حية..تغطي وجهها بيديها فتظن أنها بمأمن، لم تكن تتقن الهروب ، ولكنها ألِفته، وما أسوأ أن يألف المرء شيئاً لا يحبه.

عبرت يميناً وأحصت البنايات..الثالثة هي مقصدها، كانت تدعو الله سراً أن تجد سارة هناك؛ فهي تعلم أنها لا تقيم هنا بصفة دائمة إلا لضرورة العمل وفيما عدا ذلك تقيم بمنزل أهلها الذي يبعد كثيراً.

تذكرت العمل فجأة وذلك الإهمال الذي لحق بمواعيده أخيراً، ثم باغتتها فكرة الجوع وتمكُن البرد القارس من جسدها، آلمتها فكرة ضغط متطلبات الجسد على الروح في وقت كهذا؛ فها هي الآن بكل مشاعرها وآلامها لا تستطيع إبعاد فكرة الجوع عن خاطرها، بل لا تتركها لحظة لتقرر مآلها.

صعدت السلالم بمشقة وبالكاد وصلت إلى الطابق الثاني حيث أملها المنشود... ضغطت على الجرس طويلاً وكأنما خانتها قواها أن ترفع يدها عنه مرة أخرى.

لحظة انتظار بدت لها دهراً موحشاً، فكرة أن سارة ليست هنا ستلقي بها في الهاوية.

خفق قلبها حين سمعت حركة بالداخل لم تقاوم لهفتها فطرقت الباب طرقات غير منتظمة وسرعان ما أطل وجه سارة الناعس من الجزء الذي فتحته من الباب، مسحت سارة عينيها باستغراب وهي تتأملها.

- من؟

لأول مرة شعرت إلهام منذ بقائها وحيدة أنها لم تتفوه بكلمة منذ وقت طويل... خرجت حروفها بصعوبة.

- سارة..أنا إلهام ..كنت أود لو تستضيفينني الليلة..في الحقيقة أنا..

انتصبت سارة وكأنما أصابها صاعق وفتحت عينيها على اتساعهما تتأمل صديقتها من شعرها حتى أخمص قدميها وصاحت ..: إلهام! .. بربك ماذا حدث؟!..

الفصل الحادي عشر

قال حسام وهو يحاول أن يبدو هادئاً: أظن أن إلهام ليست طفلة صغيرة يا وفاء حتى تثيري كل هذه الضجة، ربما حالتها النفسية سيئة كما تقولين..ربما ذهبت لمكان ما وستعود..لماذا نفترض الأسوأ ؟

أجابته وفاء في انتحاب :

- لأني أنا السبب..أزعجتها بحديثي الأخير ،نسيت أني صديقتها وملاذها الوحيد..كنت عليها لا لها ولا معها.

- أنت تحملين نفسك فوق طاقتك..ومع ذلك لا تقلقي ..سنفعل ما بوسعنا.

انتفضت واقفة وهي تصيح بعصبية :

- فعلنا كل شيء هي ليست بالعيادة ولا بأي مكان توقعت أن تكون به، ونحن الان بمنتصف الليل ..هاتفها مغلق ولم تترك رسالة واحدة..لماذا يا إلهام ..ولا كلمة واحدة حتى.

فجأة خطرت ببالها فكرة :

- حسام ، ثمة أمر سأطلعك عليه..لكن أخبرني أولاً، ماذا قال الطبيب عن حالة سيف؟

لم تكد أن تتم جملتها حتى ظهر الطبيب، وعلى وجهه ابتسامة مطَمئنة واتجه نحوهم قائلاً :

- المريض ليس بحالة خطرة..ثاب إلى رشده منذ قليل ولن يمكث هنا أكثر من يوم وليلة.

قال حسام متسائلاً :

- هل بإمكاننا التحدث إليه الآن؟

فكر الطبيب للحظة فقال حسام محاولاً ألا يدع له فرصة للتردد: لن نحدث أية إزعاج.

- حسنا.

قالها الطبيب ثم ودعهم وأمر الممرضة أن تتقدمهم إلى غرفة المريض، عبرا الممر خلف الممرضة حتى قادتهما إلى الغرفة التي تضم سيف.

دخل حسام وتبعته وفاء، بدا على سيف أنه يحاول أن يعدل من وضعية جسده، أسرعت الممرضة تسند جسده برفع الوسادة خلف ظهره قليلاً فقال حسام :

- أبق كما أنت..حمداً لله على سلامتك يا دكتور كم أثرت قلقنا.

رد سيف بصوت لم يختفي منه آثار الوهن، وعينان ترقرق فيهما الشعور بالعرفان.

- اسمح لي أن أشكرك شكراً لا توافيه كلمات..أشكركم جميعاً، أخبرتني الممرضة بكل ما حدث وجهدكم المشكور لمساعدتي..حقاً أنا مدين لكم.

أطرق حسام وقال :

- الأمر لا يستحق كل هذا الشكر.

نطق سيف بسؤاله الذي أرجأه منذ دخولهما ولم يستطع أن يؤجله أكثر:

- لكن ؟..أين إلهام ؟..سمعت آنها كانت هنا، قالت الممرضة: أنكم كنتم ثلاثة!

تلعثمت وفاء وأجابت في بطء وهي تبحث عن كلمات :

- إلهام، نعم، بالطبع كانت هنا، لكن في الحقيقة أنها كانت متعبة قليلاً فأعدتها إلى المسكن لترتاح قليلاً..هي هنا منذ الصباح وظلت بجوارك طويلاً..أنت تدرك حساسيتها في مثل هذه المواقف.

لم ينتبه سيف للتردد البادي على نبرة وفاء وإنما ردد في خفوت :

- ظلت بجواري طويلاً! متى ستعود؟

نظرت وفاء إلى حسام قائلة :

- سأذهب لأخبرها بأنك تحسنت..سيبقى حسام معك ولن أتأخر.

خرجت وفاء دون انتظار أي رد من سيف، وما إن خطت بضع خطوات بالممر حتى تناهى إلى سمعها وقع أقدام حسام يناديها غاضباً:

- أين تذهبين؟

رجعت بضعة خطوات وقالت في رفق :

- لا تقلق ستبقى على اتصال بي وسأطلعك على كل شيء.

كرر سؤاله منفعلاً :

- ومع ذلك أسألك أين تذهبين؟

ردت في حيرة :

- لا أدري..ربما إلى مسكننا..سأكرر اتصالي بصديقاتنا المهم ألا تقلق..وألا تترك سيف وحيداً

- ألا آتي معك ؟

- وسيف؟ لن تتركه وحيداً على آية حال..اسمع ، ليس هناك داع لهذا القلق..لربما أعود إلى مسكننا فأجدها هناك..اذهب الآن لا أريد أن أتأخر أكثر.

- انتبهي لنفسك إذاً.

ابتسمت وفاء وودعته وفي رأسها ألف فكرة، لم تكن تتوقع وجود إلهام بالمسكن كما زعمت منذ قليل..كانت تعرف صديقتها جيداً..إلهام صبورة حد الاعتقاد أنها لن تفعل شيء... لكن يلي هذا الصبر الطويل جموحاً يطيح

بأي شيء، شعرت بغصة..هي السبب بهذا كله..المفترض أن تحتويها لا أن تثقل عليها، بحثت في حقيبتها عن مفاتيح السيارة ، عثرت فجأة على الورقة التي نأت بذكراها عن خاطرها لازدحام الأفكار والأحداث.

ربما تفيدها..ربما..

كان العنوان ليس غريباً، لكنها لم تكن تعرف الطريق إليه..

أشارت إلى سيارة أجرة وعرضت العنوان على السائق؛ فأومأ لها بالإيجاب؛ كانت ملامحه تحمل بعض الامتعاض مما أثار هاجسها أن هذا العنوان بعيداً، وما إن استقرت بالمقعد الخلفي حتى بادرته في محاولة لإخفاء جهلها بالمكان المقصود:

- القيادة وسط هذا الازدحام ليست مريحة صحيح ؟

نظر إليها في المرآة المثبتة أمامه ثم قال :

- ليست مريحة بالطبع، خصوصاً في هذه الأجواء الضبابية ليلاً، لكن..لن نستغرق أكثر من عشر دقائق.

كان ثرثاراً بعض الشيء فلم يتركها لأفكارها لحظة..

- هل تسكنين قريباً من هنا؟

أومأت برأسها وهي تقول :

- نعم، أسكن قريباً من هنا بسبب ظروف عملي.

- أي نوع من الأعمال ؟

كان تفكيرها ينحرف في ناحية أخرى تماماً..كانت تفكر بإلهام..وتأمل أن تجد بهذا العنوان طرف خيط يرشدها إلى مكان رفيقة روحها.

لم تشعر إلا وهو يكرر سؤاله: أي نوع من الأعمال تمارسين؟

أجابت في نفاذ صبر :

- الطب النفسي يا سيدي.

ضحك ضحكة غريبة ثم قال :

- أتعلمين أني أرى أن مهنتك لا مساس لها بالواقع، واعذريني يا آنسه أو لنقل يا دكتورة.

قال هذا واستمر في ضحكه بطريقة استفزازية.

جزت على أسنانها بعنف وتساءلت في هدوء مصطنع :

- ولماذا قد ترى أنها لا مساس لها بالواقع ؟

أجاب وقد تحول صوته إلى نبرة أكثر جدية :

- الحقيقة يا ابنتي أن كل هذا العالم من حولك يرسف في أغلال من المرض النفسي، ربما يدهشك حديثي، أو يأخذك الظن إلى أن شيخاً مثلي لا علم لديه بمثل هذه الأمور، أما أنا فأدرك جيداً أن الخبرة تفوق العلم الذي يلقنوكم إياه في الكتب..هائنذا بالكاد أفهم أمور تخص الطب النفسي وأساليبه، لكني أحمل بين جنبي فؤاداً قد خبر البشر عن ظهر قلب، إن هذا الفؤاد لهو أقيم عندي من ألف مكتبة تضج بتحليلات واستنتاجات لا أفهم منها سوى أن الإنسان هو الإنسان مهما تقدمت الحضارات التي أنشأها، سيظل كما هو يعاني من نفس الأشياء، الآن قولي لي هل حالت كل تلك الأجهزة المتطورة وكل تلك العلوم دون اكتئابه؟؟ إني أكاد أجزم أن الإنسان يحفر قبره بيده ويلج بنفسه في الهاوية.

استمعت لحديثه في انتباه سرقها من نفسها، أعجبها منطقه البسيط العميق وإن كان فكرها لا يزال مشغولاً.

- لكن يا سيدي، أنا معك في كل حرف نطقت به..بل أني أوشك أن أنحني لك احتراماً على هذا الرأي السديد..لكن لكل داء فينا دواء..لم يُجِد الله فينا ألماً إلا وقد خلق له ما يسكنه..لهذا نحن هنا على الأرض..لنتألم ونتعلم أيضاً..نتعلم كيف نضمد جراحنا بأنفسنا، ومع هذا لا أدري ما الذي

ساقني لأردد هذا إن فكري مشغول بعض الشيء؟..كل ما أود قوله يا سيدي..كل ما أود إيصاله لك، أننا إنما امتهنا الطب لأننا بشر..وندرك معاناة إخواننا في الإنسانية ،وندرك معاناة أنفسنا قبل ذلك..وكيف للمرء أن يعيش إن لم يتشبث بأمل ..أملنا في الشفاء من كل ما يعترينا هو باعثنا على الحياة..أما لو استسلمنا للمرض فكيف تراها تصبح حياتنا؟

إن مجرد وقوفنا إلى جوار المريض هو خطوة بدرب الشفاء..أما هل يتعافى أو لا..فسأصدقك القول أن هذا إنما يتوقف على إرادته..- بعد قدرة الخالق طبعاً- إرادته وحدها هي أكبر معين له... أما قبل ذلك والأصعب من مسألة الإرادة هو اعترافه بمرضه..إننا جميعاً مرضى على حد تعبيرك..لكن هل جميعنا مقِرّون بأننا كذلك فعلاً؟..وأحسب أنني لو صارحت شخصاً بمرضه الذي يجهله سيتهمني بالجنون..الحقيقة أني أوافقك الرأي، هذه طبيعة بشرية.

هز رأسه معترضا : - ليست طبيعة بشرية ، إن الإنسان عاش أول عهده بالجنة..جنة من الصدق والإخلاص والسلام النفسي..تلك القيم التي افتقدناها الآن..لعللكِ قرأتِ" حلم رجل مضحك "*

اندهشت وفاء من مدى ثقافته رغم أنها لم تكن قد قرأت هذا الكتاب من قبل، فقالت :

- حدثني عنه ..

قال وهو يركز بصره على المرآه الجانبية:

- قاربنا على الوصول يا ابنتي، لن يتسع الوقت لكن كل ما أود قوله أن هذا الشقاء نحن وحدنا من جلبناه، جلبناه عندما تزخرف أمامنا بزيف يشبه ادعاء تفاحة آدم الخلود..وحينما تذوقنا مطامعنا..هبطنا إلى الأرض،

*رواية قصيرة من تأليف الكاتب الروسي فيودور ديستويوفسكي يتحدث فيها برمزية عن عدوى المطامع البشرية وكيفية انتشارها في أسلوب خيالي موجز.

ليس بوسع المرء إن أراد النجاة إلا أن يرضى..الرضا وحده سيواسي أرواحنا..وأحسب أننا قد وصلنا..

شعرت وفاء أنها ترغب بحديث أطول، كانت تود لو طلبت منه أن يبقى..وسرعان ما غادرها هذا الهاجس السخيف فنقدته الأجرة وودعته بابتسامة بادلها إياها، كانت الورقة لا تزال بقبضتها..نعم، هذا هو المسكن.. عبرت الباب الذي قادها إلى دهليز قصير تبدأ عند نهايته درجات خشبية ..بدا المسكن متواضعاً..عبرت الدرجات بسرعة حتى وصلت إلى الباب المقصود... ترددت قليلاً ثم استعادت رباطة جأشها وقرعت الجرس في رفق.

لحظات و فُتح الباب..وقفت أمامها سيدة مألوفة الملامح وترتدي السواد..

شعرت وفاء أن عليها أن تستهل حديثها بجملة مناسبة فقالت :

- سيدتي..أعتذر عن الزيارة بمثل هذا الوقت..في الحقيقة أنا كنت أسأل عن صاحبة هذا العنوان.

قالت جملتها وبسطت الورقة أمام نظر المرأة التي سرعان ما استوعبت الأمر وتحول موقفها من الاندهاش إلى الترحيب الحار..

-أهلاً بكِ..لا يجب أن تظلي بالخارج هكذا..ادخلي وسنتحدث كما يحلو لنا .

كان المكان متواضعاً كما خُيل لوفاء، الأثاث لا يتجاوز الغرض، دعتها للجلوس قائلة :

- هل أعد لكِ فنجاناً من القهوة؟..ما بالك واقفة..هاك مقعد.

- سيدتي..أرجو لو تتفهمي موقفي..أنا لا أملك وقتاً، أرجو أن تعذري اضطراري..لكن أود الاستفسار عن أمر ما بأقصى سرعة..

جلست وفاء ثم استأنفت :

- كنتِ قد قصدتِ مسكن إلهام وتركتِ هذا العنوان، أنا صديقتها وأقيم معها بنفس المكان الذي قصدته أمس، وأنا هنا لأسألك سؤالا قد يبدو غريباً لكن هكذا آل الأمر ولا بد أن مجيئك إليها ينم عن صلة ما..جئت لأسألك هل تعرفين مكان إلهام الآن؟

قالت السيدة باستغراب واضح :

- وإن كنتِ تسكنين معها..إن كنت أنا قد عقدت عليك أملاً لحظة مجيئك..كيف لي أن أعرف مكانها؟..وكيف لكِ أن تجهليه؟

- ثمة أحداث لا مجال لشرحها الآن..لكن إلهام رحلت ولا أدري إلى أين ؟..وهذا ما جئت لأجله، أتيت لأبحث عن إجابة ما.

هبت السيدة واقفة وقد بدا عليها الجزع فجأة وكأنما قد استوعبت الأمر للتو :

- أين ذهبت إلهام؟..يجب أن نحظى بعلم ..رباه..أفي اللحظات التي وددت لو أراها فيها حالاً!..في اللحظات التي وددت فيها لو أحتضنها وأعتذر عن كل ما مضى ..أفي هذه اللحظات بالذات تختفي هكذا، وكأنها علمت بقدومي فعزفت عن رؤياي، أم هو حظي العاثر الذي يتبعني أينما خطت قدماي.

جلست مرة أخرى آخذه وجهها بين كفيها في انتحاب صامت..

كانت وفاء مشدوهة بما تسمع وترى، أدلت بسؤالها رغم أن الإجابة قد تشكلت أمامها دون أن تسمعها :

- سيدتي..هل أنتِ..؟

- نعم، أنا أمها..أمها التي قد عانت من رحيلها منذ سنوات وها هي تكرره الآن..ابتعدت هي وربما كنت أنا السبب..لكن. لم يكن هناك خيار آخر..والآن ..عندما قررت أن أودع الماضي وأحتضنها هي..أو لنقل أرتمي أنا

بين أحضانها ..فأنا من يحتاج إلى الاحتضان الآن..والآن وقد بلغ بي الشوق مبلغه تقولون رحلت..إن هذا لا يقبله عقل..

شردت وفاء.. أُسقِطَ في يدها ولاذت بالصمت..ماذا عساها تفعل الآن..أفاقت من شرودها على صوت السيدة تسألها :

- ماذا عن صديقاتها، عملها، أي شيء؟..لا بد أن يكون هناك طريقاً ما نعلم من خلاله أين هي ؟

- لم أترك ثغرة إلا بحثت بها..أنا أُقدر موقفك..لكن اطمئني، كلي يقين باللّه أن الأمور لن تسوء..وأن إلهام ستعود بين ظهرانينا قريباً..الآن سأعود للسكن..وسأبذل قصارى جهدي حتى أهتدي إلى مكانها..

الفصل الثاني عشر

From:SalmaSalah111@gmail.com

To:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

Data:3December

Subject:

لا أعتقد بفرادة طريقي من فراغ..أنا أؤمن بهذا..

أعلم أن ثمة بؤساء لا حد لهم..لكن _على الأقل_ هم يمتلكون حريتهم الذاتية..هم يمتلكون ذواتهم.

يمكن لاثنين أن يحوزا نفس الألم..لكن يختلف أحداهما عن الآخر..في أحقية التعبير عن الألم..ترى مَنْ يتألم أكثر؟..بالطبع ذاك الذي يشعر بأنه مسلوب الصوت..وأن عليه أن يبتلع غصته في صمت..

اليأس نقيض الأمل..ودليل على وجوده نعم..لكن هذا بعد أن نعبره..ومن قال أننا نعبر محطة اليأس من الأساس؟

الجراح لا تمنحنا شيئًا سوى الألم ..لكننا نغذي أنفسنا بوهم اسمه الصقل..من قال أنها تصقلنا فقط ؟؟ إنها تسحقنا..

ثم حتى لو كانت تصقلنا فعلاً..فعلاً هذا كله؟ ولأجل ماذا؟؟

أنا أُفضل أن أكون ذات نظرة سطحية تافهة مظلمة خيراً من نور ناتج عن احتراقي الداخلي..

القسوة التي أنشدها لن تؤذيني أبدا ..وستحميني القسوة من كل هذه الأشواك..سأقسو مثلما كانوا هم.. لعلها لم تؤذهم يوماً..

وإن كان هذا هو انتصاراً للحياة.. فليكن..

ألا يكفي ما أشعر به من ذنب تجاه أمور لم أقترفها..أو لعله العكس

ألا يكفي تلك الأشياء التي تطاردني أينما هربت ؟!

كم أود لو ذهبت لمكان لا تلاحقني به تلك الصرخات المختبئة بأعماقي..

الجميع يقصدونني كي يفرغوا مكنون صدورهم..من المضحك أن أنصت لهم، جاهدت كثيرا أن أمنع ضحكاتي عند حديثهم .. وإن كنت _في حقيقة الأمر_ أسخر من نفسي لا منهم ..

ربما أنا حقاً لا أرغب بالبوح..ربما أود وأد ما أشعر به حتى لا تعترف به الحياة، لكنه لا يموت..لا يموت أبداً..بل يتضخم في أعماقي حد موتي أنا..

تحياتي

الفصل الثالث عشر

فتحت إلهام عينيها ببطء..وجدت نفسها ترقد في حجرة واسعة..شعرت بالاندهاش لوهلة ثم ما لبثت أن أدركت الأمر..

كانت تشعر أنها استعادت بعض قواها لكنها لا زالت مرهقة..رفعت الغطاء عن جسدها قليلا..كانت ترتدي ثوبا نظيفا وأبصرت بمعطفها معلقا قد تم تنظيفه.

كانت الساعة المعلقة أعلى الحائط المقابل لها تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، يبدو أنها نامت طويلاً..

حاولت أن تنهض لكنها شعرت بإعياء يخدرها، ثلاث طرقات رفيقة على الباب ثم أطلّ وجه سارة الباسم :

- صباح الخير يا كسولة..أم أقول مساء الخير؟

ردت إلهام التحية بابتسامة خفيفة فأكملت سارة قائلة :

- كيف حالك الآن ؟

- بخير..

ألقت إلهام نظرة على المعطف وأخرى على الثوب الذي ترتديه ثم قالت :

- سارة !.. أنا لا أعلم كيف لي أن أشكرك.

قطبت سارة جبينها وهي تقول بنبرة مازحة :

- سأفترض أنني لم أسمع جملتك الأخيرة يا مشاكسة ..والآن..؟

جلست سارة على طرف الفراش ثم أكملت :

- أريد أن أعرف ماذا حدث؟

مسحت إلهام بيدها على جبينها كأنما تمنح نفسها فرصة للتفكير قبل أن تقول:

- أبداً..كانت الليلة عاصفة؛ ولهذا، أحسبني مرضت قليلاً..

- تعلمين جيداً يا إلهام أنني لا أعني هذا، أنا أود معرفة ما الذي حدث تفصيلاً ؟

لاذت إلهام بالصمت فأكملت سارة :

- اتصلت بي وفاء ليلاً وسألتني عنك.

انتفضت إلهام واعتدلت جالسة وهي تقول في قلق واضح :

- وقلتِ لها أنني هنا ؟

أطرقت سارة وهي تجيب في هدوء :

- لا..مع أن شعور بالذنب حيال الرجاء في صوتها كاد يفتك بي، إلا أني وددت لو أكون جديرة بأمانة اختيارك إياي..ولي حدس لا يخطئ في أن مسيرتك الليلية تلك لا بد ناجمة عن شجار مع رفيقة سكنك..لكن..لماذا يا إلهام ؟..ما الذي استدعى هذا كله ؟

ترقرقت الدموع في عيني إلهام وجزّت على أسنانها بقوة حتى لا تستسلم لانهمار دموعها.

وبحركة مباغتة احتضنتها سارة بقوة واندفاع..هنا فقدت إلهام القدرة على التماسك أكثر وأطلقت لدموعها العنان.

كانت تفتقد هذا الحنان كثيراً، منذ زمن بعيد، منذ أن تعطشت طفولتها لقطرة دفء.

ولكن..في هذه اللحظات يتملكها خوف ما..خوف جعلها تتراجع وتُبعد سارة عنها ببطء..

تخاف أن تعتاد..أن تلتمس الصدق في احتضان ما قد يفاجئها الواقع أنه مجرد شفقة عادية ..مجرد فعل ليس له أن يصطبغ بما تنشد هي..إنّ أقسى ما بالألم ليس ما يسببه فينا من وجع..بل إن أقسى ما بالألم هو آثاره التي تمتد فتسرق منّا الأمان في لحظات الفرح.

- قولي يا صديقتي ما بك ..ربما يريحك قليلا لو أخبرتني.

كانت قد عاهدت نفسها ألا تركن إلى البوح..لكن الكلمات كانت تشعرها باختناق وتخرج دونما تفكير..

- أنا..وحيدة..وحيدة تماماً ولا أظنك قد تفهمين ما أعنيه بالوحدة..أنا وحيدة الوجع والألم..

- لكن..ما الذي قد يدفعك إلى قول هذا..بإمكانك أن تسافري لعائلتك بعد استقرار أمور العمل هنا..ثم ..نحن معك، وفاء وأنا وكل زملائنا يحبونك والجميع حولك..لماذا قد تذهب بك الظنون إلى أنك وحيدة؟

- ليست ظنون..ليست هكذا على الاطلاق، الوحدة في معناها لا تعني وجود أشخاص من حولك؛ إنما تعني غربة الروح..روح فقدتها في مكان ما ولا زلت تبحث عنها..لا زلت تطرق كل قلب وتلتمس أي نظرة حانية، ولا زلت ضائع في خضم التسول العاطفي... ومع ذلك..تشعر أن بك قوة لا توازيها قوة في المنح والعطاء..لكن متى؟ ولمن ؟ لا تستطيع أن تدرك هذا.

الوحدة يا صديقتي هي حين تعبر كل العقبات وتتحدي الظروف لتسير بدرب الأحلام التي طالما تمنيتها وتصل، تصل إلى حلم انتظرته طويلاً.. وفجأة ..تنظر من حولك..تبحث عن كائن من كان يشاركك فرحة نجاحك، فلا تجد..وكأنما قضيت سباقاً للعدو تجري وتجري ولا تلتفت وراءك، وعندما عبرت الحاجز لم تجد من يصفق لك، لم تجد من يتوجك، قولي لي ما قيمة النجاح وقتها، ذلك الكأس الذي ربحته سيغدو بنظرك رمزاً لوحدتك الأبدية..

كانت إلهام تتحدث دون توقف وكأنما تقرأ من كتاب مفتوح... ورغم ذلك..لم تتوقع من سارة أن تفهمها وهي الفتاة المدللة، إلا أنها لمحت على خديها دموع صامتة فقالت :

- أتبكين..؟! أنا آسفة حقاً..ما قصدت أن أثقلك بهمومي.

- أنا لا أعرف ما الذي حدث؟..لا أعرف سوى أن كلماتك قد لامستني..أشعر بما بك..أشعر به رغم أني لا أحدد ماهيته.. ربما لا يجوز لي أن أثير شجونك أكثر لكن هل كل هذا بسبب خلاف ما مع وفاء؟

ابتسمت إلهام وكأنما أدركت للتو أن كلماتها لم تكن مفهومة بالنسبة لسارة أو ربما لم تكن مفهومة للبشر أجمعين..يسألك أحدهم ما بك..فتفصح أنت عن طيات ذاتك دون أن تفطن إلى أن حديثك لا يعيه إلا أنت، وأن الإجابة التي يريدونها هي سرد حدث أخير أثار أحزانك - في نظرهم -

***

لم تدر إلهام كيف انطلق لسانها..

لا تدري هل شعرت بقليل من الندم..أو بكثير منه، لا تدري حقاً..

نهضت أخيراً وهي تقول:

- سارة..يؤسفني أن أخبرك أنه عليّ المغادرة الآن.

- الآن؟ كيف؟ أترحلين هكذا؟ ثم أنك لا زلت مرهقة ..ثم..لا يمكنني بأية حال أن أتركك تذهبين..

- أرجوكِ لا داع للجدال بشأن المغادرة..أنا بخير وسأتدبر أمري..وكل ما أناشدك إياه بحق ما جمعنا من صداقة لا تخبري أحداً يعرفني بشأن ما جرى بيننا هنا..يجب أن أحصل على وعد منك بهذا.

- صديقتي..لكن..لا يجب أن أتركك هكذا..

قاطعتها إلهام قائلة :

- عديني الآن.

أطرقت سارة برهة ثم قالت :

- أعدك

ابتسمت إلهام قائلة :

- الآن سأبدل ثيابي.

وقبل أن تتم جملتها تناهي إلى سمعهما صوت جرس الباب.

نهضت سارة على الفور وهي تقول :

- سأرى من بالباب، لن تغادري قبل أن نتعانق على الأقل..أليس كذلك؟

- بانتظارك.

وما كادت سارة تخرج من الغرفة حتى أغلقت إلهام الباب وبدأت تنضو الثوب عن جسدها وتتناول معطفها، وما كادت تفعل هذا حتى تسمرت مكانها إذ سمعت صوت وفاء تتحدث في الخارج ولا يفصلها عنها سوى باب الغرفة الموصد.

كان صوت وفاء يزداد ارتفاعه وهي تقول :

- سارة..إن كانت إلهام هنا فيجب أن تخبريني.. أنت لا تدرين ما حدث ولا ما أنا بصدده.

جاء جواب سارة متلعثماً:

- ولماذا لا أخبرك إن كانت هنا حقاً.. ثم لماذا يجب أن تكون إلهام هنا؟

لم تكن وفاء تحمل دليلاً واحداً سوى حدس قليها فسارة لم ترد على اتصالاتها إلا بعد لأي..وإجاباتها مختصرة مترددة..ثم أنها لا تبدو قلقة على إلهام..

كانت إلهام تستمع إلى هذا كله دامعة العينين، أسرعت ترتدي معطفها، وقد تجاهلت حديثهما بالخارج، غادرت الحجرة إلى الحمام الملحق بها.. فتحت بابه..من حسن الطالع أنه يحوى بابين واحداً يقود إلى الغرفة الحالية والآخر إلى حجرة الاستقبال، ثم تذكرت شيئاً..عادت إلى الحجرة مجدداً وظلت تبحث عنه في عصبية لم تستطع السيطرة عليها، اللوحة ليست هنا..

- تباً.

ذهبت إلى الحمام على مضض..ووقفت تنتظر.

وصل إليها صوت وفاء عالياً وهي تقول :

- اللوحة هذه تخصها.

كانت وفاء قد لمحت اللوحة التي ارتكزت على الأريكة الجانبية، و شعرت سارة كأنما قد سُكب عليها ماء بارد..

رمقتها وفاء بنظرة نارية قبل أن تسرع إلى باب الغرفة تحاول فتحه دون أن تنتظر إذناً من صاحبة المكان.

فتحت وفاء الباب، وفي لحظة كانت تتوسط الغرفة بعد أن تبعتها سارة ووقفت في ذهول..لم يكن هناك أحد.

وفي لمح البصر غادرت إلهام الحمام من الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال، التقطت لوحتها في طرفة عين ثم فتحت باب الشقة برفق وخرجت، أسعفتها فكرة جعلتها قررت أن تصعد طابقاً آخر لأعلى بدلاً من أن تهبط ... كانت تعرف أنهن ستكتشفا رحيلها سريعاً وبإمكانهن اللحاق بها..وبالفعل..لحظات وسمعت خطواتهن بالخارج..انفعال وفاء كان يؤلمها..كانت تود لو أنها خرجت من مخبئها، واحتضنت صديقتها، وانتهى كل هذا العبث..وفي هذه اللحظة بالذات..لو سألت نفسها مبرراً لأفعالها ما حظت بجواب ذي بال..

دقائق وعادت سارة لشقتها كاسفة البال وما إن أغلقت الباب خلفها حتى هبطت إلهام ببطء

خرجت من البناية إلى الشارع الرئيس..استنشقت ملء رئتيها هواء..كان الجو لطيفاً وشعرت هي بقليل من الراحة..

***

عادت وفاء إلى سيارتها في خيبة أمل ثم قبل أن تبدأ بالقيادة جاءها اتصال من حسام

أدارت محرك السيارة قبل أن تجيب ببطء:

_نعم .. دقائق وأعود لا تقلق..ثمة أمور سوف أشرحها حالما أراك..قلت سأعود..لماذا تتحدث بهذه العصبية مجدداً، دقائق لا أكثر.

صمتت فجأة وقد فغرت فاها..

حتى أنها لم تتمالك أعصابها لتمنع سقوط الهاتف من يدها..

الفصل الرابع عشر

سارت حتى كلت قدماها..كانت تجوب الشوارع بلا هدف ولا غاية..كانت تقصد أكثر الأماكن ازدحاماً..ربما هو الشعور بالرغبة في التلاشي وسط آلاف الأجساد، أو لعله هروباً من الذات..فهي حتى هذه اللحظة لم تعقد أية مواجهة مع النفس..وما أحوجها إلى هذا..

قررت في نهاية الأمر أن ينتهي بها المطاف عند عيادتها الخاصة..كانت قد نجحت أن تذهب إليها ليلة أمس لأنها أدركت أنه المكان الأول الذي قصدته وفاء للبحث عنها..أما الآن.. فلا أحد يعتقد أنها ستكون هنا، صعدت بضعة سلالم لأعلى وهي تتجنب النظر إلى اللافتة التي تحمل اسمها..من حسن الحظ أنها لا تزال تحتفظ بمفاتيحها..دخلت الغرفة الخاصة بالجلسات، كانت عبارة عن غرفة متوسطة الاتساع بها مكتبة تحوي عدة أرفف مكتظة بالدفاتر، وفي منتصف الغرفة تقريباً امتد كرسي أشبه بسرير صغير ويقابله كرسي خاص بها وطاولة صغيرة تحمل جهاز تسجيل حديث..

أغلقت باب الغرفة بالمفتاح وزادت في حيطتها، فتركت المفتاح بالباب، فقد كانت تعلم أن وفاء تمتلك نسخة منه.

وقفت لحظة..تأملت كل هذا وشعرت أنه الوقت المناسب كي تنزع قناع الصلابة وتواجه ذاتها

وبحركة لا إرادية نزعت معطفها وتمددت على كرسي الاعتراف - كما بدا في نظرها -

مارست تمارين الاسترخاء وحاولت تصفية ذهنها قدر استطاعتها.. أغمضت عينيها وبدت كأنما تتحدث إلى شخص آخر بالغرفة :

- إلهام !..هذا اسمي..أبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، وأعمل كطبيبة نفسية..أحب عملي إلى حد كبير.كان حلماً لي منذ الطفولة..

توقفت عن السرد لبرهة ثم أكملت :

- كل ما بالأمر أني أمر بحالة نفسية سيئة منذ فترة، حالة ربما لا أفهمها..ثمة شيء بداخلي يتحطم، وكلما هربت يتراكم هذا الحطام ويتزايد دويه..أوه لا..دعنا من هذه المصطلحات..أريد وضوحاً ..وضوحاً ينتشلني من كل هذا الضباب.. حسناً..من جديد.

هذه أنا، عبرت طفولة صعبة، مشوهة المعالم، نما جسدي بين بيئة قاسية، وبقيت روحي طفلة تحتاج أن تنمو بالحنان..

بدأ ذلك في اليوم الذي اعترفت لي أمي بما اقترفته هي في حقي.

ذاك الرجل الذي كنت أحيا تحت سقفه ليس بأبي..وأنها انفصلت عن أبي قبل ولادتي، وسلبتني مع ذاك الانفصال حقيقة انتمائي. والأسوأ من هذا أنها حين أنجبتني آمن الجميع -عدا زوجها بالطبع- أنني أحيا في كنف أبي الحقيقي وأنني حملت اسمه للأبد .."إلهام السويفي"

..أخفت عن العالم هذه الحقيقة، وصرت أحمل اسم أب غير أبي، أو رجلاً غير أبي، هو جرم -في نظري- لا يُغتفَر؛ هي تؤكد أنها اكتشفت حملها بعد أن رحل أبي عنها..وأنا لا أصدق..أما ما الذي تقصده برحيله فهو ما لا أعرفه حتى الآن..لا أدري هل حملت حياتهما خلافات أدت إلى انفصال أم ماذا؟..وهي بدورها تصر إصراراً تاماً على إخفاء كل ما يتعلق بأبي ..وكأنما تتنصل من ماض لا تحب الإقرار به كجزء من حياتها..كل ما استطعت الحصول عليه من مقتنيات أبي هو تلك اللوحة التي لا زلت أحتفظ بها، ثارت أمي وقت أن وجدتها معي بعد أن عثرت عليها صدفة في العلية بين المهملات..اعترفت هي أثناء غضبها أنها تخص أبي..

لوحة واحدة هي كل ما أعرفه عن والدي..حاولت مراراً أن أجعل تلك اللوحة تنطق، وبالفعل؛ كانت تخبرني أثناء تأملاتي أن أبي لم يكن ظالماً ولا قاسياً..بل كان، كان مرهف الحس..وغالبا وحيداً..مثلي.

الصدمة الناجمة عن اعتراف أمي بأني أنتمي لأب غير الذي أعيش تحت سقفه لم تكن سهلة في بداية الأمر..لكنها منحتني شيئاً من راحة..وفيمَ

الاستغراب؟ وقد قضيت سنواتي في كنف رجل عانيت من قسوته أشد المعاناة، وهذا ما دفعني أن يرتسم طموحي في حدود الطب النفسي، وددت لو أخف عن كل متعب، وأتقاسم تعبه معه..أو ربما لأني قد ذقت مرارة معاناة؛ وددت لو أجد بين الناس من يفهمها..ولن يفهمها سوى من مر بمثلها..

بدأت حياتي في الاستقرار قليلاً منذ أن سافرت لأتمم دراستي، وأبدأ مزاولة عملي. تعرفت إلى وفاء وتوطدت صداقتنا رغم أني لم أكن اجتماعية إلى حد ما..كفتني وفاء عن العالم أجمع، خصوصاً بعد أن انقطعت عني أخبار والدتي وزوجها وانقطع مع تلك الأخبار ما كانت تبعث به من مال أثناء دراستي، تناسيت مع وفاء سنوات تعبي وقررت أن أسعد بحلم حققته..كنت أذرف أمام تلك اللوحة دموع الألم أو الفرحة..أبكي حد اشتياقي..أشتاق لطفولة لم أحياها..أود لو أعيدها بين ذراعيّ أبي..أن أشعر أن ثمة متكأ لظهري.

آه يا أبي..تركتني وحدي هنا..بين قسوة رجل ظللت لسنوات أناديه بكلمة تخصك وحدك، أناديه بأبي وأنا لم أسكن قلبه أبداً..أبذل له من الحب ما يقابله بجفاء كان يؤلمني، تركتني يا أبتي لأم أقصتني من اهتماماتها وسلبتني هويتي..أتعرف يا أبي أنني لن أسامحك أبداً..لن أسامحك لأنني وحيدة بهذه الدنيا..لأنني أحتاجك..أحتاجك فأنا أشعر بالبرد هنا..البرد والجوع..جائعة أنا ومتعطشة لقطرة من حنانك، أصبحت هشة لأنك لست معي، كلمة واحدة قد تكسرني..فلماذا يا أبي؟..لا..لن أسأل لماذا؟ لأنه لا سبب في نظري يبرر تركك إياي..حتى الموت يا أبي أنا لا أسامحك عليه..

كان الانفعال قد بلغ بها مبلغه وتهدج صوتها وسط دموعها وهي تقول :

- لا بل أسامحك..أسامحك يا أبي فلربما كنت مثلي..نعم، من يدري.. لربما كنت معذباً في هذه الحياة مثل ابنتك، لربما كنت وحيداً وأحسبك كذلك..لكن..صدقني كنت أحتاجك..

انهمرت دموعها بغزارة لكنها شعرت أن البوح يريحها.

- هكذا إذًا..بلا أساس..فكيف يزعم هؤلاء أن باستطاعتي العطاء!..باستطاعتي أن أبني أسرة! ..فيمَ جهدهم هذا كي أتزوج!..أنا ليس لديّ ما أعطيه لا لزوج ولا لأبناء فلمَ قد أفعل؟

أنا لا أكره سيف..بل أحبه..نعم أحبه كإنسان وكزميل..لكن هذا لا يعارض رفضي للزواج..ربما في الحقيقة أنا لا أرفض إلا نفسي كزوجة..

وما يدمي قلبي هو أن صديقتي الوحيدة قد أسرفت في قسوتها عليّ أخيراً..صمّت قلبها عما تراه في ملامحي، وتصرفت بواقعية مثلهم، واقعية أعلم تماماً أنها ترفضها في صميم ذاتها وقرارة نفسها..

ما دفعني للابتعاد هو رغبة الانفراد بذاتي..أو ربما وددت الهرب..لا أدري ممَ أهرب أو إلى أين وأنا التي لا مقر لها؟ فكل ما حولي هو مهرب، أو ربما ضاق صدري بما يحمل فكانت هي غصة البوح.

نطقت إلهام بجملتها الأخيرة عن البوح فكان لها وقع الخنجر على قلبها، نهضت عن مقعدها فجأة..كيف نسيت ذلك طوال تلك الأيام..رباه..أي ذنب قد اقترفته بإهمالها؟

ذكرتها هذه الكلمات بشيء ما..إنها تشعر به الآن كما لم تشعر به من قبل..كان بحاجة إلى مستمِع كما حاجتها الآن..وأختارها هي بعد عناء؛ اختارها لأنه أبصر فيها شيئاً من الإنسانية وها هي قد خذلته..ألم تكن قد وعدته بلقاء آخر..مؤكد أنه انتظرها هناك ليلة أخرى..إنها لم تذهب الى ذاك المكان حتى ومن ثم اكتشف أنها كسائر الناس قاسية، ولا تأبه له..شعرت بانقباض يعتصر قلبها ورغبة في أن تذهب فوراً إلى المكان الذي جمعهما من قبل..

تذهب وترجوه لو يغفر تقصيرها..وتسمعه..تسمعه، ويسمعها.

نعم، يسمعها فقد امتلكت القدرة على البوح الآن..كانت تدرك في قرارة نفسها أنها لا تملك البلاغة الكافية مثله لتصوغ عمراً من الفقد، لكنها

واثقة أنه أكثر من سيصغي إليها ويرتب لها أفكارها المضطربة..وحده من يستطيع أن يكشف لها عن ذاتها..ولو سألت نفسها عن سبب اعتقاداتها هذه..لقالت نفس إجابته أنها لا تدري تحديداً لمَ هو بالذات..ربما لأنه إنسان..ولكن، كيف تراها تصل إليه؟

عصفت بها الخواطر..كانت تحتاج أن تعيد ترتيب أفكارها، أن تعرف ما هي مقْدمة عليه خصوصاً فيما يتعلق بسيف..كم ترثي له..وتتمنى لو كان قد تعافى الآن..

كانت تريد أن تذهب حالاً وتطلب منهم أن يسامحوها على ما اقترفت من غياب..وما سببته من قلق..ثم سرعان ما ذهبت عنها تلك الفكرة ، هم لم يراعوها حين كانت بين ظهرانيهم.

تريد أن تحتضن وفاء وتلومها على هذا كله، وسيف..تود لو تعتذر له..لو تخبره أنها لا ترفضه ولا تكرهه؛ هي أحبتهم جميعاً..فقط هي ترفض نفسها..هي تتألم ولا ذنب لهم..وهي كذلك لا تريد أن تزرع ألمها في حياة أحدهم..تريد أن يبقى سيف بمنأى عن براثن ماضيها و قضبانه..لتتزوج وفاء وتسعد بحياتها..وليجد سيف لنفسه طريقاً غير طريقها..

شعرت أنها بحاجة إلى إعادة صياغة خواطرها..واتتها فكرة فشرعت بتنفيذها على الفور، التقطت جهاز التسجيل..أرادت أن تستمر بحديثها الداخلي لكن تسمعه مرة أخرى من مصدر آخر..ستقوم بتسجيل ما تبثه ومن ثم تستمع إليه في وقت لاحق..

ضغطت على زر التسجيل فلم يستجب الجهاز..

-هل تعطل أم ماذا؟

قالتها وهي تعيد الضغط على الأزرار في عصبية ثم خطر ببالها أن تستخدم الهاتف، وكانت قد تركته هنا مغلقاً منذ الأمس ..وتذكرت للتو أنها عادت تبحث عن مستنداتها بالأمس هنا، رباه كيف سهت عن هذا.

التقطت الهاتف وقامت بفتحه لتتفاجأ من عدد محاولات وفاء للاتصال بها ..

ثم تقرأ رسالة منها بتوقيت الثانية صباحاً

" لا أعلم إن كنتِ تعتقدين في أحقية أفعالك أم لا.. اعلمي أني افتقدتك بطريقة لن تجعلني أغفر لك غيابك هذا بسهولة ..أنا قلقة عليك حد الجنون..والدتك كذلك قلقة وتنتظرك..نعم، هي هنا منذ ساعات.. أرجوك يا إلهام دعك من هذه التصرفات الطائشة وارجعي إليّ..ارجعي إلى وفاء صديقتك التي تعلمين جيداً كم تحبك..وإن لم يكن لأجلي فلأجل والدتك.."

تسمرت إلهام مكانها..والدتها هنا ؟ ما الذي قد دعاها إلى زيارتها؟ كانت المفاجأة أكبر من توقعاتها، نهضت بلا تفكير وتناولت معطفها مُغادِرة.

الفصل الخامس عشر

مرت علها تلك الدقائق كساعات..وهي تجلس منفردة تتأمل سقف الغرفة الضيقة في عدم استيعاب..مرت بخاطرها تلك اللحظات ..

منذ صدمتها الأولى حين تسمرت أمام واجهة البناية..

كانت تتصور أن دقات قلبها مسموعة لدى العالم أجمع لفرط انفعالها وقتها..إذ راحت تفكر لماذا يا ترى قد حضرت والدتها إلى هنا..ما الذي قد جاء بها..كانت رأسها تضج بألف سؤال وسؤال..بماذا ستجيب وفاء عن غيابها وكيف تراها ستستقبلها..لكن كان عدداً غير قليل من رجال الأمن يحيطون المكان آنذاك..

وما لبث أن بات اندهاشها ملفتاً..اقتربت لتستقصي الأمر..مر كل شيء بعدها بسرعة غريبة.. سألها رجال الأمن عن هويتها وثبت أنها مطلوبة لتحقيق النيابة..

لا تعلم لماذا بدت صامدة حين علمت بمقتل "مدام سناء".. لم تبك..لم تفتح عينيها على اتساعهما حتى..وكأنما كان هذا الخبر قد استقر بنفسها منذ مدة ضبابية..

تحررت من أفكارها على صوت الباب يُفتح ببطء..

كانت أمها..وأغلق "العسكري" الباب..

شعرت بدوار يتملك جسدها واختنقت الدموع بعينيها..لم تشعر إلا وهي بين يدىّ أمها تحتضنها وتغمر شعرها ووجنتيها بالقبلات..كانت مستسلمة تماماً..الأحرف ثقيلة على لسانها، كان الحنين أقوى من قدرتها على الاحتمال..ارتمت بأحضان والدتها في صمت..الآلاف الذكريات تطوف بها، وهي على مرارتها تجتاحها بحنين غير مفهوم..لم يخرجها من هذه الحالة سوى صوت أمها.

-إلهام ..ماذا بك وأين كنتِ؟..كم أفتقدك يا ابنتي !

كان صوت والدتها به شيء من دفء غريب..هل حقاً افتقدتها كما تقول..! وإلا كيف ابتعدت عنها كل تلك المدة..

- أنا بخير، ماذا عنك؟..ثم ما هذا ؟

فطنت إلى ارتداء والدتها السواد وفهمت على الفور شيئاً ما أكدته ملامح والدتها، وهي تقول :

- نعم يا إلهام..أنا وحيدة الآن..ليس لي سواك يا ابنتي.

-لكن كيف؟..أقصد ..متى حدث هذا؟

-من أيام..سأقص عليكِ كل ما ترغبين، لكن قولي لي أولاً أين كنتِ وماذا بك؟..أمريضة أنتِ؟..أراك ترتجفين.

- لا..ليس بي شيء..كنت..فقط كنت أنهي أموراً تخص العمل..و..أين وفاء ؟هل علمت بما حدث؟

- صديقتك ذهبت مع خطيبها إلى المشفى..تقول أن زميلاً لهما هناك سيخرج اليوم..هي أصرت أن تبقى معي ولا تتركني، لكن رأيت أنه من الواجب أن أتركها تذهب..صديقتك هذه طيبة للغاية، لابد وأنك تستمتعين بحياة هانئة هنا..قالت ذلك وجالت ببصرها فيما حولها.. ثم اردفت :

_ لولا تلك الفاجعة الأخيرة .. يا إلهي!

صمتت إلهام إذ ليس لديها ما تؤيد به الاستمتاع بالحياة الهانئة التي تعنيها أمها..

زوج أمها قد توفى إذًا..لم تشعر بأي حزن أو شفقة حتى... و كانت تشعر -ولا تدري لماذا- أن سببا ما غير هذا هو الذي دفع والدتها إلى المجيء في هذا التوقيت..

تأملت أمها في سكون..كانت قد اتشحت بالسواد ورغم ذلك أفرطت في استخدام الأصباغ والمساحيق على وجهها.

- انخرطتِ في هذا المحيط ونسيتِ أمك بالطبع.

قالتها بنبرة عتاب غلب عليها الاصطناع، ها هي تتحدث عن النسيان هنا، كان قلب إلهام يخفق بشدة وهي تقول :

-لم أنس شيئا أبداً..إنما هي ضرورة الحياة.

- ضرورة الحياة تلهيك عن والدتك ؟

شعرت إلهام باشمئزاز لا حد له..كانت تمقت هذا التكلف، هل عليهما أن تتقنا أدوارهما كأم وأبنة.

- أمي ، هل هناك خطب ما دعاكِ إلى تذكري والمجيء إلى هنا؟

-إلهام !..يا للكِ من قاسية جلفة.. أهكذا تستقبلين أمك بعد كل هذا الغياب ؟..ثم هل نسيتك أنا حتى أتذكرك لأمر ما، لن أغفر لكِ هذه القسوة، أهناك ابنة تستقبل حضن أمها بأن تسألها لماذا أتت؟ أتيت لأجلك بالطبع.

ظلت إلهام شاخصة إلى اللاشيء دقيقة ثم قالت :

-أفتقدك.

كانت جملتها بمثابة انفجار لكل عواطفها المتداخلة المكبوتة..انفجرت باكية وارتمت بحضن والدتها التي قالت وهي تضمها:

- حبيبتي..لا بأس..دعكِ من كل الأفكار التي تجلب الدموع لعينيك..أما أنا..فلم يعد لي سواكِ..ليس لشيء في الكون أن يمنعنا من أن نحيا معاً.

تركت إلهام حضن أمها وتراجعت للخلف وهي تقول:

- ..ستأتين للعيش هنا!

كانت نبرة إلهام مختلجة ما بين الاندهاش والخوف الحذِر

- اسمعيني جيداً يا ابنتي، منذ شهرين تقريباً..نعم ..شهرين..لازم زوجي الفراش إثر داء عضال الآن أنا وحيدة كما ترين..كنت أدرك هذه النهاية منذ

أن تغلغل الداء في أنحاء جسده..وكنت أدرك أيضاً أن علينا..- أعني أنا وأنت- أن نجتمع سوياً وللأبد..نعم للأبد... فكرت فيما آلت إليه حياتنا..أنا الآن وحدي وربما لم يتبق لي من عمري مثلما ذهب منه لا تجزعي فهذا هو المصير الأخير لنا جميعاً، ثم ها أنتِ ذا.. فتاة في أوجّ شبابها ومع ذلك عازفة عن الحياة..مغتربة عن أهلك..لا ..ليس هذا من المنطق في شيء..إن المنطق كله يقر بأن نعود سوياً..

كانت إلهام تستمع إلى حديث والدتها باندهاش متزايد، لم تعتد منها هذه النبرة ولا هذا الاحتواء.

- لكن ..نعود إلى أين؟

- لن أتي لأعيش هنا بالطبع.

قالت ذلك في ازدراء واضح..ثم أكملت :

- خصوصاً بعد ما حدث..لا أستطيع أن أتصور أن ابنتي تحيا بوكر الجرائم ذاك..اسمعيني جيداً..إنني إنما أقول هذا لأجلك ليس إلا..أنتِ ناضجة الآن..ستسافرين معي وسنعيش سويا في بيتنا..أما العمل فلن يعرقل انتقالنا أبداً..لا أظن أنه ثمة ما يدعوكِ إلى البقاء هنا..حتى صديقتك سمعت منها أنها ستتزوج قريباً..ثم أنك أنتِ أيضا يجب أن تنظري قليلاً إلى مستقبلك.

كانت الأفكار تزدحم برأس إلهام فلا تمكنها من جلب جملة مفيدة لترد بها على والدتها، قبل أن تأتي إلى هنا كانت قد أوشكت على أن ترتب أفكارها وتستعيد ذاتها..أن تنظر حقاً إلى مستقبلها..كانت قد أوشكت أن تنهض لتنفض الغبار المتراكم على طريقها، أما الآن وقد أبصرت بأمها تشد يدها لتسلك طريقا مختلفاً..فإن هذا يبدو صعب.. صعب جداً..ومع ذلك فإن الأصعب هو ترك أمها وحيدة بعد أن طلبتها إلى جوارها..مهما يكن..

- لكن..قالتها إلهام بتردد فقاطعتها والدتها قائلة :

- أعلم أن الأمر قد يبدو صعباً حين تتركين حياة اعتدتِ عليها لسنوات..لكن فكري بي.. أنا لم أتقبل العزاء حتى الآن..

أجفلت إلهام فجأة وهي تقول :

- حقاً!..لكن لماذا؟..

ثم فكرت ملياً..كيف لم تستوعب الأمر من بدايته..لهذا جاءت والدتها إذاً..ليس لأجلها إنما لسبب آخر.

قطع صوت والدتها حبل أفكارها وهي تجيب :

- كيف تراني أتقبل العزاء دون تواجدك إلى جواري ؟

هكذا إذًا ..ليس ثمة افتقاد أو رغبة في الحياة معاً..إنما هو استدعاء لتكمل دوراً يجب أن تتصنعه في كونها ابنة لذاك الرجل المتوفى ولا بد أن تتقبل العزاء فيه.

- لن أذهب..

كانت جملتها هادئة وحاسمة بآن واحد.

- ما معنى هذا يا إلهام ..أتتركينني وحدي؟

- لست أنا مَن تركك يا أماه..لست أنا إطلاقاً..أنا لم أترك أحداً قط..بل اسمحي لي أن أُذَكِرَكِ بشيء..وحدك تركتني حين كنت بأمَسّ الحاجة إليك..والآن أنا لا أنوي إطلاقاً أن أقابل احتياجك بجفاء.

- ماذا تسمين هذا إذاً؟

قالت ذلك في ازدراء واضح..ثم أكملت:

-خصوصاً بعد ما حدث..لا أستطيع أن أتصور أن ابنتي تحيا بوكر الجرائم ذاك..اسمعيني جيداً..إنني إنما أقول هذا لأجلك ليس إلا..أنتِ ناضجة الآن، ستسافرين معي وسنعيش سوياً في بيتنا.. أما العمل فلن يعرقل انتقالنا أبداً..لا أظن أنه ثمة ما يدعوكِ إلى البقاء هنا..حتى

صديقتك سمعت منها أنها ستتزوج قريباً..ثم أنك أنتِ أيضاً يجب أن تنظري قليلاً إلى مستقبلك.

كانت الأفكار تزدحم برأس إلهام فلا تمكنها من جلب جملة مفيدة لترد بها على والدتها، قبل أن تأتي إلى هنا كانت قد أوشكت على أن ترتب أفكارها وتستعيد ذاتها..أن تنظر حقا إلى مستقبلها، كانت قد أوشكت أن تنهض لتنفض الغبار المتراكم على طريقها ، أما الآن وقد أبصرت بأمها تشد يدها لتسلك طريقا مختلفاً..فإن هذا يبدو صعباً.. صعباً جداً..ومع ذلك فإن الأصعب هو ترك أمها وحيدة بعد أن طلبتها إلى جوارها..مهما يكن..

:لكن..قالتها إلهام بتردد فقاطعتها والدتها قائلة -

-أعلم أن الأمر قد يبدو صعباً حين تتركين حياة اعتدتِ عليها لسنوات..لكن فكري بي..أنا لم أتقبل العزاء حتى الآن..

أجفلت إلهام فجأة وهي تقول:

حقا!..لكن لماذا؟..-

ثم فكرت ملياً..كيف لم تستوعب الأمر من بدايته..لهذا جاءت والدتها إذاً..ليس لأجلها إنما لسبب آخر.

قطع صوت والدتها حبل أفكارها وهي تجيب:

-كيف تراني أتقبل العزاء دون تواجدك إلى جواري؟

هكذا إذًا ..ليس ثمة افتقاد أو رغبة في الحياة معاً..إنما هو استدعاء لتكمل دوراً يجب أن تتصنعه في كونها ابنة لذاك الرجل المتوفي ولا بد أن تتقبل العزاء فيه.

لن أذهب.-

كانت جملتها هادئة وحاسمة بآن واحد.

-ما معنى هذا يا إلهام ..أتتركينني وحدي؟

-لست أنا مَن تركك يا أماه..لست أنا اطلاقاً..أنا لم أترك أحداً قط..بل اسمحي لي أن أُذَكِرَكِ بشيء..وحدك تركتني حين كنت بأمَسّ الحاجة إليك..والآن أنا لا أنوي إطلاقا أن أقابل احتياجك بجفاء.

ماذا تسمين هذا إذا؟-

-أسميه رغبة في أستعيد ذاتي ما تبقى لي من عمر..أسميه أنه لا طاقة لي أن أتقمص دوراً لن أجيده..لست ابنته وليس لي أن أتقبل العزاء به..الآن لا أهتم بما سيقول أقارب زوجك..لم يهتم أحد بي طوال حياتي فلمَ قد أفعل؟

الآن أنا أشق طريقي بصعوبة وليس بوسعي أن أعود..اسمعي..أنت أخطأت حين قصدتني..أنا لا أملك من القوة ما يتيح لي أن أبدأ حياة جديدة.. صدقيني..التي أمامك هي حطام إنسانة ..لا..لا أستطيع ولن أذهب معك.

إلهام !..لم أتوقع أبداً أن تعاملي أمك بهذا الجفاء..الآن أدركت أنه لا ابنة لي-

الآن فقط..هه..أما أنا فأدرك ذلك منذ وقت طويل..من يومٍ لم ولن أنساه ما حييت

هكذا إذًا..لا زال أمر نسبك ذاك هو ما يحرك هذه الضغينة فيكِ-

سوى التعاسة الأبدية إنه لا يحرك بي-

. أهذا هو جزائي؟..جزاء خوفي على اسمكِ وحرصي على مستقبلك -

-وأي خوف هذا؟..ما الذي قد يدعو امرأة في هذا العالم أن تنسب ابنتها لغير أبيها وتُفقِدها حقيقة نسبها إلى الأبد..ما الذي قد يدفعك إلى هذا؟..وكلما بادرتك بالسؤال تعرضين عني وتخفين كل شيء..أنا ابنة من حقها أن تعرف من هو أبوها..من يكون ولماذا حرمتِني من اسمه؟ لأعيش سنواتي في كنف رجل لا يدري عن حنان الأبوة شيء..

لم تشعر إلهام إلا وهي تتلقي من والدتها صفعة قوية قطعت حديثها على إثرها.

ظلت تنظر إلى أمها في حزن عميق دون أن تأبه للألم الذي لحق بها، وبدا على الأخيرة ندمها على ما اقترفت فتقدمت خطوة أخرى نحو ابنتها بنِية أن تصلح ما فعلته للتو..وإذ بإلهام تتجه صوب الباب متجاهلة نداءاتها..وما أن قامت بفتحه حتى فوجئت بالعسكري أمامها يستدعيها.

الفصل السادس عشر

From:SalmaSalah111@gmail.com

To:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

Data:6December

Subject:

ربما لم أفلح بالقسوة..أعترف..

كم وددت لو أستقر على شيء..حتى وإن كان سيئاً...

لكن لا يحالفني سوى الاضطراب..

كثيراً ما رغبت أن أكون عادية..أن أنسى كل شيء..وأحيا بقلب جديد غير متهتك .. لكني لا أؤمن كثيراً بالنسيان..

هل يغمرني الاستسلام الآن؟..

لا أعرف...

كل ما أعرفه أني أقاوم كثيراً..وأني منهكة.. وأني لا أريد _بأي حال من الأحوال_ أن أستسلم للتيار..

أود لو أرتكز على شيء ثابت

إذ أن كل ما حولي يدور..ويدور بي رغماً..

أخبريني ما الذي تعتقدينه بي؟

كيف أبدو للعالم ؟

هل تبدو نظرتي مبالغة بعض الشيء؟

كيف تراكِ تنظرين لكلماتي؟..

يا لهول ما يجتاحني من أسى حين أتخيل وقع أنظار عابرة على كلمات كتبتها بوجعي

لكني لا زلت أعتقد أن خطوي فريد من نوعه..وأنه لا أحد ليشعر بي

الشد كثير بداخلي...

ولا أعلم لأي درب سيكون المصير..

كنت قد قررت القسوة..وكنت قد قررت الابتعاد..

حاولت...

لكني لم أجد في روحي ما يعينني على أن أنحو هذا النحو..

خُلِقت هكذا..وتعهدتني الحياة بما يجعلني أحنو -للأسف-_

كم أحسدهم...

هؤلاء الذين يبدعون في سلك طريق واحد...

إذ أني لا زلت أرمق عدة طرق وأراقب أجزائي وهي تتوزع....

ما بين سطوة الماضي ..وضياع اللحظة..وضبابية الغد...

بالأمس كنت قوية...

كنت أتحدث عن القسوة والابتعاد...

كنت أمتلك قدرة التخلي عن كل شيء..ولا أحسب أن ثمة أقوى من هذا

الآن أنا ضعيفة إذ فقدت تلك القدرة ورحت أناشد بصيص ضوء لا أعرف مصدره ولاأعرف من نفسي سوى اتخاذها لدرب العودة والمحاولة.. وبئس الضعف هذا..

ربما كنتِ محقة حين تحدثتِ عن أمر الشعلة المقدسة..

تلك التي لا تدع لنا مناصاً من النهوض مجدداً..

لكن ربما كان الأجدر لو أسميتها "الشعلة اللعينة"..إذ أنها تتغذى على ما فينا دون أن تحوله لرماد حتى...

دون أن تمنحه حق السكون _ولو كان سكون الاستسلام. _

الفصل السابع عشر

كانت مفاجأة لإلهام؛ إذ أن وكيل النائب العام كان "جلال الأمين".. صديق سيف الذي طالما جمعتهما اللقاءات..

ما إن رفع وجهه ليبصر إلهام حتى هب من مقعده مصافحاً إياها ما بين الدهشة والاستنكار ثم دعاها للجلوس مستهلاً حديثه:

-أهلا بالطبيبة الغالية..يؤسفني أن نجتمع بظروف كهذه، كيف حالك وكيف هو سيف؟ من مدة لم أحدثه..

انقبض قلبها إثر سؤاله الأخير قبل أن تجيبه قائلة في تؤدة:

-بخير، في الحقيقة كان قد تعرض مؤخراً لحادث بسيط، لكنه بخير

لا تدري لماذا بدت صريحة هكذا..أكملت:

يؤسفني أنا أيضاً وجودنا بظروف كهذه..لكن من حقك-

قاطعها قبل أن تكمل:

-هل سيف بخير حقاً؟

نعم، بخير لم يصبه سوى كسر بالساعد..-

.-عذراً على المقاطعة

لا عليك..يمكنك بدء إجراءات التحقيق دون تحفظ.-

ابتسم وهو يناولها ورقة بيضاء قائلاً:

تفضلي بكتابة بياناتك هنا..-

فعلت ما أملاه عليها ولكنها توقفت عند كتابة العنوان لحظة يسيرة.. قائلة:

_قد أتواجد بمكان آخر لدى زميلة لي _مؤقتاً_

فأشار إليها بترك عنوان صديقتها..ثم قال وهو يستند إلى مكتبه في جدية طارئة:

-علمتِ بمقتل السيدة سناء عبد الظاهر سالم..صحيح ؟

-نعم.

قالتها بخفوت وعلامات اللامبالاة ترتسم على وجهها بغرابة

أكمل هو

-متى؟

-عندما أتيت إلى المسكن..منذ ساعة تقريباً.

-متى آخر مرة رأيت بها المجني عليها؟

ترددت إلهام قليلاً قبل أن تجيب

-بالأمس.

-متى تحديداً؟

-لا أذكر تحديداً..اتصل بي حسام "خطيب وفاء" ليخبرنا بوجوده مع سيف! بالمشفى..وعندما عدت إلى المسكن لا أذكر هل شاهدت السيدة أم لا..

ألم تشاهدي أحدهم إطلاقاً؟

صمتت برهة ثم قالت

- ربما شاهدت سعيد..لكنها رؤية عابرة، لم يجمعنا حديث ما.

-ومتى غادرتِ المسكن تحديداً؟

-أحسب أنها كانت التاسعة تقريباً، لم أنتبه للوقت.

-وأين قضيت ليلتك؟

..عند صديقة لي..تركت عنوانها هنا-

قالت جملتها الأخيرة مشيرة إلى الورقة التي أعطاها إياها منذ قليل، فهز رأسه برفق ثم أكمل

-ما مدى علاقتك بالمجني عليها؟

.في الحقيقة لم يجمعنا الشيء الكثير-

ما رأيك الخاص بها؟ هل لها أعداء ما ؟ أو من واقع مهنتك..هل ترتابين بأحدهم؟-

-كانت سيدة ساذجة لا أظن أن لها أعداء..ولا يحملني شعور ما على الارتياب بأحدهم..سوى أني..لكن لا، هذا أمر معتاد..لا يمكن..

-ما الذي تعنينه؟ إن أبسط النقاط قد تضيء الطريق فلا تبخلي بها..دعي لنا تقرير إن كان هذا ممكناً أم لا..

-جملة عابرة علقت بذهني..كانت السيدة تتشاجر منذ يومين مع "الحاج إسماعيل" الساكن بنفس المنطقة..هم دائمو المشادات الكلامية، لكني ألمح في قلوبهم ودًا لا ينضب..الجملة فقط أثارت اهتمامي: " ليكن..لكنها الأخيرة لو تعلمين"."

-حسناً يا دكتورة..بإمكانك الانصراف..وقد يكون هناك استدعاء آخر..لكن فضلًا قومي بالتوقيع هنا.

وقعت أسفل أقوالها ثم ودعته وانصرفت تتنازعها الأفكار.

مرت دقائق قبل أن تدخل والدة إلهام في خطوات بطيئة، وما إن استقرت في مقعدها حتى بادر جلال قائلاً:

تعلمين أن جريمة قتل قد حدثت!-

أومأت هي في أسى فأكمل:

.وتعلمين أيضًا أنها مؤجرة المسكن الذي تقيم به ابنتك-

اومأت مرة أخرى في صمت. فقال

أين كنتِ ليلة الأمس بداية من التاسعة؟-

.لم أبارح مسكني..أنا لا أعرف المناطق جيداً هنا

رأيت المجني عليها صحيح؟-

.يا إلهي!..نعم..كان لقاء عابراً..-

.أريد تفصيلاً لما حدث..-

-ذهبت بعد استطلاع لعنوان إلهام..وأخبرتني فتاة شابة أنها غير موجودة ..ولما سمعتنا السيدة واستفسرت مني عن الأمر، أخبرتها اني آتية من أجل إلهام.. وتركت لها ورقة بعنواني هنا قبل أن انصرف..

-وما انطباعك عنها؟

-سيدي..إن لقاء واحداً غير كافٍ لأجيب عن سؤالك، لكنها عاملتني بلطف على أية حال.

-حسناً سيدتي.. ليس لديّ أسئلة أخرى بالوقت الراهن.. بإمكانك الانصراف بعد ترك بياناتك والتوقيع هنا..

ما إن أغلقت الباب حتى أمر جلال بدخول وفاء وما هي إلا دقائق حتى كانت تجلس أمامه

وما أن تركت بياناتها حتى بادرت قائلة

. لم أتوقع أن يحدث أمر مثل هذا.. مدام سناء لا تستحق هذا إطلاقاً.. -

-ما آخر مرة جمعتك بها؟

شردت وفاء قليلاً ثم قالت:

-أمس.. في العاشرة مساء تقريباً أو قبل العاشرة بقليل..أعطتني العنوان الذي تركته والدة إلهام..وليس ثمة شيء آخر..

فقط ؟-

-كنت في عجلة من أمري.. وكنت قد تركت حسام بالمشفى مع سيف..

-ومتى غادرتِ؟

-قضيت دقائق أتحدث إلى أمينة.. كنت أسألها عن إلهام .. وقد أخبرتني أنها غادرت.. ثم جاءني اتصال من حسام، بعدها هبطت للأسفل بعد أن ذهب بي الظن أن الورقة تخص عنواناً لإلهام ذهبت إليه.. فبادرت بسؤال نجاة الخادمة.

-ولماذا لم تسألي السيدة سناء نفسها؟

الحقيقة أني طرقت الباب..فأجابت نجاة وقالت فيما أذكر أن مدام سناء نائمة، وبدا أنها على علم بالأمر..فانصرفت.

-وأين كانت إلهام وقتها؟

ترددت وفاء قليلاً ثم أجابت

-عند صديقة لنا.

-إذاً قد رأيتِ المجني عليها بعد ذهاب إلهام؟

- .نعم

-هل سمعتِ شيئاً مريباً؟

-مثل ماذا؟

تبادلا النظرات للحظات ثم قالت

-لم يكن هناك ما يريب.

-حسناً..هل ترتابين في أحد؟

-مدام سناء لا يحمل أحد ضغينة ضدها فيما أرى.

-ليس ثمة شيء آخر.. بإمكانك الانصراف.

الفصل الثامن عشر

-ستكون بخير يا رجل، لا تقلق.

قالها حسام وهو يربت على كتف سيف الممدد على الفراش في حجرته، كانت يسراه مشدودة إلى عنقه بلفافة بيضاء.

رد سيف قائلاً:

-الحمد لله على كل حال، رغم أني سأضطر إلى ملازمة الفراش لأيام إلا أني أحمد الله أنني نجوت، وأشكرك من صميم قلبي..لا أدري ما كان عساي أفعل بدونك.

-لا تقل هذا.. .

سادت لحظة صمت لم يقطعها سوى طرقات خفيفة على باب الشقة وقال سيف في استغراب

-أنا لا أنتظر أحداً.

-ابق ساكناً، سأذهب لأرى من الطارق .

قالها حسام متجهاً إلى خارج الغرفة، ثم عاد تتقدمه إلهام وهي تقول موجهة حديثها إلى سيف

-حمداً لله على سلامتك.

هبّ سيف من مرقده مستوياً دون أن يرد فقالت إلهام

ابق كما أنت، فقط أتيت لأطمئن على سلامتك..رغم أني..أعلم أني . -تأخرت

رد سيف في هدوء

-لا..لا بأس..قالت وفاء أنك بقيتي طويلاً إلى جواري .

كان حسام يقاوم فضوله القاتل لمعرفة ما الذي حدث مع إلهام، ومتى عادت وهل قابلت وفاء أم لا..؟ كان يمنعه من تدفق هذا الشلال المليء بالأسئلة خوفه من رغبة إلهام بعدم الإفصاح خصوصاً أمام سيف الذي لا يعلم شيئاً عن الأمر، ربما سيكون من الأفضل له أن يهاتف وفاء.

-سأستأذن الآن..فأنا مرتبط بمواعيد و..سيف..اعتن بنفسك .

تردد قليلاً قبل أن يذهب فرمقته إلهام بنظرة مطمئِنة، وقد فهمت ما يدور بخلده، وكانت تدرك أنها لا يجب عليها التفوه بما يخص غيابها أو التحقيق حتى لا تثير قلقاً لن يفيد، أما سيف فودعه ثم انصرف بانتباهه كله إلى إلهام الجالسة على مقعد مقابلاً له، كانت قد ثبتت بصرها على السجادة أسفلها وهي تحاول جاهدة أن تجد صيغة مناسبة للاعتذار، وأخيراً تشجعت قائلة

- .سيف..أنا لا أعلم كيف أستهل حديثي معك، لكن ثمة ما ينبغي أن أقوله..

رد في اهتمام واضح.

-نحن أصدقاء رغم أي شيء..قولي ما يخطر لك دون تكلف .

صمتت قليلاً قبل أن تقول

-أنا..في الحقيقة كان يجب أو أقصد أنه عليّ أن أقدم اعتذاراً لك.. وأتمنى لو تقبله وإلا فلن أغفر لنفسي كوني السبب الرئيس فيما حدث لك.

بدا مندهشا بطريقة أثارت استغرابها هي تحديداً

لكن..أنا لا أفهم ما ترمين إليه علامَ الاعتذار؟.. وكيف تظنين أنك -السبب فيما حدث؟

اللقاء الأخير..ربما..ربما أسأت التصرف معك، ربما أثرت غضبك فكنت..أنا فقط أعتذر.-

ابتسم بحنان قائلاً

-تظنين أنك سبب في هذا الحادث ؟..أتظنين أن إثارة أعصابي وقتها هي ما أدت بي إلى هذا..لا لا..لن أقبل منك اعتذاراً ولن تعتذري لي..إن لي حياة مليئة بالعقبات..ليس من السهل استثارة أعصابي، أدرك هذه النظرات بعينيك الآن، هه..لا، لا أقول هذا لأجتث منك إحساسك بالذنب تجاهي..صدقاً أخبرتك أنك لست سبباً بهذا..فقط كنت.. لا داعي لهذا..أنا بخير الآن..وتسعدني رؤيتك.

كان في حديثه نبرة مختلفة..نبرة ليست مترددة كذي قبل..

-يسعدني كذلك أنك بخير.

أجالت عينيها بالغرفة التي تجمعهما ووقع بصرها على مكتبة متوسطة الحجم..وقفت لاإرادياً واتجهت إليها..ثم توقفت برهة وهي تقول

-هل لي أن ألقي نظرة ؟

أومأ إليها إيجاباً قائلاً

-بالطبع .

كانت المكتبة منسقة بعناية وتدل على ذوق رفيع في الاقتناء

-ما رأيك؟

قالها في هدوء ولم تنتبه إلى سؤاله، إذ كانت قد اندمجت في تصفح الكتب التي أثارت اهتمامها..كانت تعشق الأدب الفرنسي، وها قد عثرت على روائع ل"هوجو" وللطبيب الفيلسوف "فيكتور بوشيه"..

بإمكانكِ استعارة ما تحبين.-

قالها بصوت مرتفع هذه المرة فأجابته شاردة

-حقاً!

وقع بصرها على دفتر موضوع بعناية في منتصف المكتبة تماماً..التقطته وتصفحته سريعاً..كان يحوي نثراً ومقتطفات شعرية مكتوبة بخط اليد.

-أيمكنني استعارته؟

تردد قليلاً ثم أجاب

لكِ هذا..هي مقتطفات قمت بتجميعها أثناء القراءة وبه بعضاً من .
-مؤلفاتي المتواضعة

قالت وقد علت الدهشة وجهها

-مؤلفاتك!..تقصد كتبتها أنت؟

ابتسم قائلاً

-نعم، لكن لا تتوقعي أن تكون مؤلفات بالمعنى الذي تبادر إلى ذهنك، وإنما هي أحاسيس أترجمها على الورق عند انفعالاتي لكل منّا وسيلة للتسرية عن نفسه.

-ومع ذلك ليس لي وسيلة للتسرية عن نفسي

.كيف؟ أعني أنه ربما لا يفطن المرء لما قد يسري عنه، لكنه حتماً موجود-

-البوح بالنسبة ليس أمراً سهلاً.. لا أدري كيف أشرح لك، لكن ثمة عقبة لا أدري ماهيتها تعترض طريق الكلمات فتختنق في حلقي.

.ربما لم تجدِ من يفهمك بعد-

-هذا هو ما بالأمر..ربما..

تذكرت فجأة ذلك الشيخ الذي اعترض طريقها ليلة أن فقدت لوحتها..كيف أنه قضى حياته يبحث عن شخص يصلح لاستقبال ما سيبوح به، أخافتها فكرة البحث مدى الحياة فأضافت

-وربما لن أجده مطلقاً

.من قال هذا؟ ..إن الأمر يحتاج إلى بصيرة ليس إلا..ولا أحسبك تفتقدينها-

-وأنت؟

-أنا ماذا؟

-هل تمتلك تلك البصيرة ؟ هل تدرك لمن بإمكانك أن تفضي ما يعتمل بنفسك؟

-أعطيتكِ دفتر انسكبت به كل دواخلي..ألا تكون هذه إجابة كافية؟

كانت إشارته إلى اختياره إياها ببصيرته باعثاً على ترددها في النطق بعبارة اختلجت بلسانها قبل أن تقول:

-سيف..لمَ لا نتحدث بصراحة أكثر؟

الغريب أنه هو نفسه لم يشعر بالتردد أو انعدام الثقة الذي كان يجتاحه من قبل، ربما لأنه أصبح على حافة اليأس في مطلبه..ذلك النوع من اليأس الذي يمنحنا قوة اللامبالاة.

-وأنا لم أعتد إلا الصراحة..وإن كنتِ تعنين ذلك الأمر الذي أشرت أنا إليه في معظم لقاءاتنا السابقة فهو لن يشكل عقبة في طريق صداقتنا..أنا أعفيكِ من أية اعتذارات ومن أية ضغوط، إن رغبتي أنتِ فلا بأس..أما سوى ذلك فلن أتعرض لهذه النقطة بحديث آخر.

لا تدري هي لِمَ أزعجها حديثه..هل كانت تود لو عرض عليها الأمر مجدداً..لكن كلامه يحوي عرضاً لا زال قائماً متى ما رغبت..أو ربما هو الشعور الذي يداهمنا حين يكف عن ملاحقتنا من اعتدنا الهرب منهم.

سيف..أريدك أن تعلم جيداً أن سبب رفضي الوحيد هو أني لا
-أصلح..أما سوى ذلك فلا..

-لا أفهم قصدك..ما الذي تعنينه بكلمة "لا أصلح" ؟

-ربما لن تفهم من كلماتي ما يفيدك..كل ما أود قوله هو أن الخلل بي وليس بك..بصراحة أنا لا أود أن أكون سبباً سلبياً بحياة أحدهم، أنا إنسانة على عكس ما تبدو من الخارج، متوحدة، باردة تماماً لم أعرف للدفء معنى

بحياتي؛ إنسانة لا تقبل أن يزج بها أحد في حياته لتكون عبئاً، عبئاً ربما يثير الندم مستقبلاً.

قاطعها مستاء

-ما هذا الذي أسمعه؟ أي أمر قد دفع بكِ إلى قول هذا.. عبئاً!..وباردة !.. عمن تتحدثين؟..أنا لا أقبل أن تتفوهي بهذه الكلمات بحق ذاتك..أنتِ أعظم من هذا وأجِلّ..ثم مَن منّا له الحق في الحكم على ذاته أو أنه قد يصلح أم لا!..جميعنا قد نمر بفترات سيئة كالتي أحسب أنكِ بها الآن..لكن لا يجب أن تمتد لتطال الرؤية المصيرية..ولمن أتحدث أنا! لطبيبة نفسية تدرك كلماتي جيداً.. اسمعي ربما لا أدرك ما الذي ترمين إليه تحديداً، لكن عند أي نقطة يخال المرء أن بها نهايته..تكمن في طياتها بداية جديدة..بداية بها من الروعة ما يكفي ليمنحنا نفحة من الحياة.

- .عند أية بدايات تتحدث؟ نعم بإمكاننا أن نبدأ لكن هذا لو كنا نمتلك حقاً في الحياة

-وهل يوجد ما يسلب حقنا بالحياة ما دمنا على ظهرانيها؟

-بل يحدث أن تُسلب إياه..يحدث أن تُنتَزع منا ذواتنا فلا نملك القدرة على أن نخطو حتى لو أبصرنا البداية أمامنا تفتح ذراعيها تنتظر بضعة خطوات منا..من يُسلَب ذاته يا صديقي ليس بإمكانه أن يحيا ولا أن يحب.

- -بل بإمكانه..أتدرين لماذا؟ لأن الحب ليس نتيجة..إذ أنه لا يحتاج أسباباً يزول بزوالها..الحب يمنحنا الحياة في أوج عنفوانها..ولا أقصد حبك لشخص بالذات بل حبك لذاتك أنت..حب نفسك كما هي بكل انحناءاتها وتعرجاتها؛ بكل تعثراتها، تحبينها لأنك تدركين أن العواصف التي أطاحت بالأوراق هي بشير لقدوم الربيع ليس إلا..وأنها ما زادت الجذع إلا ثباتاً.

قالت في مرارة

-الجذع؟..ماذا لو كان هذا الجذع معدوم الأصل والنسب..معدوم الهوية..لا يدري بأي تربة يكمن موطنه..

-ومَن منّا أبصر حين أبصر موطنه تحت قدميه...،الأوطان ليست موضع أقدامنا ولا مسقط رؤوسنا..الأوطان هي شيء يسكننا قبل أن نسكنه... إن

المرء قد يحيا مغتراً ببلاده، وقد يجد العزاء في بقعة أخرى من الأرض..الأوطان نصنعها نحن..وفقط نحن..يصنع المرء وطنه حين يحب ذاته فيعمرها؛ لأنه يحبها حباً خالصاً من أي هوى.

--وهل تؤمن أنت بوجود ذلك الحب الخالص النقي من الأهواء..أما أنا فلا أؤمن به..إن كل حب يخفي وراءه مطمعاً ما..مطمعاً قد لا يكون ظاهراً للمحب نفسه..إنّ بني البشر لا يحبون حباً ملائكياً خالصاً، لا أدري هل الملائكة يحبون أم لا؟..

إذ لا مطامع عندهم..أما نحن؛ فالحب لدينا هو أكثر الأقنعة زيفاً..نعشق التملك، ألا فأخبرني وأني قد رأيت كل تلك الكتب المصطفة هناك..لمَ في أكثر الروايات رواجاً يجب أن نجد بين دفتيها قصة حب قوية ولا يغفل الكاتب عن التلميح إلى جمال البطلة وجاذبيتها..ترى هل لا يصلح للبطولة إلا الجميلات؟ هل سترى روايته صيتاً مماثلاً لو كانت أحداثها بلا أقنعة زائفة؟

صمت طويلاً قبل أن يقول

-ربما تكونين على صواب..لكن أحياناً نتعمد تجاهل الحقائق التي تخيفنا من أنفسنا حتى نتجاهلها ونمضي على اعتقاداتنا الساذجة، ومع هذا..أفضّل أن أظل على اعتقادي- ولو كان ساذجاً حتى- أنه بمقدوري أن أحب حباً نقياً خالصاً..

-أوافقك، رغم كل ما سمعته مني إلا أني أشعر أن بداخلي تتجمع طاقة حب تتسع للعالم كله..لكن لا أدري إلى أين مآلها..أخشى أن تخرج فتتلوث بزيف الواقع وآلامه.. لكني والحق يقال أتجاهل هذه الطاقة منذ مدة لأني أخشى أن تكون قد تشوهت.

-تشوهت! ماذا تعنين؟

قبل أن يأتي الرد من إلهام تناهى إلى سمعهما صوت جرس الباب يدق في تواصل مما جعل سيف يتنحى عن فراشه تلقائياً رغم إرهاقه وهو يقول لإلهام.

- . انتظري هنا

مرت بضع ثوان قبل أن تسمع إلهام صوت صديقتها وبلمح البصر فوجأت بها أمامها، كانت تدرك مدى غضب وفاء من تصرفاتها الأخيرة..

-وفاء!

قالتها إلهام وهي تتوقع في كل لحظة انفعالاً صاخباً من صديقتها، لكن كانت تحاول السيطرة على انفعالها قدر استطاعتها وهي تقول

-والدتك قالت أنها ستسافر غداً، تركت المنزل، وطلبت مني أن أبلغك بعنوانها هنا لو فكرتِ بالذهاب إليها قبل رحيلها.

قال سيف مشدوهاً

والدة إلهام هنا! منذ متى؟ لمَ لم تخبريني؟-

-لم أكن أعلم بقدومها الأمر كان مفاجئاً و..نسيت

قالت إلهام جملتها وأطرقت، فرد سيف في عبوس

- .لم يكن عليكِ تركها

قطعت وفاء حديثهما بقولها

- .أخبرتك رسالتها يا إلهام، والآن اسمحي لي أن أنصرف

تعجب سيف من لهجة وفاء الصارمة، ونقل بصره بين الاثنتين في استفهام صامت..

لم تدرك إلهام ما الذي يجب أن تتفوه به وهالها ما آل إليه حالهما، لكنها فجأة وبدون مقدمات احتضنت صديقتها بقوة وهي تتمتم في خفوت

-آسفة .

إنهار تصلب وفاء بلحظة، وبادلت صديقتها عناقاً صامتاً..كان المشهد كله مبهماً بالنسبة لسيف..وقبل أن يبدي أي استفسار استأذنته إلهام في الذهاب مع صديقتها واعدة إياه بزيارة أخرى.

الفصل التاسع عشر

كانت إلهام تجلس على المقعد الجانبي تراقب صديقتها وهي تقود السيارة في صمت ..كانتا قد أزمعتا على الذهاب إلى والدة إلهام تثنيانها عن فكرة السفر، أما إلهام فلم تكن تفكر بأمر والدتها البتة ،بل كانت تبحث عن كلمات تبدأ بها حوارا مع وفاء ..وأخيراً قالت :

- نحن صديقتان ..أليس كذلك؟

أجابتها وفاء دون أن تنظر إليها:

_أدرك جيداً أن الأصدقاء لا يخفون شيئاً عن بعضهم، أدرك جيداً أن الأصدقاء لا يرحلون هكذا دون أن يحسبوا حساباً لقلق أصدقائهم..ثم يعودون في صمت دون ذكر سبب.

- السبب تعلمينه جيداً يا وفاء، كنت وقتها مستاءة إلى أقصى درجة، وأنتِ..أنت لم تراعي هذا..تعلمين جيدا مكانتك بقلبي..ولهذا كان الوجع مضاعفاً.

- الوجع!..أنا لم أقصد..كنت أنهك وحسب..ومع هذا..آسفة.

- وفاء..أرجوكِ..تعلمين ما أنا به..أحسبك تعلمين..لا تحاسبيني على أية تصرفات هذه الأيام ولا تستفسري عما حدث إذ أني أنا أيضاً لا أجد له شرحاً ولا تفسيراً.

صمتت وفاء وأومأت برأسها إيماءة خفيفة، كانت إلهام تدرك أنها لا تزال غاضبة ولم يكن هناك متسع للحديث فقد قالت وفاء:

- ها قد وصلنا..هذه هي البناية .

هبطتا من السيارة وصعدتا إلى أعلى صامتتين..دقت وفاء على الجرس مرتين قبل أن يُفْتَح الباب ويطل وجه والدة إلهام في عبوس وهي تقول بلهجة جافة :

- ماذا هناك؟

أجابت وفاء بنبرة مرحة في محاولة لتلطيف الاستقبال الجاف :

- ألن تدعونا أمي للدخول؟

كان لصدى كلمة " أمي" وقعاً غريباً على سمع إلهام، ابتسمت والدتها قائلة :

- تفضلوا بالطبع.

جلس الثلاثة في صمت لدقائق قبل أن تبادر إلهام قائلة وهي توجه حديثها إلى والدتها :

- أتيت لأكمل حديثي معك..وخصوصاً ما تقدمين عليه من أمر السفر..وخصوصاً بهذه الظروف.

ثم صمتت لحظة قبل أن تشير إلى وفاء قائلة :

- وفاء ليست غريبة عني ..

أجابتها الوالدة باقتضاب:

- أي حديث هذا الذي تودين اكماله..ألم ترفضي طلبي..إذًا سأعود من حيث أتيت..ولا أظنك في حاجة لي بهذه الظروف أو غيرها.

- أنا لم أرفض طلبك..أنا أخبرتك أنني لا أستطيع..لا أملك تلك القدرة حتى أرفض أو أقبل ..

- إذًا لا داعي للجدال... سأسافر غداً ولن أزعجك مرة أخرى ..

- تزعجينني!..بأي حق تقولين هذا وأنا التي تفتقد أمها رغم أنها ما زالت على قيد الحياة .. وفاء لا تعلم سوى بما أعانيه من قسوة الماضي لكنها لا تعلم أنك حرمتني من اسم أبي للأبد..الآن سأتحدث دونما خوف أو تردد..لطالما قضيت سنواتي في خوف وتردد، لكن الآن لا، هذه أمي يا وفاء..أمي..رغم أن هذه الكلمة صارت جافة في حلقي..هذه أمي التي حرمتني

من اسم أبي وحتى شكله وتفاصيله..حرمتني من كل هذا لأعيش تحت سقف رجل آخر حملت اسمه..وحملت كذلك قسوته..فقدت ذاتي، وصرت حطام يتلاشى منذ أمد غير قريب..صرت ما ترينه أنتِ يا وفاء..أخبريها..أخبري أمي إن كانت تظنني أعيش في دعة وهدوء..أخبريها كم أعاني..قولي لها كيف أهرب من كل شيء..من مستقبلي ومن الناس ومن نفسي حتى..والآن ..الآن تطلب مني أن أذهب معها لأتقبل عزاء من يدعون أنه أبي..صدقاً لم تعد بي طاقة كي أتقن التمثيل.

كان انفعال إلهام قد ذهب بها إلى أقصى مذهب فانفجرت تبكي مغطية وجهها بكفيها، كانت والدتها صامتة مندهشة من كل هذا الانفعال المفاجئ من إلهام وهي التي اعتادت أن ترى فيها الاستكانة والهدوء.

أما وفاء فكانت تستمع لهذا كله في ذهول..

-الآن عرفت السر يا إلهام..عرفت السر يا صديقتي..عرفت سر تعلقك بلوحتك أو لوحة أبيكِ الحقيقي رغم ما كنت لألحظه من جفاء _ من كنت أعتقده أباكِ_ ..حتى بيوم ميلادك لم يتذكرك أحدهم..

كانت تشعر بأن قلبها يُدمي لأجل صديقتها..تلك التي أهملت في احتوائها ..ضمت رأس إلهام إليها برفق وهي تقول :

- إلهام..أرجوك... دموعك أغلى عندي من كل شيء .

فقطعت الوالدة هذا الهدوء بصوتها الذي ارتفع وهي تقول:

- أجل..لأن الدموع قد تخدع أحياناً..قد تظهرني أمامكما بمظهر الأم الظالمة القاسية..لكن يكفيني أن أعلم من أكون..أهذا جزائي من ابنتي؟..رباه..أي عوض عن سنواتي التي قضيتها من أجل إسعادك..تزوجت مرة أخرى حتى لا تعيشي دون أب يرعاك بحنانه..ومنحتك اسمه لأجنبك مآسي والآلام تصرين على إيقاظها من سباتها..ورغم ذلك أخبرتك بالحقيقة حين ظننت أنك كبرتي وستستوعبين تصرفي..واتضح لي العكس..تركتني

وسافرتي..والآن ..بعد كل هذه المدة..آتي إليك بنفسي وأطلب أن نحيا سوياً..لكني اكتشفت أنه لا ابنة لي..لا ابنة لي..

- كفى ..

قالتها إلهام بمرارة :

- أنا قد سئمت لعب الأدوار السخيف، أي حنان هذا الذي أردته لي..أنا آسفة لمخاطبتي إياكِ بلهجة كهذه..لكن أنا بحالة ضياع مميتة..

اقتربت منها والدتها في محاولة غريبة لاستخدام اللين:

- ابنتي..لندع ما مضى..ندع كل شيء ونبدأ من جديد..صفحة جديدة نقية..مهما نكن قد أخطأنا، بإمكاننا أن نبدأ؛ ستسافرين معي، سنكون معاً للأبد..سيكون مستقبلك أكثر إشراقاً، ثم أن هناك..هو أمر كنت أود لو أحدثك به حين تأتين معي..لكن ربما الأفضل لو أفصح عنه الآن، تعرفين أن لزوجي أخاً يعمل بالعقارات..أن له ابنا قمة في الوسامة ولطف المعشر..ثم أنه وحيد أبيه..موسر وأتمنى لو..لو تدعيني أخطط لكِ مستقبلك وتثقين بي..

هبت إلهام فجأة عن مقعدها وهي تقول:

- مستقبلي! أما هذا فلن أسمح به أبداً..إن كان الماضي قد خطته يدك..فلن أدعها تطال المستقبل..سامحيني..أنا لن أكون سلعة لجلب المال ولن أبيع روحي ما حييت..حتى اسمي الذي فقدته سأحاول جاهدة أن أحصل عليه..وستقولين لي الآن وحالاً من هو أبي؟

- هذا ما لن يكون أبداً..أما وقد ذهب بك الطيش إلى العناد فليس لي معك حديث آخر.

- سيدتي!

قالتها وفاء بهدوء حاسم ثم أردفت :

- أعلم أنه لا يحق لي التدخل في أمور عائلية كهذه... لكن أنا لن أتطرق إلا لنقطة واحدة فقط..إنها ابنتك..ابنتك قبل أي شيء..ربما لن تخسري شيئاً لو أرحت قلبها بما تود أن تسمعه.

صمت الثلاثة لوقت بدا طويلاً ، ثم قالت إلهام في هدوء غريب :

- هل لو قبلت بهذا المستقبل الذي تعرضينه عليّ الآن..لو قبلت أن أسافر معك وأتزوج ممن تختارين..هل لو أطعتك في هذا كله..تخبرينني بما أريد؟

- نعم.

أجابتها على الفور ثم أضافت :

- هذا لو أخذت وعداً منك بأن يظل هذا الأمر سراً بيننا..

- لا ..أنا سأمنحك المستقبل كله، أما الماضي فسآخذه دونما قيود ..سآخذه لأحيا بذاتي الحقيقية ..حتى لو كنت سأحيا على هواك أنت..

- إنسي الأمر إذًا.

كانت إلهام تفكر بسرعة لا قرار لها، هل يجب عليها أن توافق مبدئياً حتى تأخذ ما تريد

..لكن ما قيمة ما ستأخذه لو لم تعترف به والدتها أمام الجميع..بلغ بها الحنق مبلغه فقالت في تحدٍ :

-إنسي ما عرضته أنا أيضا..لن أبيع دقيقة واحدة من مستقبلي..وإن كنتِ ترين أنه لا ابنة لديكِ.. فأنا أيضاً..لا أم لي.

الفصل العشرون

From:SalmaSalah111@gmail.com

To:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

Data:9December

Subject:

ربما أكتب لنفسي..كما أعتقدت في بادئ الأمر..

لكن لا بأس..لعللكِ انشغلتِ أو شيء من هذا القبيل..

غريبة هذه الفترة جداً بمدى ما يجتاحني من تقلبات مزاجية وعاطفية _على حد سواء_

قد يبدو الأمر جنونياً إذ أقول أني أحاول الاقتراب والتأقلم..من العالم كله..أو من عالمهم الخارجي تحديداً..

لم أفلح في البعد..فلعلي أفلح في التأقلم..

لا أدري إن كنت أقرر هذا بمرارة أم برضاً..لكني سأحاول على أية حال..

سأحاول أن أستخدم المنظار الوردي مجدداً..سأواري خدوشه وأنظر من خلاله.. نعم سأفعل..

لا أدري أيضاً لأي سبب قد قررت هذا..

ربما هو رد الفعل العكسي عندي

ربما هو اقترابنا حين توشك الأشياء أن تبتعد..

أو حين توشك _الأشياء التي ابتعدنا عنها_ أن تبتعد..

مؤلم أن تطوي جراحك وهي لم تلتئم بعد..

أو أن تتركها للعراء..كي يدوايها الزمن دون تطهير..

أن تغلقها دون صرخة واحدة حتى..دون أنة واحدة تختصر فيها ألماً طويلاً..

لكنك عزمت أن تخطو..

وستخطو..

الفصل الحادي والعشرون

جلست إلهام على الفراش بعد أن تركت لهما سارة مفتاح شقتها ونظرت إلى الساعة فوجدتها قد قاربت على التاسعة مساء، عليها أن تنتظر ما يقارب النصف ساعة حتى تنهي وفاء لقاءها مع حسام ، تحتار إذ تتذكر مدام سناء..لم تعتقد يوماً أن سيدة مثلها قد تلقى مصرعها بهذه الطريقة.. كانت تشعر برغبة في أن تشغل نفسها عن التفكير بالأمر ..خصوصا وقد أثار بها حوارها الأخير مع والدتها شجن لا حد لها..كل ما خمنته هي كان صحيحاً إذًا..أتت والدتها لغرض ما وليس لافتقادها إياها..ليس لذلك الاعتقاد السخيف قطعاً..

وإنما أتت لتسليها مستقبلها كما سلبتها ماضيها..أتت لتزوجها من شخص يضمن ميراثها هي من زوجها الراحل ... أمام الناس تظهر والدتها بمظهر السيدة التي أنجبت وحافظت وأمّنت مستقبل ابنتها الوحيدة العاقة التي تركتها خصوصا في مثل هذه الظروف... شعرت إلهام باشمئزاز لا حد له وبرغبة في الخروج من حيز هذه الأفكار..

كانت قد بدأت تفكر في أمر سيف بطريقة أكثر مرونة..ربما حديثهما الأخير بعث في نفسها إيماناً ولو ضئيلاً بقدرته على مساعدتها، تذكرت فجأة الدفتر الذي استعارته منه..نهضت من مكانها وتناولته من حقيبتها على الفور ثم جلست تتصفحه في بطء..كانت أغلب الكتابات بقلم الرصاص ، لم تدر سر ذلك..ربما يغير فيما يكتب أو يمحوه... نثر ومقتطفات شعرية أثارتها جداً..لم تكن تعلم أنه يمتلك موهبة كتلك رغم أنه كثيراً ما كان يتحدث عن حبه للآداب بأنواعها... كانت مغرمة هي أيضاً بالأدب فجلست تحتضن الكلمات بعينيها..أسرها أسلوبه... توقفت عند بضعة أبيات وأخذت ترددها في صوت مسموع :

"إهداء"

ضعها بذاك الدفترِ المنسيّ فضلًا وانصرفْ

لا تجذبُ الأنثى التي خَبُرَتْ نسيجَ الشركِ - بعضُ قصيدةِ

زيفُ المجازِ..

وجولةُ المغوارِ يُشهِرُ حرفهُ كي يشطرَ السترَ المجافي..

ينتصر..

الصمتُ ينْطق..

هل يراودُ مسمعك ؟

قد قال : غادرني، فعمري لا يطيقُ تبعثرَ النثرِ المزخرفِ كُلَهِ

قد قال : غادرني ، فقلبي لا يطيقُ تمددَ الغزلِ الذي يطفو على الأبياتِ رغم مسامعي

لملم شتاتَ الحرف..

لا أذن هنا..

عيناي لا تهفو لوِرْدِ مُعَمْرٍ

أو دمعَ قيسٍ..

علّها لا ترتقي !

لا ترتقي..

لكن فؤاديّ مغرمُ بمخابئ البوحِ الذي لا ننطِقه

بدثار عذريةِ السكون..

وسجدة تهفو لضمةِ احرفي ..

لكن فؤادي مغرم بحياء غضِ التوقِ رغم سفورِ أناتِ المشاعرِ رغمنا..

أنا يا رفيق مللتَ كل تودد

ورعونةَ النظراتِ في حفلِ المساءِ

وضجةَ الكأسين بين ملالة..

وبِعَدَّ مرات اعتذاري عن عشاءِ الأمسِ ، كاذبةُ أنا..

أنا ما مرضت بتلكم المرات ، كاذبةُ أنا

لكن كَذِباتي تخفت في هروبِ لا يطيق تصنع الدنيا بوجه العمرِ رغماً يا رفيق..

والآن صادقةُ أنا..

والله لا أُجديكَ إلهامَ البلاغةِ أو شرودَ العاشقين

أنا طفلةُ..

لكن بثوب قُدَّ من كلِ السنين

من بهجةِ الأطفالِ ..

حيرةُ دربهم..

وحياءُ مقتَبَل الصبا عند الهوى وبدايتهْ

بتمردِ العمرِ القشيب؛ وزُهدَ من عَبروا الدروبَ بعيدَها

والآن صادقةُ أنا ..

لا شيء مني تغنمه..

دعني وأغنيتي ودفءُ يداي حين أضم ذاتي

أبتعد..

أنا إن خَبُرت الوردَ كيف أبيعه ..

لا أقبلَ الإهداءَ فيه..

أبتعد..

كُتِبَ الرحيلُ على الذين تعهّدوا التغريدَ في وجهِ المدافعِ يا رفيق

والطيرُ لا تغريه حربًا أن يقيم للحظةِ..

لا يعبدُ الطيرُ الفتات !

وأنا فتاةٌ شابهت تلك الطيور..

دعني لأغنيتي وأوتار المساء الناعسة..

للدمعِ حين يغالب الاحداقَ في ليلِ الحقيقةِ ثم يخفيه النهار..

دعني فقد هبط الزحامُ كما صباحِ القاهرة..

والقلبُ يثقله الزحام

ويستعيض بصومعة..

والله لو خبروا السلام لما رضوا بالمعمعة..

وهي النفوس الآمرة..

أماي .. لا أمر ولا نهي هناك بحوزتي..

هي بعضُ أضغاثِ الأماني ، بعضَ تذكارِ الدروب

ومقاطعُ من شعرٍ مجهولِ الهويةِ ..

ربما..

دعني لتلك الوحدةِ المكتوب في طياتها أني بعيدة

وحْياةُ إصرار الهوى في دمعِ عينك يا رفيقَ أنا سعيدة

لا حيلةُ في دفعِ قلبي أن يصدق أو يلين..

لا حيلةُ فيما جنى' التصديقُ من وجعِ السنين

الغدُّ مجهولُ الخطا..

فاهنأ بدربك ، قد تصادفُ مَنْ بدربك تستكين

أماي لا شعر لديك يشدني..

وجرابُ قلبي.. خادعُ

يَهْويّ بكلِ الحرفِ من ثُقْبِ قديمِ هازئِ..

ويغربلُ الأفعالَ .. لا تغريه أغلفةُ الهوى'

حلو الرحيقِ لدي القصيدةِ يا عزيزي.. مُسْكرُ

لكنني أقلعتَ عن كلِ القريض

دعها بذاك الدفترِ المنسي فضْلًا وانصرف

دعها ولكن .. قايض النغماتَ في وترٍ جديد."

كانت أبياته آسرة..تراه يقصدها ؟

ولعلها تدل على وجود محاولات تأليف سابقة ..الكلمات كانت هي السر الذي يأسرها ..ربما لأنها لا تحوز ملَكَة الإفضاء... أخذت تقلّب الصفحات في فضول متزايد ..ثم أخرجت دفتراً يخصها وشرعت بنقل ما شعرت أنه يمثلها.. قرأت في صوت منخفض :

"ومشى الطريقَ الغِرُّ يجْهلُ خَطْوهِ

لو كان يدري ما الطّريق لمَا مشى "

***

كانت تشعر أن كيانها كله يذوب مع التعبيرات ، تابعت تصفحها

" كانت محاولاتك ألا تكون وحدك..ليست خوفاً من الوحدة ..كنت قوياً لكنك لم تكن تريد أن تفلت يدك المتشبثة بهم..تلك الدمعة التي أخفيت ملامحها و ابتسمت..وكيف جاهدت حين كتمت صرير أضلعك كيلا تزعجهم..كيف كنت تنأى بجراحك التي أدمت يديك، فيعاتبون كيف لا تعانقهم ؟

لك الله يا صديقي كم التمست أعذاراً وأعذار..كم تركت لهم عينيك مفتوحتين على مصراعيهما علّهم يقرأون شيئاً ما..وكم فرضوا خياراتهم

نطاقاً حولك يوهمك أنك امتلكت إرادة ما..لك الله كم أحببتهم..وكم استنزفوك..كنت معهم... لكن كنت وحدك..ليس لأحد أن يعاتبك الآن على وحدتك.."

كانت تستغرب كيف له أن ينفذ إلى عمق الروح هكذا..إن كانت هي لا تقدر على أن تصف ما بنفسها فهل يمتلك هو القدرة على وصف مشاعر الآخرين أمثالها أم..تراه قد مرّ بهذه الأحاسيس..إما أنه فعلاً مر بهذا أو هو بارع في إتقان وصف التجربة..لكنه على الأرجح لم يكتب كي يقرأ كلماته شخص بعينه..كان يكتب لنفسه..لم يكن يعلم بالطبع أنها ستلتقى بدفتره أو لنقل تلتقي به هو لأول مرة على صفحات دفتره..كانت تشعر أنها تقرأه هو بل وتقرأ نفسها أيضاً .

شعرت كأنما طاف بها سحر ذهب برشدها وكأن كل حرف يلامس روحها وكل وصف يلامس مشاعرها في وضوح اندهشت له..اندهشت لموهبته تارة..ولكونها تكتشف في صمته عالماً جديداً تارة أخرى..لم يقتصر اندهاشها على شخصية سيف فقط..بل لأنها كانت تظن أن الجميع لا يفكرون مثلما تفكر هي..ولا يحملون في جوانحهم خفقات تشبه خفقاتها..كانت تظن أنها وحدها من تمتلك عالماً خاصاً..وحدها تخفي ما يجول بباطنها..اتضح لها الآن أن الأرض تحمل أمثالها..وأنها ليست متوحدة..أن بإمكانها أن تواجه العالم بلا أقنعة باسمة مزيفة..لأن هناك من يفهمها حتى وإن لم يُظهِر ذلك عياناً..

فكرة ما بدأت تنضج برأسها..فكرة تحتاج مجهوداً جباراً للإقرار بها..بإمكانها أن تدع ماضيها المؤلم..أن تطوي صفحته وتبدأ..نعم تبدأ من جديد..تبدأ في طريق ترسمه هي لذاتها دون أن تعبث به يد أحدهم..بإمكانها أن تبدأ وأن تحيا..هي تشعر بهذا الآن..تشعر حتى أن نبضاتها صارت مسموعة أكثر..

ربما التفاعل مع الورق كان حلاً لما تبحث عنه طوال حياتها..هي كانت تجهل مكنون الأشخاص وتعتقد فقط فيما يحمله باطنها هي..

والآن ..الآن فقط اكتشفت أن بإمكانها البوح هنا على الورق..بإمكانها أن تصنع عالماً جديداً تشكل بيدها كل ملامحه..بإمكانها أن تسطر سعادتها..بإمكانها أن تحيا..

كانت المشاعر تضطرب داخلها في عنف، لكنه اضطراب لذيذ..اضطراب يعيد ترتيب ما بعثرته السنين... أمسكت القلم فجأة وبدأت تحاول أن تسطر على دفترها شيئاً ما.. فكرت قليلاً ثم قررت أن توجه حديثها إلى شخص ما..شخص لا تدري من هو..لكنها محاولة على أية حال

"ابنتي..

لا تدري لمَ قد سرت في جسدها رعدة يسيرة حين كتبت هذه الكلمة على حين غرة :

"ابنتي..لا أدري متى قد تمر هذه الحروف أمام ناظريك ،لكنها رغبة ساورتني كي أسطرها لكِ..تعلمين يا طفلتي أن أمك لم تحب أحداً قبل وجوده مثلما أحبتك، أحبك حد اشتياقي لجزء مني أود لو أقدم له طريقاً ممهداً خالياً من كل تلك العثرات..عانيت كثيراً هنا..داخلياً يا صديقتي..لكن سأقدس هذه المعاناة لو جنبتك إياها..أود لو تخطين بالحياة وحولك ذراعاي..لا أدري مبعث هذا الشوق الذي يجتاحني لرؤيتك، أنا يا ملاكي قد تجاوزت طور غرة الشباب..نضجت كثيراً..والنضج لا يعني سوى مرور لهب التجارب على أجسادنا..سوى أن نتعلم كيف تلتف ذراعان من هذا الجسد حول ذاته وقت العاصفة..كل شيء يتبدل هنا..الأحبة والأصدقاء وغيرهم..

..لن أدعك يا صغيرتي ترسفين في أغلال ما يسمونه بالواقع..وعد مني - قبل أن أراكِ حتى- أنك ستصبحين ذاتك..ذاتك وحسب بلا بصمات ملوثة..لن تضطري للبحث عن احتواء ما دمت أنا حية..وعد يا طفلتي لن تسخطي يوماً على كونك ابنتي أنا..وعد سأبثك كل مكنون صدري وسنغدو طفلتين معاً..لن تشغلني الدنيا عن تفقدك وإسعادك.. كل ما أريد قوله هو

أني صديقتك قبل أي شيء..أني أجاهد كي تفتخرين بكوني أماً لكِ..أني اشتقت..وأني أحبك.."

أنهت ما كتبت وهي مندهشة من انسياق الكلمات بهذه السهولة..بإمكانها أن تكتب كل شيء..ها هي أخيراً قد وجدت ببصيرتها موضع بوحها..إنه صدر يتسع لكل عارضة..ومأمن لا يخون..إنه الورق..

سيف لا بد قد مر بما مرت هي به حتى تتفتق قريحته عن كل تلك الكلمات..عن السر الذي سيمنحها الحياة..

اختمرت الفكرة برأسها..وشعرت كأنها تنظر لآلامها كما تنظر للغروب..لن تسافر مع والدتها..لن تبيع أيامها القادمة..وستبدأ..نعم ستبدأ..

أخرجها من أفكارها صوت المفاتيح تمر في الباب برفق..وصوت وفاء تسألها مازحة :

- لازلت مستيقظة أيتها الفيلسوفة القارئة!

اقتربت وفاء ولاحظت الدموع التي تغطي خديّ صديقتها..والتي لم تكن قد شعرت بها في غمرة الشجن الذي شعرت به.

- ما هذه الدموع ؟

قالتها وفاء منزعجة ظناً منها أن إلهام تفكر بأمر والدتها فردت إلهام في هدوء :

- دموع!..

ثم أكملت وهي تمر بيدها على خديها :

- صدقيني لم أنتبه إليها..لا عليك يا صديقتي..سأخبرك الليلة بقرار قد يسعدك كثيراً..بل سيسعدك كثيراً بالفعل..لكن قولي أولاً..كيف هو حسام؟

- بخير.. دعك أنتِ من حسام وقولي حالاً أي قرار تعنين؟

كانت صوت وفاء ينم عن لهفة بها الكثير من الحدس الذي تود سماعه بأذنيها حتى يكتمل يقينها

- نعم يا وفاء..هو ذاك..

صمتت وفاء لوقت بدا طويلاً ثم احتضنت صديقتها ودموع الفرحة تبلل خديها وقالت:

- أتعلمين؟..كنت على وشك إخبارك أن حسام أصرّ على تحديد موعد عقد القِران خلال أيام..ولم آكن أعلم كيف أتصرف أو كيف أخبرك بهذا حتى ..

-لا بأس الآن يا صديقتي، أظنك سعيدة الآن صحيح؟

كان جواب وفاء أن احتضنتها بقوة ثم قالت:

-لكن..ما الذي غير رأيك بهذه السهولة..أنا لم أكن أصدق أن هناك قوة في العالم قادرة على أن تثنيكِ عما كنتي فيه.

ابتسمت إلهام قائلة :

- أنا أيضاً لم أكن أؤمن بوجود هذه القوة..إلا أني وجدتها.."الكلمات".

- ماذا؟

- سأخبرك فيما بعد..لكن الآن سنخلد إلى النوم لأني أشعر أني مرهقة إلى أقصى حد.

الفصل الثاني والعشرون

-لو كنت أعلم أنك ستأتي لما أخبرتك..خصوصاً وأنت مُتْعب.

قالها جلال في عطف وهو يحيي سيف الذي جلس بدوره على الكرسي المقابل لمكتب وكيل النائب العام قائلاً :

-كان لا بد أن آتي ..إنها قضيتي كما أخبرتك.

انحنى جلال الأمين قليلاً تجاه سيف قائلاً في اهتمام ملحوظ :

-ولهذا سأتساءل.. ألديك معلومات تخص القضية ؟

-لا أعني هذا يا صديقي..إنما أعني أن هذه القضية تخص شخصاً يهمني أمره

-أطرق جلال وقد بدا أنه فهم ما يرمي إليه سيف، فأكمل الأخير في تؤدة :

-أعلم أنه ليس لي أن أطلب الاطلاع على هذه الأمور، لكن..

-سيف !..أنا أدرى منك بهذا لكن حرصك على إظهار الحقيقة وحده سيحدد هذا.

- تماماً

غادر جلال كرسيه وراح يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ثم توقف فجأة وهو يقول :

-حسناً، قد يكون بإمكانك المساعدة.. وخصوصاً ..

بتر جملته ثم أكمل بعد هنيهة:

-لن تتفوه لأحدهم بحرف ما.

صمت سيف وهو يومئ برأسه وكأنما يحمل صمته بعض اللوم ، فاكمل جلال غير آبه :

-حتى الآن تم استجواب ثلاثة أشخاص.. إلهام ووالدتها ووفاء، وتم استطلاع أخبار الحاج اسماعيل بعد أن ثبت أنه كان على سفر وقد ترك للشاب المدعو محمود مباشرة أعماله ، باقي أربعة أيضاً:..سعيد ، نجاة ، محمود ، أمينة.

قال سيف في اهتمام:

-وهل توصلت إلى شيء ذي بال ؟

أطرق جلال قليلاً ثم قال :

الحقيقة أن هذه الجريمة محيرة يا صديقي..ولولا أنني بنفسي رأيت المجني عليها..لما صدقت أنه ثمة جريمة من الأساس..ليست هناك دواعي سرقة وقد تأكدنا من فحص كل الممتلكات..لا مكان للعبث..وليس هناك حتى الآن سبب واضح..كيف لجريمة أن تفتقر إلى الدافع؟

-لكن..كيف تم اكتشاف الجريمة؟

-الخادمة التي تعمل عند المجني عليها اكتشفت الجريمة ظهر عودتها من منزلها..كانت المجني عليها ملقاة بتلك الطعنة بجانب الفراش..لكن ؟

-ماذا؟

-ما يحيرني أن المجني عليها كانت ملقاة على الأرض ..مما يدل أن ثمة مقاومة نشبت بينها وبين القاتل..ومع هذا..لم يقل أحدهم أنه سمع صوتاً ما.

-لنفترض أن القاتل سيطر على الأمر سريعاً..

-جائز..لو كان قد حدث هذا فعلاً فإنه يترك آثاراً على وجه الضحية.

-تقصد أنه ليس ثمة تشنجات؟

-تماماً..ملامحها مرتخية.. وكأنما حدث القتل أثناء النوم..

-أمر محير فعلاً..

-على كل حال..نحن ننتظر تقرير الطب الشرعي

-لكن ألم تتوصل إلى شيء من الاستجواب حتى الآن ؟

-ربما بعض الخيوط.. وفاء رأت المجني عليها بعد ذهاب إلهام

- هل هذا يدفع الشبهة عن إلهام ؟

قالها سيف في لهفة فابتسم جلال وهو يجيب :

-القانون بلا عواطف.. تعلم!. لكن في الوقت الراهن.. أجيبك أن نعم..

استند جلال إلى كرسيه وهو يقول:

-الآن سأكمل باقي التحقيق..

مرت ثوان لم يعقب فيها سيف فابتسم جلال قائلاً وهو يربت على كتف صديقه :

-صديقي العزيز.. لا تخش شيئاً.. سيظهر الحق

أومأ سيف في شرود..فقال جلال:

- والآن أستمحيك عذراً في استكمال التحقيق..

-لكن .. ظننت أن ..

-تعلم يا سيف أنه.. سأطلعك على كل شيء لاحقاً..

صافحه سيف على مضض ثم انصرف..

مرت دقائق حتى مثلت نجاة أحمد إبراهيم البالغة من العمر سبعة عشر عاماً أمام وكيل النائب العام وهي تخفي ارتجافها بصعوبة

حاول تهدأتها بأن سألها بعض الأسئلة الروتينية عن بياناتها الشخصية

ثم أشار لها بالجلوس إذ كانت لا تزال واقفة وهو يكمل : منذ متى تعملين عند المجني عليها؟

- من ثلاث سنوات تقريباً

- وكيف كانت معاملتها لكِ

- لم أر منها ما يسوء.. كانت سريعة الغضب أحياناً لكن هي رحيمة على أية حال

- ثلاث سنوات مدة كافية لتعرفي بها علاقات السيدة .. صحيح؟

- بدا أنها لم تفهم السؤال فكرره بصيغة أخرى..

- هل هناك أعداء ترتابين بهم؟ بدا عليها الارتباك وهي تقول أنا لا أعرف أحداً ولم أتصور أن.. لم أتصور أن تموت هكذا.

قالت جملتها الأخيرة وانخرطت في بكاء عال

- بإمكانك التعبير عن حبك لها بمساعدتك إيانا

توقفت الفتاة عن نشجها وهي تنظر بعينين ثابتتين

- هل هناك ما يريب في تعاملات أحدهم مع سيدتك؟

- الحقيقة الجميع يحبونها أو..لا يبغضونها مثلاً.. لا أقل إنها كانت ودودة دوماً ولكن لم تفعل ما يستوجب..

- قاطعها جلال قائلاً : دعكِ من تحليلك الخاص.. هل لاحظت توتراً في علاقاتها مع أحدهم في الفترة الأخيرة؟

- لا فيما عدا انها كانت دائمة الشجار مع الحاج إسماعيل لكن ليس في الفترة الأخيرة بل منذ فترة طويلة

- وما سبب هذا هل تعلمين؟

- لا يا سيدي.. هي أمور تخص العمل ربما بيع وشراء ما أدراني بهذه الأمور

- هلا شرحتي لي تفصيلاً ما حدث يوم اكتشفت الأمر؟

- يا إلهي.. كانت السيدة.. لا أستطيع تخيل هذا ولم أستطع ان أسيطر على صرخاتي وقتها

- ومتى كان هذا تحديداً؟

- ما بين الواحدة أو الثانية ظهراً تقريباً

- ما آخر مرة رأيتها فيها؟

- قبل نومها مباشرة في تلك الليلة.

- هل لاحظتي بها شيئاً غريباً.. قلق أو ما شابه؟

- لا لم ألحظ شيئاً

- وأين قضيتي ليلتك؟

- كان يوم اجازتي وذهبت لأطمئن على والدتي وأخوتي في الحادية عشرة تقريباً

- ولماذا عدت صباحاً؟

- اجازتي ليست لأيام فمدام سناء تحتاجني دوماً

أملت نجاة عنوان منزل والدتها العجوز واشقاءها الصغار ثم انصرفت

***

جلست أمينة محمد السيد في هدوء وهي تقول :

-رحمها الله كانت لا يختلف اثنين على طيبتها وحسن معشرها لا أصدق أن مثل هذه السيدة يحدث لها كل هذا ثم غطت وجهها في بكاء صامت

- منذ متى تقطنين مع المجني عليها في نفس المسكن؟

- منذ عام تقريباً

- وأين كنتِ قبل هذا؟

- توفى والدي منذ مدة ولم يعد لي أنا ووالدتي القعيدة مكان ما بعد إصرار أهل والدي على بيع المنزل الذي يخصهم جميعاً وكنت أعمل مع أستاذ سعيد فالحياكة أساعده بالتواصل مع العملاء لكني اضطررت للاعتناء بوالدتي بعد أن أصبح من العسير تركها فترة طويلة..

صمتت قليلاً ثم أردفت في خفوت:

- استعنا على تدبير أمورنا مؤقتاً بعد بيع المنزل

- مرت دقائق حتى سأل جلال.. وما قولك في طباع المجني عليها؟

- قلت لك يا سيدي لا يختلف عليها اثنين لم أر منها ما يسوء

- وعادت تكفكف دموعها في صمت..

- ومتى آخر مرة رأيتها بها؟

- لا أذكر تحديداً.. لكن سمعت صوتها تتحدث إلى دكتورة وفاء فيما أذكر..

- وفيما كانتا تتحدثان؟

- حينما كانت الدكتورة وفاء تبحث عن الدكتورة إلهام وكانت الأخيرة قد غادرت سريعاً ربما كانتا على خلاف إن الدكتورة إلهام غريبة الأطوار أحياناً ومع ذلك فهي لا غبار عليها

- حسناً.

أطرق جلال لدقائق ثم قال:

- اين كنت ليله الجريمة إذاً ؟

- لم أبرح غرفتي لكن ذهبت لشراء أدوية لوالدتي آخر الليل

- متي تحديداً ؟

- ذهبت في العاشرة وعدت في الحادية عشرة ليلاً

- هل استغرقت كل هذا الوقت لشراء الأدوية

-لا بل عرجت على صديقة

- لماذا ؟

صمتت أمينه قليلاً فقال جلال:

- اقصد لماذا بهذا الوقت تحديداً

-الحقيقة يا سيدي كنت في حاجه لبعض المال

- حسنا ..لكن هل رأيت أحداً في طريق ذهابك أو عودتك ؟

- كانت نجاة ..موعد عطلتها ربما

- لكن هل تعتاد أن تذهب هكذا ليلاً؟

- نعم منزل أهلها ليس بعيداً جداً

تركت أمينه عنوان صديقتها وانصرفت ليمكث سعيد بنفس المقعد أمام جلال ..كان سعيد جامد الملامح حاد العينين وبدا غير مهتم ترك بيناته في صمت لم يقطعه سوى قول جلال:

- أين أمضيت ليلتك وقت الجريمة ؟

صمت سعيد لثواني قائلاً

- كنت متعباً قليلاً وخلدت إلى النوم باكراً

- متى تحديداً ؟

- قبل العاشرة تقريباً

- ألم تسمع شيئاً غريبة أثناء نومك.

- لا يا سيدي.. رأيت إلهام هابطة إلى الأسفل قبل نومي ثم أثناء النوم انتبهت لوطء أقدام محمود عائداً

- وكيف عرفت أنه هو؟

- وحده يعود متأخراً في هذا التوقيت في أغلب الأيام.

- ما رأيك بالمجني عليها..علاقاتها مثلاً؟

- هي سيدة عادية لا غبار عليها فيما أحسب.

- ألا تشتبه بأحد؟

تردد قليلاً ثم نطق في خفوت:

-لا.

- و متى آخر مرة رأيت فيها المجني عليها؟

- لا أذكر تحديداً ربما منذ يومين أو أكثر لا ألتقي بها كثيراً.

- أي نوع من الأعمال تزاول ؟

مرر يديه على جبينه قبل أن يقول:

- تركت عملي في الحياكة منذ فترة..لي ابن يعمل خارجاً وقد أصر هو علي هذا خصوصاً مع الآلام ظهري الأخيرة.

- هل كانت لك صله بأمينه؟

انتصب سعيد وهو يقول :

-نعم ..كانت تعمل لدي فترة من الوقت، لكنها تفرغت بالاعتناء بوالدتها.

- ولماذا تركت العمل معك ؟

- لا أدري يا سيدي ربما لأسبابها الخاصة.

- حسناً ليست ثمة أسئلة أخرى.

***

دخل الشاب طويل القامه زائغ النظرات تبدو على ملامحه السذاجة

- اجلس يا محمود.

انصاع الأخير للأمر في صمت بادره جلال بسؤاله :

-علمت بمقتل السيدة سناء صحيح ؟

- نعم

قالها بصوت يكاد لا يسمع فاستمر جلال في أسئلته:

- متى عدت من عملك لدى الحاج إسماعيل ليلة الجريمة

حاول محمود السيطرة على أعصابه بصعوبة ملحوظة وهو يقول ربما في الواحدة تقريباً

-هل رأيت أحداً ما أثناء عودتك ؟

-لا يا سيدي

- ألم يكن هناك ما يدل أن أحداً ما كان مستيقظاً ؟

- ربما جاري سعيد.

- وكيف عرفت ؟

- أقول ربما.. سمعت باب مسكنه المجاور بي يقفل أو هكذا خيل لي لا أذكر على وجه الدقة

- أليس من الممكن أن يكون باباً آخر ؟

- ربما يا سيدي ..ربما..لا أذكر .. لكنه الباب الوحيد المجاور لي بنفس الطابق .. وعلى كل حال فلست متأكداً

- منذ متى تعمل عند الحاج إسماعيل ؟

- منذ أشهر قليلة.

-وما رأيك به ؟

نظر محمود إلى وكيل النائب العام في بطء :

-ليس به شيء

- أما تعرف أمراً عن سر خلافاته مع المجني عليها ؟

قطب محمود ما بين جبينه ثم قال :

-لا ..والحاج إسماعيل كان مسافراً وقت الجريمة يا سيدي

- متى آخر مرة رأيتها ؟ متى آخر مرة رأيت المجني عليها ؟

مرت دقيقة من الحيرة قبل أن يقول :

-لا أذكر ربما بنفس يوم الجريمة صباحاً لم أرها لكن سمعت صوتها عالياً تتحدث إلى نجاة

- هل سمعت شيئاً ؟

تردد قليلاً قبل أن يجيب :

-لا يا سيدي لم أسمع شيئاً

-حسناً ..ما رأيك بالسيدة شخصياً أو هل ترتاب في أحد ؟

- لم أر منها ما يسوء ..لا أعتقد أن ثمة من يفعل هذا!

- وعلى كل حال.. فثمة من فعل هذا!

أجفل محمود ولم يعقب وطلب منه جلال ترك بياناته أخيراً.

الفصل الثالث والعشرون

- أريد إعادة صياغة ملفات هذه الحالات إلكترونيا، وأريد جدولاً مضاعفاً لتفادي المواعيد التي تم إلغاؤها.

كانت الأعمال قد تراكمت إثر غياب إلهام عن العمل تلك الأيام السابقة، أومأت السكرتيرة برأسها ثم غادرت الحجرة وما أن أغلقت الباب خلفها حتى تركت إلهام لخيالها العنان..كانت تفكر بقرار أمس وكأنه أمر غريب لم تمر به هي نفسها..هل تسرعت حين أخبرت به وفاء في غمرة انفعالها، أم هل تسرعت حين كان دافعها الأكبر هو مجرد دفتر؟ ..هل حقاً كل ما جال بخاطرها أمس كان منطقياً أم أنه سخافة غريق يرى في القشة سفينة ..هل حقاً كل افتراضاتها في إمكانيتها على البدء قد تمس الواقع حقاً أم هي أشياء من صنع الخيال الأمل الذي لامسها..وماذا عن أبيها..؟ هل ستواجه سيف بحقيقة الأمر أم ستكمل حياتها بماضٍ زائف..؟..وماذا لو أخبرته ؟..هل تراه يظل إلى جوارها أم ماذا ؟..لا..لن تخبره أبداً ..هي لا تريد أية شفقة..هي فقط ستوافق دون سرد أي شيء..نعم هذا هو القرار الصائب..أليس خيراً من أن تبيع مستقبلها مجدداً..ستوافق دون أن تنظر للخلف..إن لم يكن لأجلها..فلأجل ابنتها التي اشتاقت إليها..اشتاقت إلى أن تقدم إليها أياماً واضحة دونما تساؤلات وأن تعفيها مما مرت به هي..أما أباها فستظل صورته بخيالها كما رسمتها..ولن تأبه لأقاويل أمها ولا ادعاءاتها..لم تعد بحاجة إلى حنان ما، حتى سيف لو أصبح زوجها فلن تمنحه قلبها كله، بل ستحتفظ بالجزء الأكبر لنفسها حتى تأمن الاحتياج..

كانت كل تلك الأفكار تضطرم بذاتها، ولا تلبث أن تصحو من جديد مدعية أن كل هذه الأفكار مجرد هذيان خيالي وأنها كما هي، لكن تتذكر تلك الفرحة التي لمعت بعينيّ وفاء أمس ..هل تحرمها منها ..

طُرِق الباب برفق ودخلت السكرتيرة قائلة :

- دكتور سيف بالخارج يرغب بمقابلتك.

لم تكن إلهام تعلم أن الأفكار تجلب الأشخاص بسرعة البرق هكذا

- سيف!..اسمحي له بالدخول.

وما أن أتمت جملتها حتى طلّ وجه سيف وهو يمزح قائلاً:

- مريض في عجلة من أمره.

ابتسمت إلهام بدورها ونهضت ترحب به مشيرة للسكرتيرة بالانصراف، جلس سيف فوق المقعد المقابل لها وهو يقول :

- كيف حالك اليوم ؟..لست كسولة على ما أعتقد، ها قد باشرت العمل من جديد.

- ليس بإمكاني أن أبقى عاطلة لفترة أطول.

- عاطلة !..هه..على أية حال وجدت نفسي قد تعافيت فأتيت كي أطمئن و..أردت أن أسعد بلقاء والدتك.

هبت إلهام من مقعدها قائلة :

- والدتي !..ومن أخبرك أنها هنا؟

- هل قلت ما يسوء؟.. أنسيتِ مجيء وفاء عند زيارتك لي و..

قاطعته وفاء وقد تمالكت أمرها :

- أجل..تذكرت..اغفر لي فقد ازدحمت الأفكار برأسي.

جلست ثم أكملت :

- لا تأبه لانفعالي ، أخبرني كيف حالك أنت؟

- بخير، لكن لم تعطني جواباً.

- عن ماذا؟

ظنت أنه يلمح إلى أمر قرارها بشأن عرضه، لم تكن تعلم هل يجب أن تخبره الآن أم فيما بعد

- عن أمر لقائي بوالدتك ، إن لم يكن به ما يزعجك.

أتى جوابه باتراً لكل الظنون فقالت:

- الحقيقة..يؤسفني أن أقول لك لا..ليس رفضاً مني بالطبع بل لأنها على خلاف معي و..هو خلاف عادي ..هي لا تقيم معي وقد تسافر في أية لحظة.

قال مندهشاً:

- قد تسافر!..ألا تعلمين تحديداً متى ستسافر؟ ..ألم تأت هي من أجلك؟

- نعم..من أجلي..لكن..دعنا من هذا الحديث وربما جمعتكما فرصة أخرى.

- أنا آسف لذلك.

- لا عليك..

كان كأنما يتمنى لو بدأته بالحديث عن أمر الجريمة تلك.. ظل لدقائق على صمته وتحيره من تجاهلها لذاك الأمر حتى قطعت حبل أفكاره قائلة :

- قرأت كل ما بدفترك.

- وهل أعجبكِ شيء؟

- لا، لم يعجبني شيء..بل أعجبني كل شيء..أنت أكثر من رائع..كيف بلغت هذا الإتقان؟

أطرق سيف خجلاً:

- أراكِ تبالغين..لم أبلغ أي إتقان بعد.

ضحكت قائلة:

- ربما هو تواضع المؤلفين.

ابتسم بدوره فقالت:

- لقد قمت بنقل بعض الاقتباسات..إن كان هذا لا يزعجك؟..

- على العكس .. هذا فخر لي.

كان يشعر أنها مرتبكة بعض الشيء، وبالفعل كانت كذلك..كانت تغرق في بحر من الحيرة ..هل هذا هو الوقت المناسب لتخبره؟..هل تبلغه بقرارها دون أية مقدمات؟

قال يقطع حبل الصمت الذي طال بينهما:

- بدأت بالكتابة منذ الطفولة، كنت أكتب كل ما يجول بخاطري..لم أعتد أن أخبر أحداً بما أشعر؛ فكانت الكتابة وسيلة للتسرية، وعالماً صغيراً صنعته لنفسي والحقيقة أنه ليس صغير في نظري البتة.

لم تكن تريد أن تقاطعه، كانت تود الاستماع أكثر فسألت:

- وماذا بعد؟

- ماذا بعد؟..لا شيء لا زلت أكتب إلى الآن.

- هل لأنك لم تجد إلا الكتابة وسيلة للبوح ؟

-أو ربما لأني لم أكلف نفسي البحث عن سواها..أدمنت الكتابة إدماناً يكفيني عن العالم.

- حقاً؟ ..لماذا تريد الزواج إذًا؟

خرج منها السؤال مندفعاً فلم تشعر بما قالته، ظل واجماً لدقيقة ثم قال في هدوء:

- أردت الزواج لكي أمنح لأسرة صغيرة ما حرمني العالم منه ..أمنحهم الدفء.

- وهل تراك حُرِمت الدفء حقاً؟

قطب ما بين جبينه وكأنما يطرد أفكاراً تجتاحه:

_دعنا من هذا الآن ..لا داعي لذكر أشياء لن تضيف شيئاً.

- أنا أريد أن أستمع.

كانت بها رغبة قوية لسماعه، تشعر أنه سيمنحها السر الذي تخطو به درب الحياة

- إلهام..

تغيرت نبرته إلى الجد وهو ينطق باسمها..صمت قليلاً ثم قال:

- اسمعي..ربما لا يجب أن أقول هذا الآن ..ربما لا يجب أن أُضيع كل ذاك الصبر في لحظات، لكن أنا لا أستطيع الصمت أكثر، أنا، أنا كنت صادقاً إلى أبعد الحدود في رغبتي أن نكون سوياً..أن أساعدكِ وتساعديني.. أن نحلم معاً، لكن ..وأكرر أنه لا يجب أن أقول ذلك، لكن أشعر أني أهدرت مشاعري على أعتابك دون أن تحركي ساكناً لا يجب أن ألومك، ربما هذا ليس بيدك، ولا يجب أن أتفوه به الآن..لكن خرج الأمر من يدي ..اسمحي لي..رغم أني أعلم رفضك، اسمحي لي أن أتنازل عن عرضي..أعلم رفضك مسبقاً لكن أستأذنك في فرصة أخيرة كي أعود أدراجي بجزء ولو ضئيل من كرامتي، لا، ما هذا الذي أقوله، أنا لا أتنازل عن عرضي..لا أتنازل عن شيء..قولي ما بدا لكِ..أرفضي كما تحبين ولا شأن لكِ بكرامتي..إنما أنا لا أدري ما الذي أتفوه به..أحسبني أهذي..لا عليكِ..كأنكِ لم تسمعي شيئاً.

كان العرق يتصبب من جبينه رغم برودة الطقس..كانت كلماته تخرج بمجهود جبار، أما هي فكانت شاخصة إليه ببصرها في صمت وذهول..

أكمل قائلاً:

- ربما أتمادى طويلاً في الخلط بين الخيال والواقع..كعادتي، حلمت فقط بأسرة صغيرة وأبناء أمنحهم ما فقدته أنا..حلمت بمنزل دافئ ألتجئ إليه فيكون ملاذي من كل ذلك الاضطراب الخارجي، والداخلي أيضاً..تراني

بالغت في أحلامي؟..رغم أنها بسيطة لكنها ربما لا تعد من أحلام أمثالي..لا عليك بما أقول ..ما بالك صامتة ؟

لم تجب بشيء فأكمل:

-صمتك هذا هل هو استغراب لحديثي أم مندهشة لأني تحدثت بوقاحة ..أكرر لك أنه لا يجب أن تأخذي كلماتي على محمل الجد..أنا إنسان غريب نوعاً ما ..شخص لا يتعدى إلا أن يكون من طراز غريب متوحد.. دعكِ مني ومن أقوالي..ربما هو انفعال عابر..اقبلي اعتذاري .

- أوافق

قالتها بصوت عميق وكأنما هي نهاية لحديث طويل مع الذات

- ماذا؟

سألها وقد أدرك أنه لا يجب أن يصدق ما لا يمكن حدوثه، ربما تقصد موافقتها على قبول اعتذاره..لكن نبرتها!..

ردت وكأنما سمعت شكوكه:

- أوافق على الزواج منك، هذا إن كنت لا زلت عند طلبك

صمت طويلاً ..لم يكن يدري هل يستسلم لشعور الفرحة وحسب أم يلعن انفعاله الأخير

- هل تقبل أنت؟

كان سؤالها لا معنى له عنده فلم يجب، سادت لحظات صمت خُيل لكليهما أنها سنوات، تمالك نفسه ثم قال:

- أنا لا أصدق ما سمعت..لا لن أصدق حتى أصحو من هذه النشوة وألمس موافقتك بأرض الواقع..ألا فاغفري لي..اغفري لي انفعالي الساذج منذ قليل..ربما كان حديثي وقحاً لكن كان في طياته ألمًا أحسبكِ أدركته.

- أفهمك جيدًا.

كانت لحظات غريبة مرت على كليهما..كان يشعر أنه بحلم عابر سرعان ما سيستيقظ منه على الواقع الذي لا يتبدل..أما هي..كانت تشعر أنها تلقي بنفسها في هوة سحيقة لا تدري مصيرها ولا إلى أين تنتهي..لم تدرِ هل تسرعت؟ ..هل أخذتها الشفقة به أم ربما أخذتها الشفقة بنفسها إثر عزوفه عن مطلبه فجأة..هل هي الطبيعة البشرية التي تحتم إعراضنا عمن يهرول وراءنا وسعينا نحو من يولينا ظهره، أم تراها إحدى شطحات خيالها الذي واتاها ليلة أمس فصنع لها من الشمعة شمساً أغرت عالمها الجليدي..أم ربما هي موافقة صادقة إنسانية وبصيص أمل يتطلع للحياة.

وقف سيف فجأة وكأنما استعاد رباطة جأشه ثم قال:

- في مثل هذه اللحظات لا ينبغي أن يأخذنا حزن ولا ندم..نعم..لا أنا ولا أنت..لا يجب أن نفكر بأي حرف تفوهنا به من قبل..لا بطول إعراضك ولا بوقاحتي منذ قليل، لا، هذه اللحظات للفرحة وحسب، إنني أشعر بهذا الآن..أشعر به واقعاً وصدقاً..منذ لحظات شعرت أنني بمحض خيال، أما الآن فصدقاً أشعر أن الحياة قد امتدت أمامي لأشكلها أمامي كيفما شئت..أو..كيفما شئنا..نعم..من الآن فصاعداً سنكون معاً..لا مكان للتوحد منذ الآن..وسننجب أطفالاً،لا،لا.. قبل ذلك يجب أن نبني لهم حياة تليق باستقبالهم..سنكافح أنا وأنتِ، من حسن الحظ أن مجال عملنا واحد.. وحينما يأتون..-أعني أطفالنا- ..سنمنحهم حياة لطالما حلمت بها.

- سيف!

قاطعته فجأة ثم صمتت، لم تكن تدرى كيف تصوغ عباراتها لتشرح شيئاً يعتمل بنفسها..كانت تشعر باضطراب متزايد..ولو أنها أطلقت العنان للسانها، لربما قالت له أنها لم توافق بعد..وأن موافقتها منذ قليل كانت مجرد حديث دار في خيالها..لربما لو نطقت لأعطته ظهرها ثم هربت كما تهرب دوماً، لا..ما هذا الذي تفكر به؟..ثمة حياة..حياة جديدة وحدها يجب أن تحتل فكرها، صمت هو وكأنما كان خائفاً يترقب كل حرف ستتفوه به، أكملت أخيراً :

-وافقت على طلبك ولكن يجب أيضاً أن توافق على طلبي .

أجاب بلهفة واضحة :

- أمنحك موافقتي قبل أن أعرف طلبك حتى.

-انتظر..انصت لي حتى أنتهي و عِدْني ألا تقاطعني.

-أعدك.

-أنا وافقت قبل أن أقول لك أن..ثمة أشياء يجب أن تعرفها..طفولتي حملت مآسي..لا أود أن أقصها..هذه الطفولة تركت آثارها بي حتى اللحظة..ربما هي السبب الأساسي في إعراضي عنك أو إعراضي عن فكرة الزواج..ربما خشيت أن أجلب للعالم أطفالاً غير متزنين..أو لنقل أني أخاف عليهم من هذا العالم الذي لطالما اعتقدت أن البشر به لا يعرفون الرحمة... إذا أردتني زوجة..فها أنا..وحيدة..بلا ماضٍ وبلا أساس..إن أردتني لذاتي فنعم..إن كنت تستطيع أن تتحمل ما بي..وأن تضيف إلى حياتك إنسانة قد تمل جموحها يوماً..لن أخفي عليك أنني يتملكني الطيش أحياناً..أهرب بلا هدف..ومن اللاشيء..ربما تستطيع أن تلخص حياتي في سطور..إذ لا أحداث عندي، هكذا أنا، عالمي المتسع يقبع بخيالي لا بواقعي..

ربما أقصه عليك يوماً ما ..لكن ستعفيني من أية أسئلة قد تراودك..من الأسئلة التي تبدو بسيطة في عين سائلها وضخمة حد الرعب في نظر من يعرف الإجابة..لا تسألني ما بك؟..فما بي لا تحصره كلمات..ستعدني أنك لن تتطرق إلى تلك الأسئلة مدببة الحواف التي يمتد نصلها حد الأعماق..ها أنت ذا أمام إنسانة مشوهة المعالم لا ترتكز على أساس يمنعها من السقوط ولا تأمن تغيير قراراتها بلحظة..أمام إنسانة رمى بها القدر في بحر الحياة دون أن تتعلم الحياة بعد..فهل تقبل بها؟

كانت الدموع التي ترقرقت بعين سيف هي خير جواب، صمت قليلاً يغالب شجنه ثم قال:

-أحسب أننا على نفس الخط من الحياة.

ارتفع صوتها وهي تقول :

- لا... لا تقل هذا لأنك لا تدرك ما الذي عانيته أنا.

أكمل في هدوء:

-..ربما هذا الخط من الحياة قد جعل مني رجلاً عصامياً..ربما لو نشأت في دعة لما صرت كما أنا، ولا أعني منصباً بل أعني شخصية وعالماً داخلياً نقياً..يقال: أن من عرفوا طعم الألم هم أكثر من يوزعون الرحمة..اللذة لا تعني السعادة بالضرورة ..ولا الألم يعني السخط.

كانت إلهام تستمع في راحة تتعمق داخلها..إذًا ما راودها بالأمس لم يكن مجرد صرح من الخيال بل هو شيء واقعي لمست آثاره الآن..لكنه واجه ظروفه بقوة على عكسها، قالت بعد صمت دام طويلاً:

- الآن فقط اكتمل يقيني أنك ستفهم ما بي..دون أسئلة حتى ولن أحتاج أن أخفي شيئاً لوقت آخر ربما أحداث ماضينا اختلفت لكني أظن أن الإحساس متقارب..

بترت إلهام حديثها لحظة ثم قالت في تردد :

- أحداث بها من القسوة ما خلّد أثره بي فجعلني أشك بقدرتي على الحياة..ربما الفرق بيني وبين الجميع هو أن الألم الخاص بهم كان من حقهم أن يبثوا شكواه _ولو مرة _للخلق جميعاً وسيجدونهم يؤيدون زاويتهم ... أما أنا فكان الألم خفيّاً مستتراً..لا يعلمه سواي..كنت أعاني بين جدران منزلي دون أن يحق لي أن أظهر معاناتي خارجها. صمتت كأنما تتأكد إن كانت قد أجادت الانحراف بحديثها عن ذكر التفاصيل أم لا، كانت تود لو أنها أخبرته بكل شيء..لكنها سرعان ما ثابت لرشدها وأرجأت هذا لوقت آخر..وقت تتأكد به تماماً أنها تخبره عن اقتناع دون سطوة الحماسة الأولى.

رد قائلاً :

- لا تظني أن الألم الذي يحق للمرء التحدث عنه هو أخف وطئاً من غيره..لربما الألم الظاهر الذي يصور ضعفك لا يجلب لزاويتك أحداً بقدر ما يبرز الوحوش الآدمية بطريقك، الألم المستتر نحتفظ به لذاتنا...لا يهم أن يعرف العالم كم عانينا ثم أني أحسبك مثلي..تكرهين الشفقة والمواساة، لذا خير لكِ أن يكون ألمك خفياً، وأني على يقين من بغضك للشفقة إذ أني ألاحظ عزوفك عن سرد ماضيكِ..ولا تحسبي قولي هذا هو فضولاً..لا، بل لأمنحك أماناً تاماً وأحقية في الاحتفاظ لنفسك بما تحبين، وإن رغِبتِ رغبة تامة لا يحركها إيثار غرضه أن أشعر بإفضائك لي.. إن جالت بصدرك تلك الرغبة فستجدينني آذاناً صاغية ..

أما عن قولك أنك قد لا تجيدين الحياة فأنت تجهلين قدر ذاتك كثيراً، أنت قوية، أقوى مما تعتقدين، وإن أردت دليلاً على ذلك فهو إعراضك عن الشفقة وإعراضك عن الحنان رغم افتقادك لهما، أنتِ حاربتِ ذاتك رغم احتياجك للدفء..وهل هناك أصعب أو أقسى من صراع الذات؟..أنتِ قوية جداً..أقوى منّا جميعاً وأكثر مثالية .

كانت تفتش عن رد مناسب وقد ضاعت منها الكلمات ولم تملك إلا أن ابتسمت في صمت لم ينقطع إلا عندما طرقت السكرتيرة الباب قائلة :

- دكتورة وفاء بالخارج.

فردت إلهام على الفور :

- اجعليها تتفضل بالدخول بالطبع.

لم تكد تتم جملتها حتى نهض سيف ومد يده مصافحاً وهو يقول :

- أستأذنك الآن..ولنا لقاء آخر.

وقبل أن ترد إلهام قالت وفاء التي دخلت للتو :

- إذا أتت الشياطين ذهبت الملائكة أم ماذا !

ضحك الجميع على جملتها ثم قال سيف:

- بل أنا هنا منذ وقت طويل وآن لي أن أنصرف .

ودعتاه كلتاهما وما إن أغلق الباب خلفه حتى قالت وفاء في جدية :

- هل أخبرته بقرارك ؟

-أجل.

- جيد، حسام يود أن آخذ إجازة لنرتب أمور الزفاف، سيكون زفافنا بنفس يوم خطبتك لسيف..هكذا اتفقنا..لكن ..

- مهلاً مهلاً..من الذي اتفق وما هذا الاستعجال؟

- الذي اتفق هو أنا وأظن أنه لا فرق بيننا يا صديقتي... أما السرعة لو تحدثت عنها فسأضربك حالاً.

ضحكت إلهام قائلة :

- أعلم أني تسببت بتأخير هذا الزفاف طويلاً، ستكونين أحلى عروس.

قالت جملتها ونهضت تعانق صديقتها ولم تتمالك وفاء نفسها وقالت من بين دموعها :

- تعلمين كم أحبك يا إلهام ؟

- نعم أعلم ..بقدر هذه الفرحة التي تولد في داخلي لأجلك..وبقدر الشجن الذي يصاحب كل ذكرى لنا معاً... لكن لا لن أثير دموعك يا صديقتي.. سنكون معاً دوماً.

سادت دقائق من الصمت لم تنبس فيها كلتاهما بكلمة ثم قالت وفاء :

- إلهام!..ماذا ستفعلين بشأن والدتك؟

قطبت إلهام ما بين جبينها ثم أجابت:

- لن أفعل شيئاً..ولن أبيع من مستقبلي يوماً واحداً..مستقبلي لي ووحدي سأقرر كيف سيكون..يكفي أني تركت لها الماضي... إن رغبت هي

أن تتقبلني كما أنا فأنا على استعداد أن أدعوها لتقيم معي ولو عرضت هذا الأمر على سيف لن يعترض فيما أظن، إما أن أعود معها فلا.

- قرار صائب..رغم أني..لا أدري كيف ستكون مشاعرها..

-ربما ستكون مثلما كانت مشاعري منذ سنوات .

شعرت وفاء أن الانفعال قد بدأ يلم بصديقتها فقالت:

- حسنا ، دعنا من هذا الآن ..قرارك صائب وحسب... و ثمة شيء يجب أن أطلعك عليه رغم أنه..لا يبدو مهماً.

- ما هو ؟

أخرجت وفاء هاتفها وفتحت رسالة نصية عرضتها على صديقتها كان هذا نصها:

"ظننت للحظة أنكِ ستفي بوعدك، لن أحتمل أن يكون اختياري خاطئاً، وحتى أسلم من تأنيب الضمير على قراري الأخير سأرسل لكِ العنوان ."

- هذا العنوان غير مألوف بالمرة .

قالتها إلهام بعد أن كررت قراءة الرسالة ثم أردفت:

- من هذا؟

- لا أعرف المرسل، وليس لرقم هاتفه أي نشاط في وسائل التواصل الاجتماعي لأبحث عنه.

- لا عليكِ، ربما تكون قد أُرسِلت عن طريق الخطأ..لا أظن أن ثمة ما يدعو للقلق؛ إن علاقاتك كلها سطحية تقريباً..وإن كان هناك شيء ما فبالتأكيد سيعاود صاحبها الإرسال مرة أخرى.

- لم يفعل.

بدا الاندهاش على وجه إلهام وهي تسأل:

- وما أدراكِ أنه لن يفعل؟

- أقصد لم يرسل شيء آخر..هذه الرسالة قديمة ولا أدري كيف لم أنتبه لها وقتها.

صمتت إلهام وقبل أن تنطق بشيء تسمرت مكانها فجأة وقد ومضت برأسها فكرة صعقتها

- متى تاريخ الإرسال؟

تأملت وفاء الهاتف ثم قالت:

- ربما أسبوع تقريباً.

قالت إلهام متلهفة:

- أعطني الهاتف لدقيقة.

بحثت في سجل الرسائل ووصلت إلى ما توقعته..كانت هناك رسالة من نفس الرقم كتبتها بيدها في ليلة ما وذيلتها بإمضاء منها وكان هذا نصها:

"وفاء..أنا بخير..فقط قد أتأخر قليلاً.."

الفصل الرابع والعشرون

-أقسم لك يا سيدى للمرة الألف أني لا أعرف كيف وُجد هذا الشيء.

قالها محمود وهو يسيطر على دموعه بصعوبة ويحملق في الخنجر المرتكز فوق مكتب النائب العام.

حتى قال الأخير بعد أن أخفى الخنجر في درج مكتبه :

-لنفترض أنك لا تعرفه ، ما الذى جاء به إلى غرفتك ؟وكيف لم تلحظه؟

- لا أعلم ..صدقاً لا أعلم.

- بإمكانك الانصراف لكن ما جرى يجب ألا تتفوه به.

صمت برهة ثم أضاف في هدوء: لمصلحتك.

أومأ محمود برأسه في حركة عصبية ثم خرج، وكاد يصطدم بسيف الذى نظر إليه في استغراب ثم حيا جلال بعد أن أغلق الباب خلف الشاب المذعور..

- ماذا هناك ؟ هل هناك جديد ؟

قالها سيف وهو يجلس بعد أن أشار إليه جلال بذلك

-نعم، يا صديقي التفتيش أسفر عن أداة الجريمة..

- صدقاً!..أين؟

قالها وقد جال بخاطره منظر الشاب المذعور

- نعم، هو ذاك..وجدنا الخنجر بغرفة محمود..

- لكن رغم ذلك أتتركه يذهب ؟

- ليس محمود من فعلها أؤكد لك.

نظر إليه سيف غير متفهم حتى أجاب :

-لم يكن القاتل ليترك أداة الجريمة تشير إليه بالطبع، لكن بهذه الطريقة وضعنا أمام سؤال مفيد

من الذى يحمل مصلحة ما في اتهام محمود؟

قال سيف:

- أو ربما هو إخفاء لوسيلة الجريمة وحسب ..

- كل شيء جائز يا صديقي.. كل شيء.

مرت دقيقة من الشرود قطعها سيف قائلاً :

-هل من شيء آخر؟

- أعدت التحقيق مع بعضهم فثمة بعض الإضافات، قالت أمينة إنها استمعت لشجار دار بين إلهام وحسام قبل أيام أمام المسكن..

بدت أمارات الاندهاش على وجه سيف وأكمل جلال:

- الغريب في أمر هذه الجريمة هو غياب الدافع..

- تعني أنه ليس ثمة فائدة لأحدهم من القتل.

- هذا ما يتضح وعلى كلٍّ فإن القاتل دوماً ما يحوم حول موضع جريمته وهو قد بدأ بالفعل.. تركه لسلاح الجريمة تجعله ينتظر رد فعلنا واللافعل سيجبره أن يترقب أن ينطق بهفوة ما لابد

- فيمن تشتبه تحديداً ؟

- لا أجزم لك بشيء لكن الأمور معقدة بعض الشيء بإمكاننا القول مثلاً أن لدينا تسعة أشخاص لهم علاقة بالأمر، نستطيع استبعاد والدة أمينة القعيدة بالطبع ووالدة إلهام..

- إذاً يتبقى لدينا سبعة متهمين.

- سعيد الذي لم يغادر إلى أي مكان طوال ليلة الجريمة من قبل العاشرة تحديداً ويقول أنه شاهد إلهام رغم أنها لم تشر إلى هذا في أقوالها، وكذلك سماعه لوقع أقدام محمود عند عودته ليلاً، وكان اعتماده الوحيد هو أنه لا أحد سوى محمود يعود بهذا الوقت، ويبقى تحديد وقت الجريمة ليطرح أمامنا سؤالاً، هل كان هذا الشخص الذي سمع سعيد وقع أقدامه هو محمود فعلاً.

- أو هل سمعه سعيد فعلاً ؟

- رائع يا صديقي هذا هو ما أرمي إليه.

-هل تعتقد أن سعيد يتعمد أن يلقى الشبهة حول محمود؟

- ربما، وربما لا.

أما أمينة تقول أن آخر ما تعرفه عن المجنى عليها هو حديثها مع وفاء وهذا يؤيد أقوال وفاء الأخيرة؛ إذ أن وفاء قالت: إنها قد تحدثت إلى السيدة في العاشرة تحديداً أو قبلها بدقائق هذا يجعلنا نجزم أن وقت الجريمة كان بعد العاشرة.

- وهو ما ينفي التهمة عن إلهام صحيح؟

ابتسم جلال، وهو يقول إلهام غادرت في التاسعة أو ما بين التاسعة والعاشرة، والآن نعود لأقوال أمينة، تأكدت من عنوان صديقتها أنها بالفعل قضت عندها ما بين العاشرة والحادية عشرة

- هل هذا يخرجها من الاشتباه؟

- نحن لم نتيقن من وقت الوفاة بعد لا زلنا ننتظر تقرير الطب الشرعي، لكن كل الأقوال تؤيد أنه ليس قبل العاشرة على أية حال، ولو عدنا لأقوال أمينة نجد أن هذا ينفي التهمة عن ثلاثتهم وفاء وإلهام وأمينة ذاتها، لكن يبقى عندنا سؤال غريب.. كيف شاهد سعيد إلهام إذ كانت قد غادرت في التاسعة، وقد شهدت أمينة على أقوالها، وتأكدت من قضائها لليلة عند

صديقتها سارة ونرجع للسؤال المعهود، هل شاهد سعيد إلهام حقاً أم هل عادت للمسكن بعد مغادرتها، ولو كان حقاً يسعى لدفع التهمة عن نفسه لماذا لا يكتفى بذكر محمود وحده أو إلهام وحدها لماذا الاثنين؟

-لكن كل الشبهات هكذا تنحصر في إطار واحد.

-ونعود نقول ما الدافع الذى قد يجزم بهذا إذ لا توجد جريمة تفتقر إلى دافع ما..لا أظنه السرقة إذ أن ممتلكات المجني عليها لم تمس، ولا يجمعها بسعيد شيء قريب أو بعيد ثم الطرف الناقص

- ماذا عن نجاة ؟

- ربما الطعنة ليست بالقوة التي تجعلنا نقوم باستثناء فتاة شابة..ولو قلنا أن الإرادة تفعل مفعول القوة فنعود للنقطة السابقة ما الداعي إن لم يكن السرقة مرة أخرى ثم لا يمكن لنجاة أن تقتل بدم بارد سيدة كفلتها لسنوات، ثم تصعد لتخفي سلاح الجريمة، وتعود لمنزلها ثم ترجع صباح اليوم التالي، ومع هذا لا نرتكز على التحليلات النفسية، لكن أمينة قد شاهدتها تغادر في الحادية عشرة فعلا فهل حدثت الجريمة بين العاشرة والحادية عشرة لو كان هذا فعلاً فسنقوم باستثناء إلهام ووفاء وأمينة ومحمود، ولا يتبقى لدينا سوى سعيد، ونجاة أو شخص آخر غير موجود بالصورة.

- تقصد أن القاتل ليس منهم ؟

- ربما..أليس من الممكن أن يكون (س) من الأشخاص قد فعل فعلته وأخفى سلاح الجريمة ثم غادر؟

- دونما دليل؟

- ليس ثمة جريمة بلا دليل.

- وماذا عن الحاج إسماعيل..هل استبعدته ؟

- ليس تماماً..اثنتان قد أشارتا إلى خلافه مع المجني عليها إلهام بلهجة عابرة بها شيء من التهديد ونجاة التي لا تعرف شيئاً من الخلاف، ورغم هذا..قد يكون مجرد خلاف عادي.

-لكنه لم يكن موجوداً وقت الجريمة.

-ألا يجمعه العمل مع محمود؟

-تعتقد أنهما قد يكونا شريكين؟

- لا أعتقد شيء.. إنما وددت عرض جميع الاحتمالات، ولأننا نحن لا ندري حقيقة الخلاف ذاك

-ثمة نقاط كثيرة تحمل علامات الاستفهام..

-نعم..هل شاهد سعيد محمود ؟ هل شاهد إلهام أيضاً ؟ ولو كانت الإجابة نعم..فمتى عادت تحديداً؟ ولماذا ؟هل ثمة غرض من وجود أداة الجريمة لدى محمود؟ هل الاتهامات مفتعلة أم حقيقية ؟ ثم..ما الدافع ؟

-لكن ليست ثمة طريقة للتأكد من صحة أقوال الجميع عدا التي تؤيد بعضها البعض.. ثمة طرف خفي لم نره بعد..على كلٍ..فنحن نسعى للتأكد من أقوالهم جميعاً حتى فيما يخص ماضيهم ..

-لكنني أعارضك في شيء.. كنت أوثر أن تتحفظ على الحبس الاحتياطي لمحمود حتى يأمن القاتل أن خطته تسير على ما يرام- إن كان هذا متعمداً تجاه محمود فعلاً -

-على العكس..أنا أود إرباكه.. وأنتظر..

لكن بقي سؤال..: أي شجار سمعته أمينة بين إلهام وحسام ؟ ولماذا لم يذكر عنه أحدهم شيئاً؟ وهل هذا يُظْهِر حسام في الصورة؟

-بإمكاني مساعدتك ..

-لهذا أطرح السؤال ..فقد يقود لخيط ما ..

أنهى وكيل النائب العام عبارته إثر طرق الباب حتى جاء الحاجب وهو يحمل إليه تقرير الطب الشرعي ثم أشار له جلال بالانصراف..

مرت أكثر من دقيقة وجلال يتأمل التقرير في بطء وأمارات التفكير بادية على وجهه ولم يستطع سيف صبراً فقال :

-ماذا هناك ؟

صمت جلال دقيقة أخرى قبل أن يقول في بطء :

-وقت الجريمة قد وقع ما بين التاسعة إلى العاشرة ..

-كيف ؟؟هذا يرمى بكل تحليلاتنا أرضاً ..!

-ويعيد الكثيرين مرة أخرى إلى حلقة الاتهام ..

-لكن ألم تتحدث وفاء إلى المجني عليها قبل العاشرة بدقائق؟

-ثمة شيء خاطئ.. لابد ..

-هل هناك شيء آخر بالتقرير ؟

-الطعنة ليست عميقة.. وقد لاحظت هذا مسبقًا إذ أن الجرح لم ينزف كثيراً..

-لحظة ..ألم تقل لي سابقًا أن المجني عليها كانت ممددة أرضًا ؟

-نعم

صمت سيف قليلًا قبل أن يقول :

-هل تغدو الطعنة الضعيفة قاتلة ؟

لم يظهر على جلال أنه سمعه بينما كان يتأمل التقرير ويقول بصوت خافت :

-مذكور أن سبب الوفاة هو جرعة زائدة من" الفينوباربتال"..لم تشر نجاة حتى إلى أن المجني عليها تتناول منومًا ما ..

الفصل الخامس والعشرون

From:SalmaSalah111@gmail.com

To:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

Data:11December

Subject:

لا أدري لماذا تأخر ردك هكذا؟!

لكن هذا أفضل..

أفضل إذ أني باستطاعتي أن أتحدث دونما حساب رؤيتك لحرفي _على الأقل الآن_

أفضل لأنني سأتحرر من الدوران حول النقطة المنشودة دون المساس بها..

اليوم قررت أن أتحدث بوضوح..

رغم أني لا آمن عاقبة هذا على نفسي..

لكني سأفعل..

أنا وحيدة تمامًا..

لكني مطارَدة..ولا أدري لأي سبب..لكنهم جميعًا يطاردونني..

أشعر بهذا في نبراتهم..في نظراتهم..

يطاردون روحي لا جسدي..

لا يهم من هم ..

لكنني صرت أخشاهم..

هم يبعثرون روحي كلما جمعتها..وحين قررت أن أقترب..حين وددت هذا _ربما_..ظل في نفسي جانب لا يخضع مهما حاولت هزيمته..

لعله ما وصفتِه أنتِ بالشعلة التي لا تخبو..

اللعينة _على حد تعبيري_

كان لديّ ابنة..هجرتها..نعم هجرتها بإرادتي..

الآن ألست قاسية أنا ؟.. ألا أبدو قاسية حقًا؟

لم أحسن تنشأتها _كما كنت أعتقد _

لم يكن ذنبها أن تمتلك أمًا مثلي..

لم يكن ذنبها أبدًا..

الان هي ليست هنا..

ليست معي..

و ليس هناك أحد من الأساس..

لكني أستحق هذا العقاب..

إذ أني خطوت تجاه ما أدركت جيدًا أنه ليس طريقي..

أنا من حطمت المنظار الوردي..

نعم أنا ولا أحد غيري..

أنا مَنْ غرست _مختارة _ أشواك الطريق

فهل يحق لي الشكوى من الوخزات؟!

ربما أبدو غريبة..

لكن هذه هي الحقيقة..

الآن أود لو أقترب منهم جميعًا..

أن أعانقهم بلا مبرر..

وأود أيضًا..

لو غفوت فوجدت كل هذا لا يعدو على أن يكون حلمًا..

أو لو كان بإمكاني الهرب بعيدًا..

بعيدًا جدًا..

بعيدًا عن نفسي حتى..

الفصل السادس والعشرون

-لا أدري لِمَ تشغلني هذه القضية هكذا؟

قالتها سارة وهي تجلس على المقعد المقابل لإلهام، ثم سألت:

-ماذا كنتِ تفعلين هناك اليوم؟

- اعتدلت إلهام في جلستها وهي تقول:

- ثمة أشياء كنت أحتاج إليها من أغراضي..

كانت إلهام ساهمة بعض الشيء فبادرتها سارة :

- هل ثمة ما يقلقك؟

لم يبد على إلهام أنها انتبهت للسؤال فنهضت سارة وهي تقول :

- متى ستعود وفاء؟

انتبهت إلهام إثر وقوف صديقتها فأجابت:

- هي مع حسام ..لن تتأخر فيما أعتقد.

- حسام ..صحيح ..ما الذي وصل إليه في قضيته الأخيرة..لقد احتلت العناوين الرئيسية في الأيام الماضية.

- لا أدري يا سارة.. نهناه لما أعتقد أنه يعلمه.

- هل تعنين أنه يدرك جيدًا مرافعته ضد مجرم؟

لم تجب إلهام وإنما أطرقت للحظة قبل أن تقول:

-الغريب أن المتهم إذا كان قد هرب فعلًا ولنفترض أن هروبه دليل جزئي على إدانته..لماذا يستمر في البحث عن ثغرة لدحض التهمة عنه؟

- لكنهم اجزموا أنه لم يهرب خارج حدود البلاد ..

- لا أعني أحدًا..أعني حسام..

- إلهام..ما الذي ترمين إليه؟

-لا شيء يا صديقتي..لا شيء

كانت رأس إلهام تضج بالآلاف الأسئلة..تلك القضية التي زُجت بها.. وموقف والدتها الأخير..وما يحيرها من أمر حسام و..

أفاقت من أفكارها على صوت جرس الباب التي أسرعت سارة لناحيته وهي تقول :

- لم تتأخر وفاء.. جيد أن أراها قبل أن أذهب.

ولكن أطل من الباب وجه سيف ليهدم توقعاتها فابتسمت مرحبة، وما أن تناهى لإلهام صوته حتى ذهبت تستقبله وكأنما كانت تنتظره فعلًا ..

- يؤسفني أنه علي الذهاب الآن، وسأعود خلال ساعات ربما..بلغي سلامي لوفاء.

ألقت بآخر كلماتها لإلهام ثم غادرت..

كان ذهن سيف مشغولًا بالقضية لأبعد حد..خصوصًا بعد تقرير الطب الشرعي عن سبب الوفاة.

-إلهام ..ثمة أمر أود لو نتحدث بشأنه..

اكتفت إلهام بإيماءة من رأسها فأكمل:

- تعلمين كم يهمني أمرك..لذا أود لو..لو بإمكاننا التعاون للخروج من هذه الأزمة.

- لو أنك قلت هذه الكلمات منذ فترة وجيزة لضحكت وأخبرتك أنه ليس ثمة أزمة..

- ماذا تعنين؟

- ما الذي تعرفه أنت عن الأمر..من تعتقد أنه الفاعل؟

صمت سيف قليلًا ثم قال:

-لا تعني الشكوك الشخصية شيئًا.

-وأنا أسألك عن الشكوك الشخصية..ماذا عنها؟

-إلهام ..

- لا بأس..لا تقل شيئاً..

- لم أقصد..ربما أشتبه قليلًا بسعيد.

- ولماذا هو تحديدًا؟

- ما رأيك أنت؟

- أود أن أخبرك بأشياء كثيرة يا سيف..لكن على أن تعاهدني ألا تخبر أحدًا بها..حتى جلال الأمين نفسه.

بدت على وجهه علامات الاندهاش ولم ينطق بشيء، فأكملت :

-تعاهدني ..وإلا فلا..

- لكن يا إلهام..ألا نسعى لكشف الحقيقة؟

- سنسعى لها دون المساس بما سأخبرك به.

- حسنًا..أنا استمع.

- عدني بهذا..

- أعدك.

- من فترة ليست بالبعيدة..كانت أمينة تتردد على مكتبي..ولا أعرف إن كان صحيح أن أخبرك أم لا.. لكنها ضرورة.

- أتفهم هذا جيدًا..أكملي.

- هو شيء يخص ماضيها..وله علاقة بسعيد..لكن الأمر انتهى بالفعل..وهي كانت بصدد حياة جديدة، لكن شبح الماضي ظل يطاردها، لا أعلم هل انتقل سعيد لنفس المسكن عامدًا؟ لكنه كان يحمل إصرارًا غريبًا الحصول على كل ما عندي مما يخص أمينة..وكأنه كان يعرف ما ذكرته به من حديث أو يخشى هذا..

كان يلح في طلبه بكل وضوح..

حتى أني اضطررت لإحضار كل ما يخص أمينة في ملف خاص واحتفظت به بغرفتي كي يظل أمام عيني..

ويبدو أنه في الفترة الأخيرة كان قد طلب من أمينة نفس الطلب، لكن انصياعها للأمر وطلبها للمستندات مني أثارا اندهاشي..وقد أوعزت هذا إلى رغبتها في إسكاته خصوصًا وقد قررت بالفعل بدء حياة جديدة مع محمود..

- هل هي على علاقة معه؟

- تأخرت خطبتهما بسبب ما حدث..لكن ليس هذا ما يحيرني..إن الملف اختفى

- كيف هذا؟؟ ومتى؟

-في يوم الجريمة تحديدًا..عدت من المشفى وكنت غاضبة قليلًا، وبحثت عنه قلم أجده؛ لأني لم أكن سأغادر بدونه..وبنفس الوقت جاءت أمينة لتسألني عنه..فلم أعطها جوابًا..بحثت بالمكتب وبكل مكان، لكن لا أذكر كيف سهوت عن هذا فيما بعد..لا أذكر.

-تظنين أن هذا له صلة بسعيد؟

- لا، لست أظن..بل على ثقة، أمينة كانت لا تزال تلح في طلبها..بينما كان الملف قد اختفى..

-هل يدخل أحد ليعبث بأغراضك في غيابك؟

- هذا ما يحيرني..ليس إلا نجاة لأغراض التنظيف أحيانًا..ومدام سناء كان لديها نسخ من مفاتيح الغرف..ونجاة فتاة ساذجة على أية حال.

-من يدري؟ لعلها..

- لا..أنا تأكدت أن الملف بيد سعيد.

- ماذا ؟؟..كيف؟

-قابلته اليوم

- لكن أين ؟ هل ذهبتِ إلى هناك؟

- نعم ..كنت أحضر بعض اغراضي.. وطلب الحديث إليّ

- ما الأمر؟ لا تتوقفي ..اكملي.

-أخبرني أن الملف الخاص بأمينة أصبح في يده..

- الوقح

- ليس هذا ما يهم..المهم أنه وجده في غرفة المجني عليها.

مرت دقيقة ثقيلة من الصمت لم يتفوه فيها سيف بشيء فقالت في بطء:

-قال أنه ذهب لهناك صباح يوم الجريمة بعد صرخة نجاة، ووجد الملف، وأخذه دون أن يفطن إليه أحد.

- لكن ..ما الذي يدعوه لهذا الاختلاق كي يواري سرقته إياه؟

-أحسب أنه ليس اختلاقًا.

- ماذا تعنين؟..وما الذي يضع شيئًا يخصك هناك؟؟

- الملف يحتوى على بصمات المجني عليها.

- رباه ..ما معنى كل هذا؟

- ثم ..هناك بصماتي أنا.

- لا يقلقك هذا..هذا لا يدين سواه، كونه يود الحصول على شيء وقد فعل..ومن المجني عليها - رغم أننا لا نعلم كيف صار الملف عندها - لكن هذا ليس بصالحه..هذا دليل إدانة له..ثم أنه من الطبيعي أن توجد بصماتك على ملف يخصك..الآن تأكدت شكوكي به..إلهام..اتركي لي هذا الأمر ولا تقلقي.

- بصماتي مطبوعة بدماء المجني عليها.

قالتها في جمود صعق سيف وأزعجها هي نفسها..

- هذا ما حدث..ولا تسألني كيف؟

وقف فجأة وكأنما يحاول التقاط أنفاسه:

- ماذا كان يريد من حواره معك؟

- يقول أنه يعلم الحقيقة..يعلم أنني الفاعلة، ولكنه لن يخبر أحدًا مقابل ألا أتفوه بأمر الملف أو غيابه.

- ما الذي يحتويه هذا الملف؟

ظهر التردد على وجه إلهام ثم قالت :

-ومع هذا يجب أن أخبرك..أمينة كانت تعمل لديه في أشغال الحياكة..لكنها كانت تغطية لأعمال أخرى..حتى أن أمينة نفسها أضحت..

بترت جملتها فجأة ثم أكملت :

- استسلمت للتعاطي لكنها تعافت، وابتعدت عنه وعن أعماله..كانت نادمة فعلًا.. لأنها كانت تساعده.

كان سيف يحاول السيطرة على توتره وهو يطوى الغرفة جيئة وذهابًا..

وقفت إلهام لتواجهه بعينين دامعتين وهي تقول:

- هل تصدق أني لم أفعل شيئًا؟

ندت عنه ابتسامة خفيفة وهو يقول:

-يجب البحث جيدًا عن كل ما يتعلق بعمل سعيد السابق..

- احسبني أعرف أمرًا..لكن..لا دليل.

-تحدثي.

-حسام

تذكر سيف قول أمينة عما سمعته من حديث حسام مع إلهام

- ما به حسام؟

-عندما تحدثت إلى سعيد..ذكر عرضًا عن رفضي لإعطائه هذا الملف سابقًا وأني نقلته إلى هنا لأخفيه عنه عمدًا..

- ربما عرف هذا حين وجده عندك ..

- إن كان قوله عن العثور عليه بغرفه المجني عليها صحيحًا..فلا يمكن أن يكون قد عرف هذا لوجوده عندي .. بل أنه لم يثر أي اندهاش لوجوده هناك .

- ماذا تعتقدين؟

- لم يعلم أحد بوجود هذا الملف هنا سوى حسام ..كان برفقتي بالسيارة أنا ووفاء حين كنت أحمله معي، وقد سألتني وفاء عن الملف إذ كانت تلاحظ تعقبات سعيد لي بالطلب ذاته..

-وفاء وحسام وحدهم كانوا يعلمون؟

-نعم.

- هل ثمة ما يجول بخاطرك؟

- الكثير يا سيف..الكثير..لكن يحطم كل تلك الظنون أمر البصمات.

-ولعله كاذب.

- أرآني إياه للأسف.

صمتت ثم أكملت:

- ومع ذلك..لا زال ذاك الأمر يشغلني..أؤكد أنه ثمة علاقة لسعيد مع حسام..

- هل ترتابين بأمر يخص القضية الاخيرة لحسام؟ راودني هذا التفكير أيضًا.. أنه ربما يكون سعيد أحد أوكار ناجي الشيمي ..لكن هذا يجعل حسام في منصة المدافع عن المجرم رغم إدراكه..

- وهذا هو التفسير الوحيد لكون حسام لا يزال يرغب في العمل على القضية.

-لكن ، لو كان هذا فعلًا.. لماذا ترك سعيد عمله؟..

- لعله شيء مؤقت.. وإلا لِمَ يريد المستندات؟

- ربما نجد الإجابة لدي مساعِدته؟

- سيف..عاهدتني أن يظل الأمر بيننا.

أطرق سيف قليلا ثم قال :

- وأنا على وعدي ..وفيما يخص البصمات..لا تقلقي..أظنه يفتعل الأمر لضمان صمتك..أخطأ حين تحدث إليكِ

قطع حديثهما هاتف سيف معلنًا اتصالًا من قِبل وكيل النائب العام..ونهض سيف كأنما كان ينتظره لكن دون أن يجيب.. وقال مودعًا إلهام:

- لا تخشي شيئًا..أنت تدركين جيدًا أنكِ لم تفعلي شيئًا..أنا معكِ لا تقلقي.

الفصل السابع والعشرون

هبطت من السيارة وسارت تجوب الشوارع المزدحمة في لهفة، تسارعت دقات قلبها في عنف..تُرى أي قرار ذاك الذي اتخذه بسبب عدم، عدم عودتها!..وإلى أين أسلمته الظنون..هل ظن أنها لا تهتم ؟

كان العنوان يشير إلى فندق فخم لا يتفق وما بدا عليه من مظهر حين التقت به.

وقفت في البهو وسارت يمينًا صوب موظف الاستقبال الذي ما أن لمحها حتى قال :

- هل من خدمة أؤديها لك ؟

جالت إلهام ببصرها قليلًا ثم قالت :

- في الحقيقة أردت الوصول إلى نزيل بهذا الفندق، ها هو رقم غرفته تحديدًا.

بسطت له ورقة كانت قد نقلت بها العنوان تفصيلًا كما أرسله، نظر الموظف إلى الورقة ثم مضى يتصفح سجل المقيمين وهو يقول :

- عذرًا، ما اسمه ؟

لأول مرة فطنت إلى أنها لا تعرف اسمه حتى..وغزاها شعور مؤلم أنها حقًا لم تهتم، وأجابت في تلعثم :

- الحقيقة أنا مرسَلة من طرف صديقة لي ..ونسيت الاسم الذي أخبرَتَني به..

لم تبد على نظرته الجامدة أي تعبير وهو يقول :

- حسنا آنستي.. الغرفة التي تقصدينها يحتلها محام شاب وزوجته..هاك الأسماء هنا ونسخة من صورة بطاقته الشخصية..هل هذا هو الشخص الذي تعنين؟

- لا..إنما هو شيخ في الخمسين من عمره تقريبًا.

- لو تعلمين..منذ متى يقطن بهذا الفندق ؟

قالت بعد تفكير :

- منذ أسبوع تقريبًا.

- النزيل الجديد أتى منذ يومين فقط ، أما سجلات النزلاء الذين انتهت إقامتهم فلا نحتفظ بها .

صمتت قليلًا ثم قالت في يأس:

- ألا تذكره شخصيًا مثلًا..شيخ يتوكأ على عصا و..

قاطعها بأسلوب مغلف بالاحترام وهو يقول:

- آنستي..عذرًا..أنا أتعامل مع أعداد لا حصر لها..كيف لي أن أتذكر؟

صمت لثوانٍ ثم أردف:

- هل من خدمة أخرى؟

-أشكرك.

انصرفت وفي قلبها انقباض لم تشعر به من قبل، لطالما شعرت بالظلم لكنها، ولأول مرة تشعر أنها ظالمة، لم تكن تعرف أن هذا الشعور أسوأ من سابقيه، كيف تراها تصل إليه ..كيف تراها تخبره إلى أنها لم تفطن إلى قسوتها الصامتة..انصرفت إلى أحداث حياتها ونسيت وعدها معه.. نسيت أنه اختارها وحدها ليبثها ذكراه وما بقي من حاضره..ظن أن لديها قلبًا يتسع لشكواه ففاجأته بنسيان متحجر، لم تكن تعرفه بنفسها من قبل، لأول مرة بدأت ترى الأمور من زاوية غريبة لم تعتد عليها، تحطمت المرآة التي لطالما أظهرتها بمظهر البريئة المسلوبة حقوقها والمظلومة في نظر ذاتها، رأت نفسها غريبة الأطوار، متغافلة عن عيوبها وأنانية..أنانية للحد الذي لا تفكر

به بمأساة شخص وضع مرساته بقلبها فحطمت سفينته، وتركته في لجة البحر دون أن تكلف نفسها الالتفات وراءها حتى..

قادت السيارة في بطء وهي تحاول التركيز ببصرها على الطريق قدر استطاعتها، ولكن فيمَ هذا الحرص على الحياة إن كانت بهذا السوء الذي بدا لها الآن ..

عاودها القلق مرة أخرى إثر جملته التي لا زال صداها يتردد في أعماقها.."حتى أسلم من تأنيب الضمير على قراري الأخير"..تُرى أي قرار قد اتخذه نتيجة لخذلانها إياه؟..وإن حدث شيء ما ستكون هي السبب الرئيس به، ولن تسامح نفسها للأبد..وإن بقيت على هذا الجهل بمصيره فستبقى ذكراه خنجرا يغتال أيامها..للحظة تمنت لو أنها لم تقابله من الأساس ..كانت الظنون تطوف برأسها بلا رحمة..

توقفت أمام البناية ثم صعدت السلالم، وما أن دخلت الغرفة حتى ارتمت على السرير في إعياء نفسي يكاد يفتك بها..

حدقت إلى السقف والقلق يعتصرها..تُرى أين هو الآن؟ ..وماذا تراه يفعل؟..ماذا يعتقد فيها؟..هل تراه قد رسخ اعتقاده بقسوتها وأنانيتها..وهو لا يعرف كيف تتعذب هي الآن لأجله..

أخرجها من أفكارها رؤية وفاء تستند على جانب الباب قائلة :

- أين كنت ؟

بادرتها وفاء بهذا السؤال الذي توقعته إلهام كبداية لمشادة كلامية.

- كنت أتجول قليلًا بالسيارة .

- تتجولين قليلًا!..بالفعل يبدو على وجهك من الراحة ما ينم عن نزهة خلوية..إلهام!..توقفي عن المراوغة وقولي أين كنتِ..وما سر تلك الرسالة التي قلبت مزاجك رأسًا على عقب؟

كانت إلهام تعرف جيدًا أن وفاء ستسخر منها لو أخبرتها بما حدث وقد تسفّه شعورها هذا.

- لا شيء يا صديقتي ..ربما أثارت في نفسي قلقًا لا مبرر له ..وربما أعصابي متوترة قليلًا بسبب قراري الأخير بشأن الزواج .

- سأسلم أن هذا هو السبب..لكن ثمة شيء سأطلعكِ عليه.

- ماذا؟

قالتها إلهام بقلق أثار اندهاشها هي نفسها وقالت وفاء في تلعثم :

- والدتك جاءت إلى هنا أثناء غيابك .

هبت إلهام واقفة وهي تقول :

- ماذا كانت تريد؟

أجابت وفاء قائلة :

- لا تثوري هكذا، هي لم تكن تريد شيئاً، لا أدري يا إلهام..أشعر أن ثمة وجهة نظر لا تنتبهين إليها..أعلم جيدا أن رأيي قد يثير غضبك، لكن لا أحب أن أراكِ ووالدتك في تشتت هكذا، أنا لا أوافقها على ما ترمي إليه من زواجك بأحد أقارب زوجها..وربما أقف إلى صفك في شعورك السلبي حيال ما فعلَته من حرمانك هويتك الحقيقية، لكن..لكن يا إلهام لو وقفنا بمكانها، لو حاولنا أن ننظر للأمور من وجهتها هي..؛ أنها ربما فعلت ذلك كي تجنبك شيئًا لا نعرفه..كي تنعمي بأم وأب مجتمعين حتى لو كان هذا الأب ينتحل مكانة ليست له..لأن هذا يجعل كل الآلام لا تنفذ خارج الجدران.

- كفى

قاطعتها إلهام في نبرة تمتلأ بالمرارة وأكملت:

-وجهة نظرك ناقصة يا دكتورة..لو كانت قد فعلت ذلك لتجنبني شيئًا لا تعرفه فلمَ لا تطلعني عليه؟..أتخاف عليّ مثلًا؟..كيف وهي تعلم أني أتألم أكثر

بتخبطي هذا، لمَ لا تدافع عن سلامة تصرفها وتخبرني؟..إن كانت حقًا أرادت أن أنعم بأم وأب مجتمعين فهل تراني نعمت ؟..الآلام تكبر حين تنكمش بها على ذاتنا فتحيلنا أطلالًا من ركام الأحلام.

أنهت إلهام حديثها وقد بلغ بها الانفعال مبلغه.

قالت وفاء وكأنما تحاول الاعتذار:

- لا عليك يا صديقتي، لم أقصد أن أثير انفعالك ..آسفة لو فعلت وعلى أية حال..فقد اتخذتِ قرارًا بشأن الزواج من سيف..ووالدتك قد سافرت إلى مكان إقامتها، ولا داعي لنبش الجراح.

-متى سافرت ؟

- ظننت أني قد أخبرتك من قبل عزمها على السفر، هي قد عرجت إلى هنا قبل سفرها مباشرة..حتى أنها قد حملت حقيبتها معها و..تركت لكِ هذا.

قالت وفاء جملتها وأخرجت مظروفًا أسلمته لصديقتها وهي تقول :

ها هو ..لم أمسه..سأتركك تقرئين ما به وأذهب لأنتهي من إعداد الطعام.

أومأت إلهام برأسها إيجابا ثم فضت المظروف وأخرجت منه ورقة مكتوبة بخط اليد..

"إلهام.."

لا أدري هل يجب أن أبدأ خطابي ب"ابنتي العزيزة"..أم أن هذا لم يعد له معنى بيننا..أو لم يكن له معنى منذ أمد..أنا أكتب إليكِ لا لشيء إلا كي أنزع من ضميري أي شك بأني قد ظلمتك فيما فعلت... سأقص عليك تفصيلًا ما طلبتي أن تعلمِيه..لكن قبلها أود لو أخبرك أنني لم أتوقع هذا الخذلان من ناحيتك .

حين تقرئين هذه الكلمات سأكون بطريق العودة التي مقري الأخير، لن أزعجك ولن أطلب منكِ المجي ..لم أعد أؤمن بإمكانية وجود بداية جديدة معك..يكفي استقبالك البارد لي وإعراضك عني جواب أقرأه ما تبقى لي من عمر..أما أنا فإني أدرك بقرارة نفسي أنني لم أظلمك ولم أهضمك حقًا من حقوقك..بل على العكس قد بذلت في سبيل إسعادك ما وسعني البذل..رغم أن هذا قوبل بجفاء في نهاية الأمر..لكن ما حيلتي وقد ركّبت الطبيعة في الأم حبًا فطريًا تجاه أبنائها ..لكنها تركت للأبناء قلوبهم حرة ..فظهر العقوق..ها هي الابنة..ما أن وصلت إلى منصب كان من أحلامها حتى نصّبت من نفسها جلادا وقاضيا يحاسب من أحسنوا إليه على إساءة فرضها خياله وحسب..

فإليكِ ما ظننتِ أن إسعادك في ادراكه..أنا تزوجت من أبيكِ ولم نتفاهم يومًا..كان دائم الشكوى مثلك..ورغم هذا يردد دومًا أنني بعيدة عنه، وأني لم أحاول أن أفهمه..رغم أني كنت قد تقبلته على علته..كان يعيش بها ليلًا ونهارا ثم يرمي كل ما حوله بالنقص والخلل..

في ذلك اليوم فوجئت به يدخل المنزل فجرًا وهو يرتجف..كان محمومًا وأخذ يهذي..لم أكن أفهم من حديثه شيئاً..حاولت تهدئته لكني لم أفلح..ثم أخبرني في لهجة أرعبتني: أنه قتل أباه ..لم يقتله بالصيغة التي قد تتبادر إلى ذهنك أو إلى ذهني أنا وقتها ..بل قتلًا ضعيفًا إن صح أن يُسمَى كذلك..كان أبوه مريضًا بالقلب..تأتيه النوبات أحيانًا..ومريض القلب كما أعلم يجب أن يتناول جرعة دوائه وقت النوبة بلا تأخير وإلا قد تتعرض حياته لخطر محقق ، وما فعله هو أنه أبعد الدواء عن متناول أبيه دون أن يلاحظ ..لم أدر ما الذي استفزه منه وقتها فأدى به إلى هذا الفعل.. لكنه أخذ يهذي طويلًا بأنه قاتل وأشياء من هذا القبيل..

هدأ قليلًا بصعوبة وأقنعته أن ينام ..في الحقيقة لم أصدقه ..كنت أظن أنها تخيلات منبعثة من عقله الباطن، استيقظت فلم أجده..لم أجده أبدًا ولم يترك لي سوى رسالة نوّه فيها عن رغبته في الانتحار والخلاص بعيدًا عن الجميع..

هذا ما رغبتي بمعرفته وهذا هو أبوكِ..هذا هو أبوك الذي تركني ولم يتجاوز نموك بداخلي الشهر..لم نكن نعلم بأمر الجنين ..ولا أظن معرفته كانت لتغير شيئًا..لقد عاش بأوهامه التي لا أساس لها ومات بها..حتى في اعتقاده بأنه قاتل كان واهمُاً..إذ أنه بعد رحيله عاش أبوه أكثر من شهر قبل أن تطاله يد القدر..كيف لرجل عاقل أن يجزم أنه قاتل فقط لأنه قام بإخفاء الدواء لنوبة قد تأتي وقد لا تأتي ..

كنت أحيا معه في عذاب داخلي لا حد له..بعد رحيل والدك سافرت حيث أنجبتك أنتِ بعد أن تزوجت للمرة الثانية، ولم يعارض زوجي فكرة انتمائك له، وكنت قد سافرت عن محل إقامتي مع أبيك فلم ينتبه أحد إلى عمرك الحقيقي ولا وقت ميلادك..

فعلت كل هذا لأجلك..لكنك مثل أبيك..تختلقين أوهامًا من الألم تسجنين نفسك بها دون أن تشعري ..وتلقين بكل اللوم على العالم من حولك، لكن لا تنتهين أبدًا إلى ظلمك أنتِ لهم أو خذلانك إياهم..هذا ما وددتِ لو تعرفينه..وها أنا أخبرتك إياه..وها أنا أخبرك أيضًا..أنني لست على استعداد لأن أحيا مع ابنة عاقة..وأنه بإمكاني أن أعتبر أنني لم أنجب قط، وأن أحتسب سنواتي التي أنفقتها لأجلك إحسانًا أبتغي به وجه الله. "

كانت الدنيا تدور بلا هوادة ..أبيها قاتل ..لا..أبيها ليس بقاتل..هل مات وهو يعتقد واهمًا كذلك..هي ليست عاقة..تراها كذلك ..!

لماذا يا أمي طعَنْتِني بكل هذه الخناجر..حتى في رحيلك صورتِني عاقة، وقد ظللت أفتح ذراعاي لكِ طوال حياتي..

هل صحيح قد أحسنت أمها إليها وهي قابلت هذا بجفاء؟ أتكون كل رؤيتها للعالم ضبابية؟ هل هي مشوهة داخليًا؟..ربما هي مريضة مثلما تدعي والدتها فيما يخص أباها..لكن لماذا رحلت يا أبي ..؟ ألم تكن تعلم بوجودي..؟ ألم تكن تعلم أني سآتي إلى هذه الدنيا..وأحتاجك..أحتاجك جدًا الآن..

الدموع تتقاطر بلا توقف.

يقولون يا أبي: أنك مريض..وأنني عاقة..وأننا نختلق أوهامًا نسجن أنفسنا بها،..أترانا كذلك حقًا يا أبي؟..أين أنت لأسألك ؟..أين أنت لأرتمي بأحضانك وأصرخ بهذا العالم أننا لسنا كذلك؟..أو لندع العالم دون صراخ ، لندع العالم ونبني ذاك الوهم الذي يتحدثون عنه ونعيش به..أنا وأنت فقط..أنا وأنت فقط يا أبي..لكنك رحلت..رحلت وتركتني أواجه اتهاماتهم وحدي..رحلت وتركتني أكاد أصدقهم في أنهم هم المحسنون ونحن من جلبنا الوهم بخيالاتنا المريضة ..؟

أواه يا أبي..أكنت تظن أنك قاتل ولذا رحلت؟..لكن..لا أصدق يا أبي أن يد فنان كانت لتمتد إلى القتل ولو بتلك الطريقة الخفية..تلك اليد التي جسّدت المعاناة التي أشعر بها، أشعر بانتزاعي من ذاتي ..وأني مقيدة إلى هذا الجسد كرهًا..تلك اليد لم تكن آثمة..لأنها حين ظنت..فقط ظنت أنها أثمت امتدت لتخلص نفسها من الندم وعذاب الضمير..امتدت لتقتص من ذاتها فكيف تُراها تكون آثمة؟ ألا فليقولوا عنك ما يقولون فلن تبقى في نفسي إلا ملاكًا طاهرًا وفنانًا مرهفًا، ثم ما أدراني أن هذا حق وصدق؟ أنا لا أصدق سواك يا أبي..لكن أين أنت ؟ قل لي أين أنت؟ وسأسامحك على كل شيء..لا تتركني لهم يا أبي..لا تتركني هنا وحدي فالعالم مخيف، ولا أجد حضنًا آمنا..

- إلهام؟

لم تفطن إلى نداء وفاء المتكرر لها واستمرت الأفكار تتنازعها من كل جانب ولم تشعر إلا وجسدها يسقط بعنف لتغيب عن الوعي.

الفصل الثامن والعشرون

-هذا مستحيل.

ارتفع صوت وفاء وهي تخاطب حسام بالعبارة الأخيرة ..ثم هدأت قليلًا عندما اقترب منهما نادل المقهى ليدلي إليه حسام بطلبه.. وما أن ابتعد حتى أكملت في غضب تحجم فيه ارتفاع صوتها :

- أنا لا أصدق من الأساس أنك تتفوه بهذا..عمن تتحدث أنت؟

- اهدأي وفاء..أعلم أنها صديقتك ..لكن بمثل هذه الأمور نحن نتحدث بالمنطق وحسب الأمور واضحة يا وفاء..لا تجعلي العاطفة تعميكِ..

صمتت وفاء وهي غارقة في ذهولها فأكمل :

- أنا علمت كل شيء..

-ومن أخبرك؟

-لا يهم..إنما..

قاطعته بعصبية مكررة سؤالها الأخير فأجاب بعد لحظة يسيرة من التردد :

-سعيد..!

- وهل تثق به؟..أو ما علاقتك به من الأساس؟

- نحن لا نتحدث عن هذا يا وفاء..هو وجد مستنداتها لدى موقع الجريمة.. ولو أنه يريد أن يغرر بها لتركهم مكانهم ولم يهتم.

ضحكت وفاء في استهزاء :

- تريد إقناعي أنه فعل هذا لأجل إلهام ؟

- دعكِ منه يا وفاء.. اسمعيني أرجوكِ.. ما معنى وجود بصماتها على الملف الخاص بها في غرفة القتيلة ؟

-معنى أنها مستندات تخصها ومن الطبيعي..

-من الطبيعي أن تكون بصماتها ملطخة بدماء المجني عليها؟

قاطعها بجملته الأخيرة فصمتت وكأنما لا تريد أن تستسلم ولو لمناقشة اعتقاده..

قال في بطء:

- أعلم انكِ لا زلتِ تسألين عن الدافع ..وربما أنا ايضا أجهله..

-حسام ..

قاطعته بانفعال ثم غلبها البكاء رغما.. فقال يهدئها :

-أنا آسف لهذا.. لكنها الحقائق.

- ليست حقائق.. إلهام أنقى من الجميع.. يستحيل مجرد التفكير بهذا .. وكل من يتهمها بشيء إنما يتهم نفسه.

-أتفهم موقفك..لذا لن أعتب على ما تقولين.

- بل أعني ما أقول..ما علاقتك أنت بالمدعو سعيد هذا؟..أو لعله اختلق الأمر اختلاقًا وأنا أعلم أنه كان يسعى للحصول على ملف ما..أجزم بأن به ما يدينه.

- وفاء..

صمت قليلًا يفكر ثم أردف:

-لا أتهم إلهام بشيء ينفي نقاءها الذي تتحدثين عنه..

- ماذا إذًا؟

-هي ليست الفاعلة بالمعنى الحرفي ولكن..

نظر إلى عيني خطيبته ثم أكمل :

-إلهام مريضة لو تعلمين..

وقفت وفاء فجأة وقد بلغ بها السخط مبلغه:

-أية سخافات جئت تتفوه بها اليوم..ما بك ؟

اجلسها بهدوء كي لا يلفتا الأنظار وهو يقول :

- أنا لا أقول ما ليس بصالحها..على العكس..كونها مريضة قد يشفع لها..افهمي ..أنا لاحظت هذا منذ مدة..واستغربت إذ كيف لا تلاحظين أنتِ؟!

-لاحظت ماذا ؟

-سأخبرك بشيء لكن أرجو أن تتفهمي موقفي.

اومأت وفاء برأسها أن نعم فأكمل:

- كان سعيد قد لجأ لي يشتكي من مكابرة إلهام أن تقوم بتسليمه ملفات تخصه.. لكن ربما لم أعر هذا الأمر انتباهًا وقتها..وقد تحدثت إلى إلهام بخصوصه لاحقًا فثارت واختلفنا..مر بعض الوقت ولم تكن تذكر أني طلبت هذا منها أصلًا.

- حسام ..إنك لتتحدث بطريقة خيالية..أعرف ما ترمي إليه..إنك تعني أن إلهام فعلت هذا تحت سيطرة اللاشعور..أنها تعاني انفصامًا ما..اللعنة على كل هذه التخمينات التي لا ترتكز إلي أي أساس..

- ليست تخمينات..

- يمكن لأينا أن ينسى..أن يثور ويتجاهل..

-ليست تخمينات يا وفاء..أنا متأكد مما أقول.. بإمكاني أن أثبت لكِ.

كاد الجزع يفتك بها عقب جملته الأخيرة ..كانت تود الهروب من كل هذه الأفكار..ما شأنهم بصديقتها الملائكية.

أخرج حسام هاتفه وهو يقول:

- أعلم أنني قمت بشيء غير مشروع لكن..لا أعرف كيف أشرح لك..أو دعكِ من كل هذا وانظري..

عرض عليها عدة صور بالهاتف وهو يشرح قائلًا :

-.هذه المراسلات موجودة بنفس بريد الجهاز مما يعني أنها من شخص واحد .. ولنفس الشخص الواحد أيضًا..لو قرأتِها ستفهمين.

- وكيف اطلعت عليها؟..ومتى؟

-أدرك أنني أخطأت يا وفاء، لكن ليس هذا ما نتحدث به الآن.

- بل هذا ما نتحدث به..لماذا تركز فقط على إلقاء الشبهات على إلهام؟..لماذا لا تخبرني بسر علاقتك بسعيد؟..وكيف تجرؤ على اختراق أشياء شخصية ..؟ هل كنت تبحث عن مستندات سعيد..ولعله ذاك!

- لعلك تسرفين في الاتهام يا وفاء؟!

- بل أنت الذي شطح بك خيالك بعيدًا..إلهام أنقى منّا جميعًا..مني ومنك ومن الذي تسول له نفسه باتهامها.

قالتها وتركت مكانها غير آبهة بنداءاته..

كان غضبها وثورتها ليس لأجل كلماته وحسب..بل لشيء وقر في قلبها..تلك المحادثات البريدية لو كان حسام صادقًا -ربما عليها أن تتأكد بطريقتها- ..هروب إلهام غير مبرر..ذاك الغريب..والرسائل..آه يا صديقتي كم أسرف العالم في جريان تياره ضدك!

لكن لا..إلهام ليست هكذا..مستحيل أن تؤذي بشرًا..حتى لو ثبت سوء حالتها..لو ثبت هذا فحتى لو تقمصت ألف حالة لن يؤدي بها هذا لتؤذي بشرًا..

كانت تسير تتخبط أفكارها وهي لا تدري لمن تلجأ تحديدًا..لا يجب أن تخبر إلهام بالطبع، ستتصرف بطريقتها ..لكن ثمة خوف يلاحقها يحتاج من يقف إلى جوارها كي يقتلاه معًا دون أن يعبث أحد بأفكارهما..تحتاج أحدًا يؤمن بإلهام مثلما تؤمن هي بها..ولم يكن ثمة سواه..

الفصل التاسع والعشرون

-هل ترى أن هذا قرار سليم؟

قالها سيف وهو يسيطر على توتره، فأجابه جلال قائلًا:

- بالطبع.

-لكننا لا نمتلك دليلًا واحدًا أنه أحد أعوانه.

-أو أنه هو شخصيًا.

- تقرير الطب الشرعي أطاح بالكثير من تحليلاتنا.

- أو ربما هو سبيل للحقيقة..فلو كان سبب الوفاة هو الجرعة الزائدة فهذا قد يميط اللثام قليلًا عن وقت الجريمة.

-تقصد أنها قبل العاشرة؟

-نعم..

- ولكن هل يلجأ القاتل لطريقتين؟ أم هل تعمد هذا لتضليل اتجاه الأدلة.

- لا أظن أنه تعمد هذا من الأساس بغرض التضليل..لكن ربما لم يتأكد من تناولها لتلك المادة.. ربما كان حريصًا على قتلها وغير خطته.

- هل هذا يؤكد لنا أنه شخص غير قريب منها..ليست نجاة مثلًا..إذ أنها كانت لتتأكد من تناول مادة الفينوباربتال تلك.

- او لعل تناولها لها..كان خطئًا شخصيًا منها لا يعلم عنه القاتل شيئًا.

قالها جلال ثم أكمل بعد لحظة صمت :

-ثمة أشياء بدأت تتضح لي بهذه القضية..وإن كانت هذه الأشياء لا زالت تفتقر إلى علاقتها بالمجني عليها.

-معك حق..حتى الآن ليس ثمة دافع لقتلها من أي طرف.

-جيد أنك أخبرتني بذلك الأمر..كنت على قدر ثقتي يا صديقي.

شرد جلال وهو يفكر كيف نقض وعده لإلهام ..كان قد أخبر جلال بكل ما يعرفه بشأن سعيد وحسام .. خصوصا وقد ازداد قلقه بعد أن قصت عليه وفاء ما حدث بلقائها الأخير مع حسام..لا يدري هل يدفعون بها لوهم لتصدقه..أم ..؟

-سيف.. لماذا الشرود؟

-لا لشيء.. كيف كانت أقوال سعيد وحسام عند الاستجواب؟

- حسام كان ساخطًا لأقصى حد لقرار الحبس الاحتياطي، أعتقد أنه ظن أن وفاء هي السبب وراء هذا .

ابتسم سيف رغمًا عنه ثم سأل:

-والآخر؟

-سعيد أنكر وجود الملف معه..لكنه سيعترف قريبًا.

بدت على وجه سيف إمارات الاستفهام فقال جلال :

- سترى بنفسك..لا بد من المخاطرة أحيانًا.

أتم جملته ثم أمر الحاجب، أن يسمح لأمينة بالدخول.. تقدمت في بطء وهى تنقل بصرها بين الرجلين ثم جلست في مواجهة سيف بعد أن دعاها جلال

-لماذا أخفيتِ سبب انفصالك عن العمل مع سعيد ؟

بدا وكأنما يباغتها بلا مقدمات لينتشل إجابة شافية.

ترددت ولم تجب فكرر سؤاله..

-سيدي..في الحقيقة كنت على وشك بدء حياة جديدة لا تصلح بذلك الماضي.. أنا أعلم كوني مخطئة لكن.. كنت مستعدة لأي شيء مقابل نسيان وإعدام ذلك الماضي بعد أن شفيت منه..

- هل كان التعاطي وحده هو ما ترغبين بإعدامه ؟

حملقت فيه وهي تقول بصعوبة :

-لا أفهم.

-ألم تأتيك رغبة بالخلاص من شيء آخر..من اسم شخص مثلًا؟

صمتت فقال في ثقة تعجب لها سيف :

-ثقي أن تعاونك معنا سيكون بصفك أنت.. وإلا..قولي لي ..ألم تكوني على علم أن سعيد هو ناجي الشيمي نفسه؟

-ربما لا شيء هناك يجعلني أبدو صادقة..لكني أولًا لم أكن أعلم.

-وثانيًا؟

-أدركت كل هذا بعد أن كنت طوع أمره.. أساعده رغمًا عني لأنه يمنحني تلك السموم التي لن أحصل عليها بدونه.. وفي قمة الاستعباد ذلك قررت أن أتحرر.. لكن الماضي لا ينتهي..لا ينتهي أبدًا..

تنهد جلال في نشوة وهو يبادل سيف النظرات ثم قال:

-سأستدعيك بعد قليل..لو ساعدتنا فيما سنطلبه منك..سيُعدمُ ذلك الماضي تمامًا.

اومأت برأسها في ارتباك ثم أشار لها بالانصراف، وما أن خلا بسيف حتى صفق الأخير بانبهار وهو يقول :

-لم أكن أتصور.

- ثمة خيوط ناقصة.. ولا يتيح الواقع تجميعها ..لذا علينا أن نتخيل الناقص ثم نبحث عنه.

-وأعود لأسالك السؤال ذاته..هل هذا يجعل إلهام بعيدة عن الشبهة ؟

-يؤسفني ألا استطيع إجابتك الآن..فلو ثبت وجود تلك البصمات.. فسنحتاج تفسيرًا حتمًا.. ثم حتى الآن لم نجد دافع الجريمة بعد..و..

صمت وهو ينظر إلى سيف ثم غير مجرى كلامه قائلًا:

-ثمة علامات استفهام كثيرة..الجريمة لا تزال مبهمة الدافع والوقت والخيط الذي نمسك به الآن هو ناجي الشيمي..حينها قد نوفر من الجهد الكثير.

أطرق سيف ثم قال :

-هل انحصر مجال الاتهام في..

ثم بتر عبارته فأكمل جلال قائلًا:

-محمود كان أداة لصرف الانتباه وثبت وجوده بمكان عمله دون مغادرته إياه..لذا سنكون استبعدنا اثنين.

-تقصد الحاج اسماعيل؟

-نعم ، وأمينة ونجاة ووفاء لا شبهات حولهن.

صمت قليلاً ثم مال نحو سيف وهو يقول:

-لا تقلق سيكون كل شيء على ما يرام.

تجاهل سيف كلماته وسأل:

-هل نجاة قد ذكرت أن المجني عليها اعتادت أن تتناول أقراصًا منومة مثلًا قبل الذهاب إلى الفراش؟

بدا على جلال بعض الشرود ثم أجاب أن لا..

فنهض سيف على حين غرة وهو يقول:

-أرغب بإذن منك في معاينة مكان الجريمة ..

الفصل الثلاثون

غطت إلهام وجهها بكفيها بعد دقائق من الانفعال.. فاقتربت منها وفاء قائلة وهي تضمها برفق :

-صدقا ليس هناك داعٍ لهذا القلق..ستكون الأمور على ما يرام..فقط هي مسألة وقت

كانت إلهام لم تطق صبرا ان قصت على وفاء كل ما يعتمل بنفسها وبدت الأخيرة تحاول تهدئتها رغم أنها كانت اكثر قلقا منها..فيبدو أن كلام حسام الاخير بشأن البصمات على جانب من الصواب

- تعلمين يا صديقتي ..

قالتها إلهام وهي ترفع وجهها وأكملت :

-الغريب أني ادرك تمامًا عدم فعلي لشيء.. لكن يتملكني شعور غريب بعدم القدرة على مواجهة الأمر.. إذ أن لو سألني أحدهم عن تورطي بهذا سألتزم الصمت..

- ولن يسألك أحد عن هذا.. يجب أن تتحلي ببعض الثقة.

وقفت إلهام وهي تضحك بمرارة:

-إلا هذه .. لا أظن أنه من العدل أن يطالبني بها أحدهم..

قالت وفاء وكأنما تود تغيير الموضوع :

- هل أخبرك سيف بسير القضية ؟

تجاهلت إلهام السؤال واكملت :

- لا يأنف المرء بهذه اللحظات خصيصا أن يذكر نقاط ضعفه وهو منتشيًا بعض الشيء..بل يسكب ضعفه دفعة واحدة.. وفيمَ الحرص على شيء ؟

- بربك لا تعودي لهذا.. ألم نبدأ خطوات جيدة نحو مستقبل لا يتطلع لذاك الماضي ؟

- لهذا الماضي.. لا لذاك .. لا تتحدثي عنه بصيغة البعيد.

-ما الذي يدعو لهذا الحديث ثانيةً ؟

قالتها وفاء بعصبية ثم أكملت :

- كل شيء سيكون على ما يرام..عاجلًا أم آجلًا ستضح الحقيقة..

- الحقيقة ؟..لا.

- ماذا تعنين؟

-لا شيء.. كل شيء على ما يرام فعلًا.

اقتربت وفاء من إلهام وسألتها بخفوت :

-ماذا هناك ؟

-لا شيء حقًا..

استبد ذلك القلق بوفاء من جديد ..

كانت إلهام تتصرف بغموض في الآونة الأخيرة.. لم تكن قد أخبرتها بأمر رسالة والدتها الأخيرة حتى ..

-أصبحت تخفين عنى الكثير يا إلهام ..

بدا الاندهاش على وجه إلهام وهي ترد في شيء من اللوم الواضح في نبرتها :

- ومنذ متى تعتقدين هذا ؟.. تعلمين يا وفاء أننا..

ثم بترت عبارتها إثر خاطر غزا قلبها..وأكملت :

- ربما يا صديقتي ..ربما..

-لا أقصد شيئًا يا إلهام ..إنما أنا أعنى..

-لا عليك.. أعلم.

قاطعتها إلهام بجملتها قبل أن يسود بينهما الصمت لدقائق مرت ثقيلة ولم يقطعها سوى صوت جرس الباب لتفتح وفاء لسارة الباب في ابتسامة جاهدت حتى ترسمها..

لاحظت سارة الوجوم الذي يطغى على وجههما فبادرت :

- ماذا هناك ؟

أشاحت إلهام بوجهها ولم تتفوه بشيء.. فقالت وفاء في محاولة فاشلة لمداراة الأمر :

-لا شيء..

كانت سارة تواجه إلهام بعينيها وكأنما تستشف ما ينطقان به.. اقتربت منها في الفترة الأخيرة بطريقة اندفاعية غريبة..إلا أنه ثمة فجوة ما.. أو لعله ذلك الهروب الذي نتعمده تجاه مخبأ استودعناه أسرارنا ذات بوح..

وقفت وفاء فجأة وكأنما تذكرت شيئًا ما ثم قالت موجهة حديثها لإلهام :

-هل أحضرت أغراضك بالكامل هنا ؟

-أحضرت ما أحتاج إليه..

اكتفت وفاء بإيماءة من رأسها ثم استأذنتهما للخروج دون انتظار للرد حتى

وما إن أغلقت الباب وراءها حتى تقدمت سارة لتجلس إلى جوار إلهام قائلة :

-كيف حالك حقًا ؟

ارتبكت إلهام لهذه الصيغة ونهضت وهي تفتعل إجابة عادية :

-بخير، ماذا عنكِ ؟

- إنما أسألك كيف حالك حقًا ؟

لا تعلم إلهام لمَ كانت مرتبكة هكذا..

- لو تعنين بشأن القضية ..فلعل الوضع يسوء.

-وماذا عنكِ أنت ِ شخصيًا ؟

-ماذا تعنين ؟

ترددت سارة للحظة ثم قالت :

-ما الذي قد ساء في القضية أخيرًا ؟

كانت إلهام لا تدري هل الصواب هو أن تخبر الجميع هكذا.. أم عليها أن تخفي هذا الأمر الخاص بالبصمات والذي كانت تثق أنه سيُعرف بين الجميع عاجلًا أم آجلًا..

وأخيرًا قررت أن تخبرها..

الفصل الحادي والثلاثون

From:SalmaSalah111@gmail.com

To:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

Data:14December

Subject:

إن كنتِ ستقرئين _يومًا_ ما كتبته أنا سابقًا..

فانسي الأمر..

نعم..انسي الأمر..

ربما كنت أهذي..

أو لعلها بعض الذكريات قد طفت على قلبي..

الآن أنا بخير..

وأقولها بملء كياني..

أنا بخير..

المنظار الوردي عاد يعمل من جديد..

آمنت بكل ما خاطبْتِني به في بادئ الأمر..

بإمكاننا تهذيب الطريق..وبإمكاننا المضي قِدمًا..

الانسياق وراء الترهات لا يجلب سوى الأسى..

علينا أن نرى الحياة بالبساطة التي يرونها هم بها..

علينا أن نبتسم..

ولمَ لا ؟!

غريبة هي الدنيا حين تطيح بنا في أقصى اتجاه رفضناه..

لكني بخير..ـإن كان يهمك الأمرـ

إن لحظات السلام النفسي هذه محيرة..

لا يعرف المرء إن كانت هذه اللحظات ستسمح لسفينته بالعبور أم ستمهد لها السير في طريق العاصفة الموقوتة.

لكن لا..

لن أعود لعدم الثقة في لحظات السعادة..

الآن أنا بخير..

صدقي هذا لأجلي..

لا أحد يطاردني..ولا شيء من هذا القبيل..

لا شيء سوى السكون..

سكون يطغى على الأفكار والمشاعر..

وصحوة غريبة..

صحوة لا يدرك المرء من أين استمد عنفوانها..

كانت هذه هي الرسالة التي تصفحتها وفاء..واستمرت دقات قلبها تتسارع بلا هوادة.. لعل سعيد هو المذنب..ألا ليته هو..

كانت الرسائل تشير إلى شيء لا تتمنى وفاء أن تصدقه..

كان عليها أن تنتهي مما بدأت وربما تعود إلهام خلال دقائق..

فقامت بطباعة الرسالة الأخيرة التي لم تقرأها وما إن فعلت حتى سمعت صوت المفاتيح بباب الشقة فخرجت مسرعة بعد أن سحبت الرسالة للتو..

التقت بإلهام فحيتها تحية سريعة ثم قالت وهي تجاهد لتخفي ارتباكها :

- حسام هاتفني للتو.. لن أتأخر.

تعجبت إلهام من ارتباك صديقتها ولم تعلق.. وما أن دلفت إلى غرفتها حتى فوجئت بجهاز الحاسوب خاصتها مضاء.

تصفحته بهدوء ففوجئت برسائل البريد.. ترى منذ متى لم تقم بتصفحها ؟.. أمسكت برأسها فجأة وكأنما داهمها صداع مفاجئ.

كانت الرسالة الأخيرة بالبريد مفتوحة أمامها..

From:SalmaSalah111@gmail.com

To:Elhampsychoinquiry.org@gmail.com

January5:Data

Subject:

كان يومًا غريبًا..

لعلي كنت بعدها أضغط يداي عمدًا كي أزيل عنهما أثر ما لمست..

قمت بهذا نعم.

وصدقًا..لا أدري لماذا..؟

كانت الأشياء كلها غريبة..

رائحة الدماء لا تزال تحيط بي..

بريئة..

أرى في عيونهم أني بريئة فعلًا..

لكني أدركت الآن أن ليس كل ما نعتقده صحيحًا.. وليس كل ما نؤمن بوجوده صحيحًا..

لعلى أدرك ذنبي الآن..

أن أقتل سيدة دون ذنب ..

لكن ؟

لعلي لن أعترف كي لا أفقد المودة في عيونهم..

لعلي لا أود هذا حقًا.

وإن كنت لا زلت أجهل لماذا استمر بمراسلات سخيفة لنفسي..

أم تراني أود التشبث بصورتي النقية..

تلك الصورة غير الملطخة بدماء الإثم اللا مُبَرر..

الفصل الثاني والثلاثون

خطا سيف أولى خطواته بشقة "مدام سناء" أو المجني عليها كما اعتاد سماع هذا بعد أن ترك العسكري..

فتح باب الغرفة التي شهدت الجريمة.. بدا السكون يضفي الحزن على كل الأثاث الجامد في مواجهة حقيقة صامتة..

كانت الغرفة لا تحتوي إلا على قطع الأثاث المعدودة..سرير متوسط الحجم..وخزانة للملابس.. ومنضدة صغيرة بجوار السرير تحمل بعض الأقراص وكأسًا ممتلئاً حتى النصف بالماء.. راح سيف يفحص الأدوية في اهتمام.. ليس ثمة ما يريب..كلها من نوع المسكنات المتداولة..

كان يرجو لو تنطق الغرفة بشيء.. لو تشي بما رأت.

كان يدرك أن القضية معقدة ..رغم أنه يثق تمام الثقة أنه يعرف الجاني.. لكن الدليل.. !

عاد يفحص الغرفة في هدوء وهو يحدث نفسه :

- كيف وصلت بصمات إلهام إلى هنا؟ ..أو لعل بصمات المجني عليها هي التي وصلت عند إلهام ؟.. لكن الدماء؟؟

ولماذا سلاح الجريمة عند محمود ؟؟

لا تستطيع نجاة أن تسدد تلك الطعنة ..لكن ..الجرح ليس غائرًا حد القتل..

لماذا يلجأ القاتل لطريقتين، هل ثمة من هو حريص على مقتل هذه المرأة لدرجة المغامرة مرتين ؟؟؟

راح يتأمل السرير من جديد والتفكير يفتك به

لكنها لم تكن نائمة هنا حين لفظت أنفاسها..لعلها لم تمت من الطريقة الأولى، لكن ..لو كان ثمة عراك نشب بينها وبين القاتل.. لماذا لا يظهر أثر هذا على نزيف الجرح حتى ..؟؟

لم تنطق الغرفة..ولم يحظ بالدليل الذي يسعى له..

خرج على مضض ووقف بالهو زائغ النظرات..

إلهام لم تكن لتقع في شبهة كهذه.. مجرد الشبهة لا تستحق أن تطال اسمها.. ليس فقط لأنها تخصه..لكنها لا تستحق كل هذا.. كان قد بدأ يعتقد حقًا في وجود اضطراب نفسي لديها بعد حديث وفاء الأخير له ..لكن.. حتى لو كانت هكذا..فثمة خيط ناقص..

تمالك أعصابه وراح يشغل نفسه بتأمل الأدراج الخشبية التي تعلوها مرآة من طراز قديم ..

لكن كل شيء كان منسق بعناية.. حتى تلك الأكواب المزخرفة.. لا يمكن أن تحرص نجاة على هذا النظام بدقة لو كانت فعلًا تنوي شيئًا ..

هل يمكن أن تنطق الأشياء أحيانًا..

التقط بصره كوبًا يختلف عن تلك الموضوعة إلى جواره.. أمسك به ملاحظًا لرداءة خامته ..

ثم انتبه على صوت العسكري بالخارج يسعل، وكأنما قد بلغ به الملل من الانتظار مبلغه..

خرج سيف وما أن خطا خطوة خارج شقة المجني عليها حتى خطر له خاطر ما..

كان عليه أن يلجأ لوسائله هو هذه المرة..

طلب من العسكري أن ينتظره لدقائق..ثم صعد الدرج في خطوات سريعة وطرق الباب وما هي إلا لحظات حتى أطل وجه أمينة في شيء من الاستغراب..

دعته للدخول أخيرًا..

كان المكان نظيفًا رغم رداءة أثاثه..

مقعدين يتسع كلا منهما لشخص واحد.. ومنضدة صغيرة الحجم إلى جانبها أريكة مهترئة بعض الشيء ترتكز عليها سيدة يبدو من الوهلة الأولى أنها لا تعي ما حولها..

- هل من مساعدة أستطيع أن أقدمها لك يا سيدي؟

قالتها أمينة لتقطع عليه تأملاته مشيرة إليه بالجلوس..

فجلس دون تردد وهو يقول :

- آنسة أمينة.. فقط كنت أود طلب مساعدتك بأمر ما..

نظرت إليه مستفهمة ولم تعقب وكأنما تنتظر تتمة لحديثه فأكمل :

-هل لاحظتِ شيئًا غريبًا على أحدهم خلال الفترة الأخيرة؟

-لا أدري ماذا تعني ؟

مرر سيف يده على جانب وجهه وهو يقول :

- أعني لو كان بإمكانك ملاحظة شيء ما ..

حارت أمينة كيف تجيب إذ كانت أسئلته غريبة الصيغة.. فصمتت قليلًا ثم قالت:

-وإن كنت لا أعرف ماذا تعني ..لكني لم ألحظ شيئًا غريبًا على أحدهم خلال الفترة الأخيرة..أما أمر سعيد فأخالك تعرفه..

-هل تعتقدين أنه الفاعل؟

- أنا لا أعتقد لكن..لا أدري.. لم ألحظ فعلًا شيئًا غريبًا على أحدهم ..و..

بترت جملتها وهي تتجه ناحية العجوز وتعالج أدويتها لتناولها أحد الأقراص وهي تتجه ببصرها ناحية سيف مكملة:

-ربما ..

صمتت حتى استحثها قائلًا وقد لمعت عينيه بوميض مفاجئ :

-ربما ماذا؟

-الدكتورة إلهام.. في الحقيقة كانت تتصرف بغرابة قليلًا..

نهض كأنما لم ينتبه لجملتها الأخيرة وقد بدا عليه شرود عميق..

فتركت الكوب على المنضدة وهي تتجه إليه قائلة :

-هل قلت ما يسوء ؟..أنا لا أقصد..

قاطعها مبتسمًا:

-لا عليكِ..

خرج بخطوات وئيدة وذهنه يعمل بلا توقف..كانت ثمة خيوط كثيرة ناقصة.. لكنها ستظهر..لا بد..

عرف وأدرك وجهته القادمة ..

نجاة..

الفصل الثالث والثلاثون

-لا تقلقي..

قالها سيف مطمئنًا سارة التي جلست بمكتب النائب العام بعد أن استدعاها جلال .. كانت الساعات التي قضتها إلهام بين خروجها من مسكنها ليلة الجريمة، وبين وصولها لسارة تثير الاستفهام لدى جلال..

وكان سيف قد وصل للتو..

-لا نعرف أين إلهام الآن يا سيف.

قالها جلال بلهجة ذات مغزى ولكن لم يبد على سيف أي امتعاض.

وقال:

-لعلك لن تحتاج لهذا.. أو لعلها ستأتي آمنة من تلقاء نفسها..

- وما أدراك؟

نطقت سارة السؤال الأخير بعفوية.. كانت قد أدركت الكثير من أمر إلهام.. وذهبت بها الظنون مذهبها..

ابتسم سيف بثقة وهو يقول :

-كُشف اللثام عن الأمر.. ولا داعي للقلق على إلهام.

- ماذا تعني؟..هل توصلت إلى الفاعل ؟

-نعم.

قالها بهدوء استفز جلال تحديدًا فبدا عصبيًا وهو يقول:

-تحدث!

نهض سيف ببطء وراح يمشي عدة خطوات ثم قال :

-كان كل ما يحيرنا هو افتقار الدافع إلى الجريمة.. ربما كان هذا هو طرف الخيط الذي يجب أن نبدأ منه.

صمت قليلًا فقال جلال في نفاد صبر:

أكمل دون توقف .. نحن نستمع.

- لم يكن أمامنا سوى أقوال المتهمين.. ولا دلائل أخرى.. حتى وجود سلاح الجريمة لدى الشاب المدعو محمود لم يكن ليغير شيئاً.. فلا ينفي عنه الشبهة تمامًا ..ولا يدينه تمامًا.. لكن سعيد قال أنه سمع وقع أقدام محمود فعلًا.. وإن كانت الجريمة حدثت قبل العاشرة-وسنسلم بهذا حسب تقرير الطب الشرعي- فلا مكان لإدانة محمود.

وإن رأينا أن نستبعد الحاج اسماعيل ومحمود.. فلعلنا ننظر باتجاه أمينة..غادرت في العاشرة وعادت في الحادية عشرة وشاهدت نجاة .. ونجاة غادرت في الحادية عشرة أي وقت عودة أمينة..

-هل تشتبه بأي منهما؟

قالتها سارة مقاطعة إياه فأكمل :

- ومع هذا لا دافع لدى إحداهما للقيام بجريمة كهذه..

-وماذا عن وفاء والهام؟

قالها جلال فبادره سيف بابتسامة وهو يقول :

-لو كانت وفاء آخر من رأى القتيلة قبل نجاة فهذا يخرجها من دائرة الشك.. إذ إن هناك شهود على مغادرتها.. وإلهام لم تكن موجودة وقت الجريمة - إذ أن هناك شهود أيضًا على خروجها قبل العاشرة.

-لكن يا سيف إلهام عادت مرة أخرى بناء على أقوال سعيد.. وهي كانت موجودة قبل العاشرة أيضًا هذا لا ينفي عنها شيء..

رد سيف على تعقيب جلال قائلًا :

-أعلم هذا.. وأعلم أيضًا أن ثبوت بصماتها يدينها.. لكن .. أعترف أيضًا أن إلهام مريضة باضطراب الفصام.. ولا أنكر هذا.

فغرت سارة فاهًا واضعة يدها على فمها لتمنع شهقة عالية.

وبدا على جلال الاهتمام فقال سيف:

-لا أنكر هذا.. لكن كانت هذه هي الثغرة التي استخدمها أحدهم ضدها..

ولو عدنا لحديثنا عن المتهمين .. وأهمهم سعيد.. أو ناجي الشيمي .. رغم أن هذا يضع حوله علامات الاستفهام ألا أنه يمنحنا أيضًا علامات الاستفهام.. أو تحديدًا يزج بحسام في الصورة مع المتهمين.

-هل ثمة دليل أن سعيد هو القاتل؟

-لكني لم أقل هذا.. إنها جريمة غريبة من نوعها.

-من هو إذًا؟

-ومع ذلك لم أقل أن سعيد ليس هو الفاعل.. اسمعني جيدًا..

وقت الجريمة كان قبل الثانية عشرة.

-الطب الشرعي أثبت عكس هذا.

-الطب الشرعي محق.

تعلق بصر جلال وسارة بسيف وقد نفد صبرهما فقال الأخير:

-هل تدعونني أكمل ؟

أومأ كليهما إيجابًا فقال:

-كان لدينا عدة أسئلة..أهمها السؤال عن الدافع.. وكذلك هل نتائج التحقيق صادقة أم مفتعلة ؟..هل سمع سعيد صوت محمود أو إلهام حقًا مثلًا ؟

محمود أيضًا يقول: أنه سمع صوت السيدة سناء عاليًا تتحدث إلى نجاة..هل هذا يوحي بشيء..؟

أمينة أيضًا ذكرت ملاحظة عن شجار إلهام وحسام.. ولم يتحدث أحد آخر عن هذا.. لنسلم أن هذا كله كان صادقًا.. فمن يتبقى لدينا في ساحة الاتهام..؟ إلهام.. وسعيد .. وحسام ..وأمينة .. ونجاة..

وقد تعمدت ذكر إلهام أولًا..

بصماتها حقيقية على المستندات التي أقر بها ناجي الشيمي أخيرًا.. لكن ما الذي يدفع بالمستندات إلى مكان المجني عليها؟

يبدو الأمر وكأننا نسير في حلقة مفرغة ..

لكننا نعلم حرص سعيد على وجود هذه المستندات بين يديه وإلحاحه في طلبها..

ولندع سؤالنا عن سر وجود هذا المستند بشقة المجني عليها لنعود إليه لاحقًا..

هل كان الدافع هو الحصول على المستند ؟؟ ..ولو صح فعلًا..فإن سعيد لا يمكن أن يكون قد ارتكب الجريمة قبل العاشرة..فثمة أكثر من شاهد..

إذًا لنقول - ولو مؤقتًا - أن الجريمة تمت بعد ذلك الوقت.. قبل الثانية عشرة.. لم تكن وفاء هناك..ولا محمود.. ولا أمينة.. ولا نجاة حتى.. هبط سعيد وفعل فعلته ..

قاطعه جلال :

-تحليلك يفتقر إلى المنطق ..الجريمة لم تحدث بعد العاشرة.

أطرق سيف وهو يكمل :

-لنفترض أن سعيد هبط وفعل فعلته.. ثم أثناء وجوده بغرفة المجني عليها.. عادت إلهام.. وكانت تبحث عن المستندات فعلًا قبل ذهابها لسارة - ولنفترض أنها لم تذكر هذا بسبب حالتها -

سمعت تلك الضجة فدخلت.. وربما لم تر القاتل ..وجدت مستنداتها أرضًا ..أو فحصت السيدة.. هذه كلها احتمالات.. ثم هرعت بعيدًا مثلًا ..أو لعلها شاهدت سعيد - وقد ذكر هذا عابرًا - وربما هذا ما دعاه لتهديدها بالبصمات.. إذ كيف وصل المستند ليده وقد أقرت نجاة أنه لم يعبر لغرفة السيدة بعد اكتشاف الجريمة ..

-اذًا تعتقد أن سعيد هو القاتل؟

-لنفترض أنه أخفى سلاح الجريمة لدي محمود.. ولنفترض أيضًا أن أمينة لم تكن تعلم بأمر حصوله على المستندات..

ونعود لنتذكر طلب أمينة لتلك المستندات من إلهام قبيل خروجها في التاسعة والنصف تقريبًا..أي أنه في هذا الوقت كانت أمينة تظن أن المستندات بحوزة إلهام..ولكننا نتذكر أيضا أن أمينة لم تطالب بهذه المستندات مجددًا..فهل كانت على علم بمكانها..

-وإن كانت شريكته فعلًا.. أعني إن كانت أمينة شريكة سعيد.. كيف تم القتل أثناء خروجها؟

بادرت سارة بهذا السؤال فأجاب جلال :

-القتل لم يحدث إلا قبل العاشرة.

-أنت محق يا صديقي.

قالها سيف وهو يتأمل اندهاشهم فابتسم رغمًا عنه وقال :

-القتل حدث قبل العاشرة فعلًا.

قال جلال في عدم فهم:

-وكل هذا التحليل عن إدانة سعيد!

-سعيد لم يقتل.

لم يكد سيف يتم جملته حتى طرق الباب العسكري ثم مثل أمام وكيل النائب العام وهو يقول :

-المتهم المدعو سعيد يحدث شغب يا سيدي يقول أن لديه اعترافا بالقتل.

تنهد جلال وهو ينظر إلى سيف ثم قال موجهًا حديثه للعسكري:

-دقائق وسأطلب استدعاءه.

وما أن أغلق العسكري الباب خلفه حتى نظر جلال إلى سيف قائلًا :

-وما قولك الآن؟

جلس سيف بهدوء وهو يقول:

-لا تعارُض.. سعيد قام بتلك الطعنة فعلًا..

هب سيف من مقعده مرة أخرى مكملًا :

-لا داعي للحيرة.. قد ذكر التقرير أمرًا ما عن جرعة زائدة من أقراص منومة أدت زيادتها إلى التسمم ..وهذا ما لم تقل نجاة أن السيدة معتادة عليه.. لكن حين لقائي الأخير بها، قالت إنها أحيانا ما تتناوله حين ذهبت لشقة السيدة سناء لاحظت أن الكأس الموضوع بغرفتها به مياه عادية ..لا أثر للأقراص..والمفترض لو أنها تناولت شيئًا قبل النوم مثلًا فمن المنطقي أن يكون بغرفتها..

لفت نظري كوب غريب الشكل يختلف في شكله ورداءة خامته عن الأكواب المتراصة بجانبه..

وقد لا يبدو الأمر غريبًا جدًا.. لكنه يبدو غريبًا حين أتأكد من وجود مثل هذا الكوب في يد أمينة ..

ليست صدفة أبدًا..

تفحص سيف وجه مستمعيه ثم أكمل:

-حيرتني كثيرًا مسألة عدم نزيف الجرح..لكن لا تفسير لها سوى شيء واحد فقط ..أن الطعنة كانت بعد موت المجني عليها بالفعل..

كذلك وجود الجثة بجانب السرير؟؟

الحقيقة أن سعيد يعتقد أنه القاتل بالفعل وأنه خطط للقتل بالفعل، لكن..حين طعن غريمته.. لم يكن يدرك أنها لفظت أنفاسها الأخيرة منذ ساعتين تقريبًا..

-هل تعني أن هناك قاتلين؟

-أو أكثر..

صمت قليلًا وسط ترقبهم ثم أضاف :

-نعود لأمر المستندات.. وهي حلقة الوصل بين الجميع.. قالت إلهام لي آنفًا أنه ليس بإمكان أحد العبث بأشيائها الخاصة سوى نجاة..حين تركن إلى تنظيف المكان..

وهي لا تشتبه بها قائلة أنها فتاة ساذجة.. وعلى افتراض رأي إلهام الأخير.. فإن بإمكان أحدهم أن يطلب من نجاة إحضار المستندات..

قاطعته سارة متسائلة:

-ولو كانت نجاة ستقوم بتسليمها لأحدهم ..ما سر بصمات المجني عليها ؟

-لعل هذا يفسره لنا ما سمعه محمود من شجار المجني عليها مع نجاة.

سأله جلال :

-تقصد أن المجني عليها اكتشفت أمر سرقة نجاة للمستندات فقامت نجاة ب..

قاطعه سيف قائلًا :

-ليس هذا داعيًا للقتل.. خصوصًا أن نجاة لا يهمها أمر المستندات في شيء.. إلا ربما إغراء مادي من أحدهم..ولعلنا نذكر من احتاج إلى نقود في الفترة الأخيرة.

- هل تقصد أمينة ؟

- نعم.. أمينة طلبت من نجاة إحضار المستندات مقابل مكافأة مادية..

قاطعه جلال :

-لكن كيف وقد طلبت أمينة تلك المستندات من إلهام حين عودتها؟

-لعلها لم تكن تعرف بعد أن نجاة حصلت عليهم بالفعل.. وأظن أن نجاة أخبرتها بهذا بعد خروج إلهام.. وأخبرتها كذلك بموقف السيدة سناء من الأمر.. بالطبع لا ترغب أمينة باكتشاف أمر المستندات أو أن لها يدًا في السرقة.

سألته سارة في شرود :

-هل تعني أن أمينة ونجاة شريكتين ؟

-ليس تحديدًا.. نجاة لم تكن تعرف الأمر.. ذلك الكوب بالطبع أعطتها إياه أمينة .. كانت نجاة تعتقد أنه مجرد منوم وهذا ما قالته بعد تغيير أقوالها..ولم يكن من العسير على أمينة الحصول على هذه الأقراص..إذ إن جرعاتها المحدودة يتناولها كبار السن دون ضرر.

- لكن وفاء تحدثت إلى نجاة قبل العاشرة بدقائق.

ألقى جلال الأمين سؤاله فأجاب سيف:

-لكنها لم تقابل المجني عليها حين طرقت الباب.. ولو صح ما أسلفنا ذكره.. فإن السيدة قد عانت تلك الآلام التي فوجئت بها نجاة بعد ذهاب

وفاء فعزمت على المغادرة .. وهذا يفسر سر وجود الجثمان بجوار السرير.. وعدم نزيف الجرح..

- لكن ألم تقل أن رغبة أمينة وسعيد واحدة..؟ ألم تخبره أمينة بأمر المستندات وحصولها عليها ؟

-لا يعلم سعيد حتى الآن أن أمينة هي الفاعلة.. وهي تركن إلى هذا.. لابد أنها أخبرته بوقوع المستندات بيد الضحية، لكنها لم تخبره بما فعلت لاسترجاعها بالضبط..

الكوب كان هو الخيط الذي أخذني لهذا كله..

صمت جلال قليلًا وكأنما يستوعب كل ما..

شرحه سيف ثم قال :

-إذًا خططت أمينة للحصول على المستندات عن طريق نجاة..عادت إلهام لتبحث عنها فلم تجدها.. وقد سألتها أمينة عنها إذ لم تكن تعلم بحصول نجاة عليها بعد..أو لتدفع تهمة السرقة عن نفسها لاحقًا..تذهب إلهام وتأتي نجاة لتخبر أمينة بأمر شجارها مع سيدتها.. تجهز أمينة خطتها سريعة دون أن تخبر نجاة بما تعزم عليه لتضمن تنفيذها..

وحتى هذا الوقت تفعل نجاة ما تطلبه أمينة منها..

تعود وفاء لتبحث عن إلهام، وتتحدث إلى مدام سناء وتلاحظ إرهاقها.. ثم تتحدث إلى نجاة قبل رحيلها في حين كانت المجني عليها تعالج سكراتها .. الأمر الذي أدركته نجاة فذهبت تغادر دون أن تحضر المستندات حتى.. ولو أسلمنا بهذا الأمر فإنه من المنطقي أن تغادر نجاة قبل الحادية عشرة، لكن أمينة تقول إنها شاهدتها تغادر فعلًا في الحادية عشرة، وقد يكون هذا هو ما حدث فعلًا أو هو سعي للتضليل..أو لعلها انتظرت أمينة لتخبرها بالأمر وهذا هو التخمين الأقرب للصواب..

نعود لسعيد.. يعلم أن المستندات بحوزة السيدة سناء ويخطط للأمر، ويكون الأمر مهيأ حين تغادر أمينة ونجاة..ولا بد أنه لاحظ هذا بطريقة ما.. لن توصد نجاة الباب من الخارج بالطبع.. ولم تكن المجني عليها على قيد الحياة لتوصده من الداخل.. أو لعل نجاة تركت الباب مفتوحًا عمدًا من أجل أمينة.. وكل هذا يسهل الأمر على سعيد..ليطعن طعنته في الظلام دون تفرقة بين موت الضحية أو نومها.

ولو كان قد قابل إلهام فعلًا فقد اضطر لتهديدها بالبصمات .. لكنه فوجئ أنها تنكر هذا.. ويستمر حسام في التأكد من اضطرابها فيحاول إيهامها أنها الفاعلة..

هل أسير بطريقة صحيحة ؟

وجه جلال سؤاله إلى سيف الذي قال :

- نعم ..مع إضافة أن سعيد لا يعلم بما اقترفته أمينة، والدليل أنه يعترف على نفسه بعد ثبوت حكم قضيته الأولى فلا مفر..أما أمينة بالطبع تدرك ما اقترفه سعيد.

- لكن ..ما الدليل؟

-الدليل أنها لم تبحث عن المستندات بعدها.. أو لعلها بحثت عنها بعد قتل السيدة .. ولم تجدها بالطبع ..

-و إلهام ؟

أطلق جلال سؤاله الغير مفهوم فسأله سيف بدوره :

-ما بها إلهام ؟

-لماذا لم تخبر أحدًا عن أمر المستندات مسبقًا ؟

ما كاد يتم سؤاله حتى بتره بجملة أخرى :

-من الأفضل أن استدعي سعيد الآن.. وإحضار أمينة.

لكنه سمع طرقات العسكري في اللحظة نفسها، وكانت وفاء تستأذن للدخول في لهفة غريبة وهي تتحدث بارتباك:

-معذرة.. لكن.. سيف !

لم تكن تعرف ما تقول فأشار إليها جلال بالجلوس لكنها لم تفعل وقالت في غصة :

-لم أجد أثرًا لإلهام يا سيف.

-لا تقلقي يا وفاء..

رد سيف في هدوء ثم أكمل :

-إلهام بمأمن يا وفاء..

تنقلت وفاء بنظرها بين الحاضرين وكانت لا تزال ممسكة بتلك الرسالة المطبوعة، وهي تقول :

-سيف..ثمة اعتراف.

لم تكن تدري هل من الصواب أن تنطق بهذا أم لا.. لكنها فعلت على أية حال.

قال سيف باستغراب:

-أي اعتراف؟

صمتت وفاء وهي تنظر ناحية جلال فبادر سيف قائلًا :

-صدقيني لا خوف على إلهام من شيء.. ماذا هناك؟

قصت وفاء أمر البريد والرسالة الأخيرة على مسامعهم وما إن انتهت حتى تبادل سيف وجلال النظرات في صمت، حير وفاء حتى قال جلال موجهًا سؤاله لسيف :

-حسام ؟

-نعم.

أجاب سيف وقبل أن يكمل جملته قالت سارة وهي تقف فجأة :

- بإمكاننا إحضار الفاعلين..لكن إلهام لا بد أنها صدّقت شيئًا ما..

قال جلال ناظرًا إلى سيف الذي بدت عليه الحيرة:

-دع باقي الأمر لي ..واذهب لتطمئن على إلهام.

لم تكن وفاء تفهم شيئًا من هذا كله..فقررت الانصراف مع سيف وسارة لعلها تدرك شيئًا ما..

غادر ثلاثتهم ، وقال وكيل النائب العام مخاطبًا العسكري :

- أحضر سعيد فورًا.. واستدعاء للمدعوة أمينة محمد السيد.

الفصل الرابع والثلاثون

تأملت ذاتها بنظرة غريبة..شعرت لأول مرة أنها ارتدت كيانًا غير كيانها ..وأن بداخلها نبتت غربة أبدية..

كانت الأفكار تعصف بها..هي لا تزال تذكر جيدًا يوم أن انتقلت مع وفاء إلى ذلك المكان..كل ذكرياتهما معًا لا زالت نابضة هناك..

لم تدرك وقتها أنها مجرد محطة من محطات حياتها..وأنهما ستفترقان.. ستفترقان مهما رددتا من وعود البقاء الأبدي..لن يضمهما بيت واحد، ولن يجمعهما شجار مرِح على توافه الأمور..لن تضمها وفاء حين ينتابها الأرق..

..

يا الله..كم هو صعب هذا الوداع.. ربما الوداع الذي أَلِفته كان من نوع آخر..كان وداعًا بإرادتها ومن طرفها هي..وربما هو أهون وطئًا من الوداع الذي تفرضه سطوة القدر..

كانت تسير بنصف عقل..وبقي تفكيرها يقاوم شيئًا ما؛ شيئًا عرفَته منذ أيام، ولازمت الفراش على أثره وأصرت أن تحتفظ به لنفسها..ثم أظهرت أمام الجميع أنها تعافت، وأنها تمارس حياتها بصورة طبيعية..

يجب ألا تستسلم لمثل هذه الأفكار ..لكن.. هل كان والدها قاتلًا حقًا..هل حقًا كانت شهادة وفاته مع والدتها كما كانت تزعم وتخفيها عنها عمدًا؟..أم هذا ليس دليل موت؟..فربما يغدو المفقود في نظر القانون متوفيًا ..هذا السؤال يراودها بلا هدنة..ليس ما يعنيها هو أن جدها قد عاش بعد إقصاء الدواء عنه أم لا..ليس ما يعنيها هل والدها من قتله أم قدره..! لكن..إقدام والدها على القتل هو ما يؤرقها..هي لا تريد أن تصدق ما قَصّته والدتها في رسالتها..هي لم تحادثها من يومها ولا تريد..فقد حطمت تلك المرأة ما كانت تحيكه بخيالها من أمل..لم يعد لديها ماضٍ تستند إليها..أصبحت كنبتة صناعية بلا جذور..

ألا ليتها لم تستطلع ذاك الماضي، ولم تلتمس السبيل إلى إزالة الحجاب عنه..ربما كانت والدتها محقة..لكن لا..الفنان لا يغدو قاتلًا بتلك السهولة..ثمة شيء ناقص في الصورة..لكن ها هي أيضًا قاتلة دون أن تعلم..أبيها اقتص من ذاته..

أو لعله مجرد خيال اختلقته هي..هل هو من قام بإرسال تلك الرسائل ؟

والدتها على حق..الجميع على حق عداها.

أحاطت يديها حول جسدها، وكأنما تتلمس وحدة الذات وكانت تعلم مقصدها جيدًا..

ثمة قبضة تعتصر قلبها بعنف تشعر معها أن أنفاسها المتلاحقة تخرج بصعوبة..كانت تسير ولا تشعر بقدميها..شيء من اللاشعور كان هو المسيطر الأساسي على أفعالها..

بدت المسافة قصيرة في مخيلتها رغم أنها ليست كذلك ..وكأن الأرض تُطْوى تحت قدميها طيًا..وبدا كل ما حولها تافهًا و ضئيلًا..ضئيلًا بصورة مضحكة حد الوجع.

أبوها قاتل..ولمَ لا ؟..لمَ عساها تهرب من هذه الحقيقة المؤكدة..أمها لم تكن تكذب..أخفت عنها حقيقة بؤسها التي صارعت هي لتزيح الستار عنها..

أما هي..فلا تصلح..كيف عساها ترضخ لأن تجلب للمجتمع أطفالًا مشوهين نفسيًا..وربما قتلة..

لكن أية سخافة تلك التي احتلتها حين أقنعت نفسها بإمكانية بدء حياة جديدة..أي نفاق هذا الذي تتخذه مسلكًا لها..نعم هي منافقة..هي لا تحب سيف..إنما هي رأت فيه حبل نجاتها من براثن ماضيها - أو هكذا ظنت - ..أي أنها تستخدمه لمصلحة شخصية فقط، وتغفل عما قد يسببه زج كيانها بحياة شخص آخر..يا لها من أنانية..ربما هي لا تحب وفاء أيضًا..أو ربما وفاء لا تحبها بالصورة التي تتخيلها هي..وإلا لِمَ تتزوج وتتركها؟..رباه..ها هي تعود لنفس التفكير الأناني مرة أخرى..أمها كانت على حق..هي مريضة ولا

تصلح للمجتمع برمته..أمها على صواب..هي تلقي كل اللوم على العالم، ولا تنتبه إلى خذلانها لهم..ألم تخذل أمها ؟..ألم تقابل إحسانها - كما تقول - بإساءة وعقوق..ألا ليتها عادية مثل باقي البشر ولا يأخذها فكرها إلى هذه الدوامات المضطربة..

طافت بذهنها كلمة وداعًا..تتخيلها بصعوبة حين تناولت حقيبتها تبحث عن مناشف ورقية تزيل بها آثار دموعها..ولمحت هاتف وفاء الذي نسيته مصادفة عند تصفحها للبريد وكأنما كان يعلم أنه بجوارها إذ فطنت إلى وجود رسالة غير مقروءة به..خفق قلبها حين رأت أن رقم المرسِل غير مسجل بالهاتف..ترددت قليلًا قبل أن تقوم بفتح الرسالة "وداعًا" كان هذا نصها..كلمة واحدة فقط..هو ولا أحد غيره..بلا تفكير، وجدت نفسها تحاول الاتصال برقم المرسِل، ولكن بلا جدوى إذ كان هاتفه مغلقًا..جن جنونها فقد كانت الرسالة لا يتجاوز زمن وصولها الدقائق..

لا تزال تذكر نبرته حين ناداها ب"آنستي"..لا تزال تذكر ومضة الصدق في عينيه..ولاتزال تذكر خذلانها ..أهي مختلفة حقًا ؟..هل يمر جميع الناس بمثل هذه الاضطرابات.. أم تراها حقًا مريضة؟..هل توجد حقًا في حياتها أحداث تستحق كل هذا العناء؟..أم تراها مراحل اعتيادية تضخمها بمخيلتها المريضة ؟..فيغدو الزواج معضلة عصية..ويغدو الماضي سجنًا تهرب منه..

ربما تبدو حياتها ضئيلة جدًا في عين البشر وضخمة جدًا في عينها؛ لأنها وحدها من عاصرتها..

ترى هل كانت كلمات والدتها عن أبيها تنتمي إلى الحقيقة..أم تراها تخدعها؟..هل أرادت أن تعاقبها فترمي بأيامها القادمة في جوف الجحيم..

كانت تظن أن نجاتها تكمن في معرفتها بالحقيقة فإذ بمعرفتها تؤلمها أشد من جهلها..

ترى هل يرغب سيف في بداية جديدة حقًا ؟..أم تراها طبيعة الرجال التي تدفعهم للهاث وراء امرأة تمنعت عنهم..كلهم مخادعون..أم تراها هي المخادعة وهو الصادق..هي التي وافقت حين شعرت بأنه سيعرض عن مطلبه..هي القاتلة.

أواه يا أبي..ألا تأتي وتنقذني من كل هذا..لمَ تركتني؟..أصحيح ما قالته أمي عنك ؟..أنا أشعر بأنك لست كما قالت..ألم تكن حقًا تعلم بوجودي حين رحلت ؟..هل لو كنت قد علمت كان هذا سيثنيك عما أقدمت عليه..أَو تراك أقدمت على شيء حقًا ؟..ألا ليت أمي قد تركت في ذهني تلك الصورة المبهمة عنك..إن الأشياء المجهولة نستطيع بمخيلتنا أن نجعلها مثالية..

أتراك حقًا_ لو كنت واقعًا _كنت ستخذلني ؟..وأن عدم رؤيتي لك هو سبب ما أعول عليه من إمكانية مساعدتك لي لو كنت هنا!

لم تكن تحفظ معالم الطريق جيدًا..إلا أن ذاكرتها لم تخنها رغم أنها أسلمت عقلها، لكل تلك الأفكار..بدا السياج ممتدًا حتى غابت نهايته في ظلام الليل..لم يكن هنالك قمرًا يبرز المكان بوضوح..

وضعت يدها على السياج كأنما تتلمس مكانًا ما..كانت البرودة تسري بأوصالها..والهواء المزمجر ينذر بحلول عاصفة ..بالقرب من هنا كان اللقاء..

أخذت تسير على جانب الطوار، وهي متكئة براحة يدها على حافة السياج..هنا تمامًا جلس على هذه الصخرة يتحدث إليها..كانت الصخرة لا تزال بمكانها..وقفت تتأمل المكان بصعوبة في الظلام ..هي لا تدري تحديدًا كيف أمكنها الوصول إلى هنا وكيف حفظت الطريق..

شعور يجتاحها ولا تدري كنهه..تشعر أن روحه هنا..سرت بجسدها قشعريرة عندما تذكرت رسالته الأخيرة ..أي وداع يعنيه ؟..وداع لرجائه بها أم وداع لكل شيء ؟..رباه..أناشدك أن تحميه بقوتك..خذلته أنا رغمًا عني فلا تتركه أنت..

هنا على طرف السياج جلست هي مقابِلة له..هنا سارا معًا..وهنا قال لها أنه سيخبرها كل شيء عنه لأنه رأى فيها إنسانية ما..هه..كان مخطئًا.. الاختيار الخاطئ يكمن في اليقين غير المبرر..ألا ليته هنا لتبثه كل الذي يعتمل بروحها..لتفضي إليه بنفسها..هي تثق أنه وحده قد يعيد ترتيب ذاتها ويرشدها..يا لها من أنانية وقحة..ها هي تريده لأجل مصلحتها الخاصة أيضًا.. لم تفكر به ولا بحديثه الذي ظل طوال عمره يبحث عمن ينصت إليه..وعندما وجدها..خذلته..

تراخت بجسدها على الصخرة بنفس مكانه..كانت الأمواج تعلو خلف السياج وتيارات الهواء تتزايد تصاعديًا..كل شيء كان باردًا كما عهدته..هي نفسها كانت باردة..كان الخاتم..الذي أهداها سيف إياه منذ أيام لا زال يطوق إصبعها ..لم تقو على الاندماج في التفكير مجددًا.. أطرقت وغطت وجهها بكفيها..لم تكن هناك دموع تخفف ما بها..رفعت يديها عن وجهها، وظلت مطرقة ترنو إلى اللا شيء..وفجأة لمحت شيئًا ما أسفل الصخرة..هبت واقفة..لم يكن بحوزتها ما يضيء لها المكان فمدت يدها تتحسس هذا الشيء البارز بحذر فإذ به ورقة مطوية في غير عناية..قامت بإخراجها، ومضت تستند إلى حرف السياج بالقرب من عمود إنارة كي تستطيع تفحّصها..كانت مكتوبة بخط اليد..وعلى الضوء الخافت حاولت القراءة..

" إليكِ ..-إن شاء القدر أن تقرئي-"

إلى إلهام..الاسم الذي أحببته كثيرًا وودت لو أمنحه إلى ابنتي - ..لكن قضى الله أن أكون وحيدًا للنهاية..

إن ما شعرت به من ألفة تجاهك بدده شعوري بنبذك إياي، وأنك ما استمعتِ إلى حديثي إلا رغبة في الخلاص مني ومن ثرثرتي..لكنها والله ما كانت ثرثرة..كانت رغبة قد لا تدركين ماهيتها.. رغبة بالإفضاء نازعتني لسنوات..لا عليكِ من لوم في قراري الأخير..إنما كنت قد اتخذته قبل أن أراكِ حتى..ألم أقل لكِ أن البوح نذير خطر؟..البوح يأتي دومًا بالنهاية..إنك إذ ما قصدتِ وجهة ما لتفضي ما يعتمل بنفسك فهذا ليس جيدًا

كما يبدو..ومع هذا..اخترتك أنتِ ..أردتك كإنسانة، لكنك لم تعامليني كمريض حتى..كنت أشعر أن بك شيئًا مختلفًا..وربما لا زلت..سامحك الله.. انتظرتك طويلًا..ولليالٍ عديدة بنفس المكان..بررت غيابك بانشغالك بعيد ميلادك كما أخبرتني..لم تردي على رسائلي حتى..بالمناسبة، كنت قد أحضرت لك هدية بمناسبة يوم ميلادك، رغم أني لا أدري إن كنتِ ستأتين أم لا، ومن يدري قد تأتين متأخرًا! فالبشر دومًا يحتفظون بالزهور حتى يلقوها على قبور موتاهم..هديتك وضعتها خلف الصخرة التي كنت أحدثك يومًا من فوقها..هي لوحة عزيزة جدًا على قلبي لو تعلمين."

لم تشعر إلهام بنفسها إلا وهي تبتر قراءتها متجهة صوب الصخرة..لأول وهلة لم تبصر شيئًا .. حركت الصخرة للأمام بصعوبة بالغة..ميزت عصاه السوداء ملقاة مما أثار اندهاشها ..ثم دققت النظر فلمحت شيئًا بارزًا عن الأرض..تحسسته وشدته بطء.. كان لوحًا خشبيًا مربع الشكل يحويه غلاف شفاف لكنه قد تلوث بفعل التراب، هرعت نحو عمود الإنارة ..نفضت الغبار المتراكم ..كانت لوحة..شهقت فجأة وهي تتأملها..إنها لوحتها..لوحتها تمامًا..أرتميس.. لا..كان لها إطارًا مختلفًا..لكنها نفس تضاريس الرسم..نفس الروح المكبلة إلى جسدها..من أين له بها وكيف؟

عادت لتكمل قراءتها..علّها تكتشف سر هذا التشابه العجيب..

"أتمنى لو تعجبك..إن لهذه اللوحة سراً ما..كنت قد رسمتها منذ سنوات..سأخبرك بقصتها وقصتي..رغم أني أشعر ببعض المهانة..فليس هناك أسوأ من أن نبرز ضعفنا أمام من لا يأبه، لا تلومي قسوتي في الحديث إليكِ..إن شعوري وأنا أتسكع في الشوارع، ألوم اختياري كان أقسى وأقسى..ثمة جزء كبير ناقص مما أخبرتك به..

بعد ما عانيته من فقدان والدتي..وبعد أن اشتدت معاناتي مع أبي..زج بي أبي بأتون الزواج.. نعم ..كان أتونًا مستعرًا بالنسبة إلى شخص مثلي..لم يكن لديّ ما أعطيه..لا أكتمك سرًا أنني كنت أرغب بطفل أُودِعُ آمالي به..إلا أن عدم تفاهمي مع المرأة التي فرضها القدر كشريكة حياة كان يؤجج

وحدتي ..هي لم تفهمني يومًا ولا حاوَلت..كنت عندما أضيق ذرعًا بآلامي أتحدث إليها عما يجول بخاطري من معاناتي فتقابل حديثي بامتعاض وردود تنبئني أن حديثي لم يتجاوز أذنيها، وأنه يستحيل أن ينفذ إلى قلبها، وأنه ثمة حاجز يستحيل هدمه..وأنا إنما وافقت على الزواج كي أحظى بحياة بعيدة عن أبي وزوجته..فإذ بي أحظى بجحيم جديد..كنت أحيانًا أذهب إلى اعتقاد جازم أن اختلافي عنهم هو آفة أصابتني..

صرت متوحدًا إلى حد موحش.. كنت أنفق الأيام في تفكير متواصل..كنت أفكر بأمي قبل أن أفكر بنفسي حتى..كنت أشعر أنني مسئول عن استرداد حقي الضائع..لا أدري كيف أقص ما حدث..لكن عزائي في هذا هو أني لا أتيقن من وصول هذه الكلمات إلى يدك..

كان يوما غريبًا..أو ربما وحدي مَن بدوت غريبًا آنذاك..تجمعت كل الأشياء السلبية بمخيلتي..عدم تفاهمي مع زوجتي.. معاملة أبي الحانية لزوجه الجديدة كانت تعتصر قلبي..لأني شعرت أن هذا هو حق أمي المسلوب..خصوصًا بعد تصريحه بأنه سيدع كل أملاكه لزوجته مما ضاعف سخطي..ذهبت إليه ذات مساء..كنت سأناقشه بأمر وصيته وأحتد النقاش..دافع عن قراره بحجة أنني رجل أستطيع الاعتماد على ذاتي، أما هي فامرأة ليس لها عائل سواه خصوصًا أنها لم تنجب منه..ثار غضبه وكان مريضًا..ومن هنا جاءتني الفكرة.. تسارعت أمامي ذكريات لا حد لها ..صوت بكاء أمي ليلًا كان يخترق كياني ..ضياع طفولتي بين براثن العنف من أبي..عدم قدرتي على إقامة زواج ناجح..وخوفي من فشلي بأن أكون أب جيدًا..كل هذا كان يثير بداخلي حنقًا يشد أعصابي بقوة، أصر أبي على قراره..وعندما بدا له سخطي الشديد قال لي في نبرة وحشية :

-دومًا تفكر بذاتك وحسب..أناني مثل والدتك.

كانت هذه الجملة بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، أمي !..ألا تزال أنانية في نظره بعد كل ما عانت؟ لم أجب حينها وتملكني هدوء غريب..بدا الصمت وقتها أكثر خطرًا..

خرج أبي عقب جملته وتركني وحدي بغرفته..اختمرت الفكرة بذهني.. كنت أعلم أن نوبات القلب تأتيه كثيرًا في الآونة الأخيرة..مضيت بلا تفكير أبحث عن دوائه..وجدته بالفعل ووضعته بجيب سروالي ثم خرجت لا ألوي على شيء..رميت الدواء خارجًا ثم انطلقت صوب منزلي مذعورًا..استوعبت فجأة ما قمت به..قاتل !..نعم قاتل..و مَن ؟..أبي! ..صرت أهذي وغدوت محمومًا..زوجتي لم تستوعب حالتي..ولم تفلح في تهدئتي حتى بعد أن أخبرتها بالأمر..لم تكن تقتنع بما أقصه عليها..حتى أنها تركتني وراحت في سبات عميق، وقتها عزمت أمري ..

جمعت ما لدي من أموال ..ورحلت..نعم رحلت واكتشفت أن الرحيل هو الشيء الوحيد الذي أجيده..قضيت أكثر من شهرين مغتربًا وأنا أخشى أشد ما أخشى أن أستطلع أخبار أبي..وبالفعل حدث ما كنت أخشاه..خفت أن أبقى على عذابي دون أن يكون قد حدث له ما يسوء فاستطلعت أخباره وتأكدت من وفاته..حينها تيقنت أنني قاتل..وأنني لن أحظى بأي رضا عن الذات إلا حين أقتص من نفسي..وأني أصدقك القول حين أقول أنني كنت أشعر بلذة لكوني أتعذب بسبب ما قررت أن أفعله ..وفعلته..ربما لأنني قد اعتبرت هذا العذاب تضحية لأجل حق أمي.، أرسلت لزوجتي ورقة طلاقها ..-إذ لم أكن أود تقييدها بإنسان مثلي-..ومعها رسالة وداع أخبرها فيها بقرار انتحاري..

الحقيقة أنني كنت قد نويت الانتحار حقًا..لكنه انتحار أشد إيلامًا مما قد يمر بخاطرك الآن..كان انتحارًا بطيئًا جدًا..كنت أعلم أنني في عداد الأموات منذ أن تركتني والدتي، من وقتها كنت أصارع لنزع الروح مني..رغم أني..كنت أحيانًا أستسلم لآمال مزيفة وأحاول بدء حياة جديدة..قررت أن أقيم مرسمًا خاصًا..كنت أهوى الرسم إلى حد كبير..هذه اللوحة التي أحضرتها لك من تصميمي أنا..كنت قد رسمت شبيهتها منذ سنوات لكني تركتها حين رحلت، كنت قد رسمتها لأمي واسميتها "أرتميس"..أسطورة آلهة يونانية..روحانية فاضلة.. تشبهها، قررت فتح مرسمي الخاص بالاشتراك مع

صديق لي..جمعنا نقودنا معًا واتخذنا قرارنا بالبدء وعند الصباح..لم أجده ولم أجد النقود أيضاً..حينها لم أشعر بسوء..هالتني اللامبالاة التي تملكتني أكثر مما هالني تصرف صديقي..كنت أخشى أن أفقد إحساسي تماماً بعد أن شعرت أنه يتضاءل رغماً عني..

قضيت سنواتي وحيداً.. وحيداً غير طامع إلى أية بدايات... كنت قد اتخذت قراري وعزمت عليه..لكن بطريقتي..لا بد من أن أقص ما حدث لي ..لكن لشخص سينصت جيداً..ينصت بقلبه..كان هذا الأمر مهماً جدا بالنسبة لي..إلا أني قد انتهى بي المطاف أن أبوح للورق بعد أن طويت الأرض بحثاً عن ذاك المستمِع..

وجدتكِ..وجدتك وأبصرتك بقلبي..كنت أيقن أنني على صواب في اختياري إياكِ..ثم اكتشفت أنني مخطئ، انتظرتك طويلاً ولم تأت..لكن..رغم هذا كله، ثمة صوت بداخلي كان ينبئني بصدق اختياري..كنت ألتمس لك أعذاراً وأعذار..ثمة ما يخبرني أنك ستقرئين هذه الكلمات..

كنت أحدث نفسي: لو أن الله قد رزقني بابنة مثلك، لم أكن لأمتعض على أية مصائب تحل بي، من المصادفة أن اسمك كان هو الاسم الذي اخترته لابنتي قبل وجودها..لكني كنت خائفاً..خائفاً من أن أجلبها إلى هذا العالم ..أخاف أن أنقل إليها حزني وتشوهي النفسي بملامح روحها، لكن..ليتها كانت هنا، كنت سأتقاسم معها مشاعري، كنت سأسألها إن كنت غريباً أم لا ؟..وحدها كانت ستدفعني لإكمال حياتي.

أحياناً أعتقد في صدق جميع من حولي إلاي، كنت أظن أن أبي كان على صواب في أفعاله، وزوجتي كذلك، وحدي أنا النشاز بهذا العالم، أنا صاحب التصرفات الغريبة التي أود من الجميع أن يفهموها..حينما كانت تغزوني أمثال هذه الأفكار كنت أغرق في يأس عميق..فما أسوأ أن تظن أن صرحاً ما بخيالك قد صار وهماً وحطاماً!..إن اعتقادك في أنك المظلوم إن لم يكن حقيقياً أو خالطته الريبة كان أسوأ من شعور الظلم نفسه..

قررت أن أنتحر بلا مقدمات -هذا إن كان يجوز لي أن أسميه قراراً- ..كان فرضاً من فروض القدر والصراع النفسي..منذ رحيل أمي وأنا أصارع ..الآن روحي في نزعها الأخير..أتيت إلى هنا لآخر ليلة وانتظرت بلا جدوى..كنت أريد نهاية تستحق الذكر..لكنكِ لم تأت..وقفت أتأمل المياه طويلا وشعرت بانسياق لاإرادي..ودوار يحتل جسدي بأكمله، أكملت لكِ ما كتبته هنا..ثم أرسلت لكِ رسالة الوداع..أشكرك رغم خذلانك لي.."

لم يكن هناك إمضاء حتى..

هل تراها لا زالت تسبح في خيالاتها مع شخص لا وجود له

سقطت الورقة من يدها..

كان هو..لا بد أن هذا ليس خيالاً

ليس قاتلاً حقاً.. بل هي

سقطت دمعتان..

كانت "هي" ولم يعرف..ولن يعرف أبدًا..

ازداد ارتطام الهواء بوجهها..

كان بريئًا..

ازداد هبوب الهواء وانطفأ المصباح..

لكنه لم يعلم بكونه بريئاً..

لم تكن ترى شيئاً، كانت هي السبب أيضاً..

لو أنها لم تتأخر..

تحاملت على جسدها بصعوبة..

ربما لو أنها لم تخذله لاختلفت حياتهما..

اتكأت على السياج لتعيد توازنها..

لكنها خذلته..

ضغطت على يدها بقوة فانزلق الخاتم من اصبعها..

ما أبعد الأشياء القريبة..!

وقفت تتأمل المياه التي تلونت بظلام الليل الحالك..

شعرت بانسياق لاإرادي..ودوار يحتل جسدها بأكمله..

و..

فقدت توازنها.

"حاشية"

كنت قد وعدتها، لكن وعدي لم يعد له أهمية الآن..

كان شيئاً ثقيل الوطء على نفسي..شيء لا ينبغي أن أحمله وحدي، لم أقبل أن تمر هذه الأشياء على العالم مروراً عابراً..

حين لا نمتلك فعل شيء في لحظة الخطر..لا يكون بوسعنا سوى إصدار صرخة التنبيه..

وربما كانت هذه الكلمات هي صرختي الوحيدة..لكن بعد لحظات الخطر..

لم أكن أعلم أن الأمور قد تسوء إلى هذا الحد..

حينما أفضت لي بسرها..تأثرتُ.. نعم تأثرت..لكني لم أفطن إلى هذا كله..لم أستوعب الأمر إلا بعد أن غادرت هي..وتركتني أرزح في أصفاد الذكرى..

لا أصدق أنها صارت ذكرى حتى..

التقيتها كثيراً بعد إفضائها لي..لكنها لقاءات لا تستحق الذكر.. وكأنها كانت تتجنبني لتهرب من رؤية ما قصته لي جليّا بعينيّ.

تلقيت الخبر كصاعقة..

أبهذه البساطة ترحلين؟

أعترف بأني لا زلت أعاني من صدمتي تلك، لكن كان هناك في نفسي إيماناً راسخاً أنها لم تقص لي كل هذا بلا طائل.. كان لابد أن أفعل شيء؟..حتى لو لم تكن هي هنا..

لم يكن بالأمر السهل أن أسطر هذا كله..

استعنت بطريقتها في البوح لي... لكن هذا لم يكن كافياً..

تحدثت إلى وفاء..إلى سيف..إلى والدتها حتى..

فعلت كل هذا كي أحظى بما ينير لي الطريق..

دفترها كان لا يزال هناك..ودفتر سيف أيضاً..حتى جهاز الحاسوب خاصتها لم أمنع نفسي من تصفحه..

قرأت بريدها حتى..

كنت أفتش عما يوضح لي الصورة..

الرسائل المذكورة تحت اسم "سلمى صلاح"

كنت قد احتفظت أيضاً برسالته لها، حين وجدتها في ذلك اليوم الذي لن أنساه ما حييت..

لم أطلع والدتها على تلك الرسالة..لم يعد هناك جدوى على أية حال..ولأنني فعلاً لم اتيقن من كونه هو الكاتب تلك الحروف بالفعل..

لله كم عانيتِ يا إلهام !

لله كم عانيتِ يا صديقتي!

كنت أود لو تبقين هنا؛ لأحتضنك مرة واحدة على الأقل..احتضانا أصدق من ذاك الذي منحتُكِ إياه بتلك الليلة..لأخبرك على الاقل أنكِ بريئة لكنكِ رحلتِ ..

كشأن الأشياء الجميلة التي تنتزعها الحياة فجأة..

سارة